سُلطانٌ حَكَمَ العَالم

«القانوني»

رحلة شيِّقة في تاريخ الدولة العثمانيَّة



طلحَة أُغورلوإلْ

ترجمة: عبد القادر عبد اللي



الإمارات U.A.E.
THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

سُلطانٌ حَكَمَ العَالم «القانوني»

رحلة شيِّقة في تاريخ الدولة العثمانيَّة

طلحَة أُغورلو إلْ

ترجمة: عبد القادر عبد اللي







الطبعة الأولى
2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-9948-446-52-1

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية
DÜNYAYA HÜKMEDEN SULTAN KANUNİ

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع



Translation is sponsered by TEDA
T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi
Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu
Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)
06030 Ulus/ANKARA/TURKEY
e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr - Web: www.tedaproject.com

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Copyright © TIMAS Publishing
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
© Eserin her hakkı anlaşmalı olarak Timaş Basım Ticaret
ve Sanayi Anonim Şirketine aittir.
İzinsiz yayımlanamaz. Kaynak gösterilerek alıntı yapılabilir.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

طلحة أوغورلو إل

طلحـة أوغورلـو إل مـن بلـدة دميرجي التابعـة لمحافظة مانيسـا. تخرج في قسـم التاريـخ مـن جامعـة جلال باير في مانيسـا عـام 1997. أعد برامـج تاريخية للإذاعات الخاصة على مدى ثمانية أعوام. نشر العديد من المقالات في المجلات المحليـة والأجنبيـة، وكتـب الكتـب الآتيـة: حروب تشـنق قلعة، دليـل رحلة إلى غليبولو، أدرنة عاصمة البلقان، حرب وجودنا، فتح اسـطنبول، مكة والمدينة في آثار سـيدنا الرسـول، القادمون أولاً ومولانا. إلى جانب هذا أعد أقراصاً مدمّجة حول تاريخ تشنق قلعة، وأدرنة، ومكة والمدينة. عمل سنتين في دار إماج للنشر، ومن بين الكتب التي حررها فيها: الأمانات المقدسة، قانون تيمور، مذكرات خير الدين بربروس ومجلة الحرب. عمل أوغور إلِ في إدارة قسـم التطوير والبحث لـوكالات السـياحة المعارضة، ونظم لمجموعـات محلية رحلات ثقافية إلى كثير من الأمكنة في تركيا، ويقدم العديد من الندوات التاريخية في إطار برنامج تدريبي للمؤسسـات والجمعيـات. أوغـور إلِ قائـم على رأس عمله الأكاديمي في جامعة مرمرة، ويعد برنامج «رحّالة العالم» لإذاعة «TRT 1»، وبرنامج «في إثر التاريخ» لتلفزيون «TRT Türk».



سلطان حكم العالم «القانوني»

تأليف: طلحة أوغورلو إلْ

ترجمة: **عبد القادر عبد اللي**

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة
معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

جميع الحقوق محفوظة للناشر



أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)

دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)

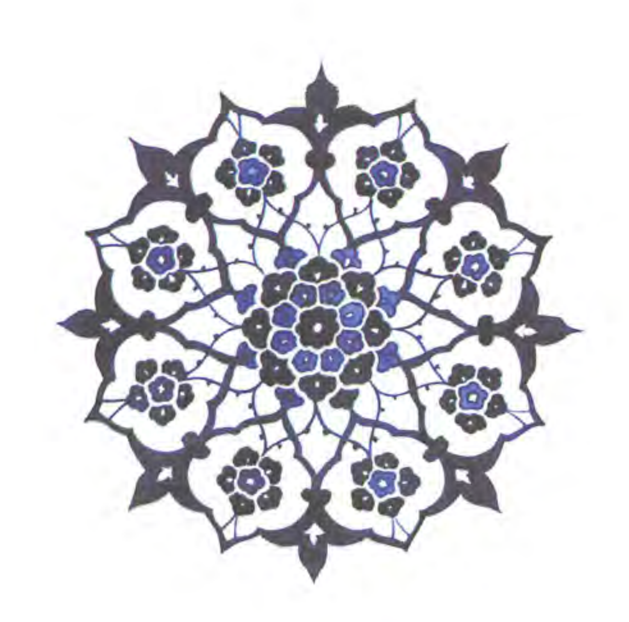
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

إن الناشـر غيـر مسؤول عن آراء وأفـكار المؤلف. وتعبّـر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الناشر.

تصميم الغلاف: **سامح خلف**

التنضـيد وفرز الألوان: **أبـجد غرافيكس**، بـيروت - هـاتف 785107 (1-961+)
الطباعـة: **مطابـع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتـف 786233 (1-961+)

المحتويات





مقدمة

إنني أتناول في هذا الكتاب إدارة السلطنة العثمانية في القرن السادس عشر، وتقليد الخروج إلى السنجق، ونساء القصر العثماني، والمواقع الوظيفية في الديوان، ونظام عملها إلى جانب كثير من تفاصيل شخصية السلطان سليمان. ستجدون في هذا الكتاب ما يغطي نصف فترة حكم السلطان القانوني من كل جوانبها تقريباً.

لكي نفهم السلطان سليمان وعصره، بحثنا بداية حول والده ووالدته وجده وكبار الشخصيات المحيطة به. لقد لعب المكان الذي وُضع فيه، وطريقة وضعه، وتشكيل شخصيته، ومواهبه دوراً مؤثراً جداً في هذه المرحلة. حسناً، أين عاش في تلك المرحلة؟ وما هي المهمات التي كُلف بها؟ وأي سنجق حكم؟ وما هي التطورات التي شهدها في هذه المرحلة وأثرت في حياته اللاحقة؟ وما هي الحملات التي خرج فيها أثناء سنوات توليه الحكم؟ وكيف خاض الصراع السياسي؟

إن فَهْم الوضع العالمي لتلك الأيام، أهم ما ينبغي فعله من أجل فهم السلطان سليمان ومرحلته؛ أي ماذا كان يحدث في أوروبا وآسيا في فترة إمارته وتوليه سدة الحكم؟ وأيّ الدول كانت قائمة؟ ومن كان يحكمها؟ وما هي قوة

تلك الدول؟ وما هي أهدافها، وخططها؟ يتناول هذا البحث التطورات الممتدة من أوروبا إلى الشرق الأوسط، ومن آسيا إلى العالم الجديد (أمريكا) بالتوازي مع تطورات السلطنة العثمانية. يعرض لكم هذا البحث المقارن الواقع الذي عاشه السلطان سليمان وفريقه، وما هي الحملات التي انطلقوا بها، وما هي أهدافها، وعلى ماذا اعتمدوا في اتخاذ المواقف والقرارات بكل وضوح. في الحقيقة، يمكننا الجزم بأن هدف الفتوحات لم يكن جمع الغنائم وتوسيع الأرض كما طُرح بشكل ضحل حتى وقت قريب.

إن النقاشات لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا في مجتمعاتنا حول مكانة المرأة وعلاقات نساء القصر، وخاصة السلطانة حُرّم وما أحاط بها من أحداث على مدى سنوات طويلة. في الواقع، لا يمكن لبحث تم تناوله بنظرة غربية خالصة أن يلبي حاجتكم في هذا الموضوع. مع أن النظر إلى الأحداث من زاوية إنسان هذه الأرض (المواطن التركي)، والغوص في مصادرنا الرئيسة، والبحث في الأحداث على ضوء عاداتنا وتقاليدنا وأعرافنا سيوصلكم إلى النتيجة. لهذا، تناولنا بالتفصيل وضع النساء العثمانيات في القصر من خلال شخصية السلطانة حُرَّم، وكيف وصلن إلى هنا، ومصدر دخلهن، وكيفية إنفاقهن، وأين ينفقن، وما هو سقف إنفاقهن، وما إلى ذلك من تفاصيل كثيرة. بصراحة، يمكن أن يُفهم من خلال هذا البحث معنى الحرم الحقيقي على عكس نظرة المستشرقين البعيدة عن الواقع والسائدة منذ زمن طويل.

إن مرحلة السلطان سليمان هي إحدى المراحل النادرة التي شهدت أكبر التحالفات واجتماع كل قوى الشر لحياكة أكبر المؤامرات على العالم الإسلا ولكن تلك المؤامرات فشلت بفضل الرجل المؤسس لهذا الفريق العظيم، والعباقرة الذين يحيطون به، والجنود المتحمسين الذين لا يعرفون الكلل، والفنانين رقيقي الروح الذين وصلوا بالفن إلى الذروة، والشعب البعيد عن ملذات الدنيا ومخاوفها والذي يعيش من أجل أن يمنح الحياة. يجب البحث عن سوء نية من أراد تشويه سمعة السلطان سليمان وفريقه في هذا الأمر تحديداً. ستدهشكم ردة فعل العثمانيين وسلوكهم في مواجهة نشاطات التمرد المنتظمة التي اندلعت في

بداية حكم القانوني، وألعاب إيران الماكرة، ومحاولة إعادة إحياء روما المقدسة، وبعث روح المثل الصليبية وخططها.

ستجدون في هذا الكتاب أجوبة عن كثير من الأسئلة التي شوشت العقول مثل: كيف جلس السلطان سليم الجبار على العرش؟ وكيف كانت الخاتون حفصة؟ وكيف تم اختيار السلطانة خُرّم؟ وكيف حظيت بالحب؟ وكيف رُفّع إبراهيم باشا من عبد إلى الموقع الرفيع الذي وصل إليه، ولماذا أعدم؟ وما الذي يكمن وراء حقد الأوروبيين على العثمانيين؟ ولماذا هم معجبون بهذا الشعب الذي يكنون له كل هذا العداء؟ وكيف كان خير الدين بربروس قرصاناً وبحاراً ورجل دولة؟ وما هو تأثير موقع شيخ الإسلام في إدارة السلطنة العثمانية؟ وما هو الديوان السلطاني؟ وممن يتألف؟ وما الفرق بين الحكم المطلق العثماني والحكم المطلق الأوروبي؟

ستظهر أمامنا أيضاً الإستراتيجية الحربية، ونظام الطليعة المقاتلة، وتقنية المدفعية والبنادق العثمانية من فتح بغداد إلى ضم رودس، ومن معركة موهاج إلى حصار فيينا، ومن فتح تبريز وبغداد إلى الحملة الألمانية الشهيرة.

لقد مرّ هذا العمل بمرحلة غريبة من البحث والكتابة. في أثناء البحث في معلومات هذا الكتاب، ذهبت في رحلات عبر تركيا ومختلف دول العالم، والتقطتُ صوراً من مناطق جغرافية مختلفة، والتقيت بمختلف أنواع الناس، وحاولت الاطلاع على أفكارهم؛ أي حاولتُ معرفة نظرة اليمني والسوري والبوسني والنمساوي والألماني والإسباني إلى السلطان سليم. حتى إنني ذهبت إلى الدول الاسكندنافية، كما حاولت معرفة نظرة البلجيكيين إلى الملك العظيم شارلكان الذي ولد في بلدهم، ومعرفة وصف كارل الخامس في الكتب الألمانية، وتقييم الإسبان لكلاوس الأول؟ ولماذا يمتدح كارل كثيراً في المصادر، وتنعقد الأقلام عند الكتابة عن السلطان سليمان؟ لقد قمت بتقييم كل هذا بالتفصيل.

إن اعتماد هذا الكتاب على حصيلة أكثر من خمسة عشر عاماً من الرحلات والصور هو ما يمنحه خصوصيته وتميزه. لقد ذهبت شخصياً إلى حيث ذهب السلطان سليمان ما عدا ثلاثة أمكنة، والتقطت فيها صوراً. لقد كتبت هذا العمل

من خلال زياراتي للأمكنة التي ذهب إليها السلطان سليمان كلها ما عدا بغداد وتبريز وجزيرة كورفو. حتى إنني تقفيت آثار السلطان سليمان في الأمكنة التي لم يذهب إليها، ولكن تأثيره وصلها. لقد تجوّلت من مرسيليا إلى روما، ومن وسط فيينا إلى بافييرا، ومن أورليون إلى اليمن، ومن القاهرة إلى شواطئ شرق أفريقيا، وكانت الرحلات مثيرة إلى أبعد الحدود.

لم أكتفِ بالصور التي التقطتها، بل قارنتُ بين صور هذه الأيام ولوحات حفر تلك الأيام ومنمنماتها. والغاية من هذا فهم ظروف تلك الأيام وأزيائها وقيمها الفنية بشكل أفضل.

كان بإمكاني أن أضع هوامش لكل سطر من أسطر الكتاب، ولكنني لم أفعل ذلك، لأن هدفي لم يكن تقديم عمل أكاديمي فقط، بل امتاع القارئ وجعله يستنبط دروساً. لذا، قمت بإدراج أسماء المصادر بشكل مستقل في نهاية الكتاب. لا بد لي هنا من التأسف، لأننا نعيش في بلد يُطّلع فيه على التاريخ من خلال المسلسلات والروايات، فأنا على ثقة تامة بأن أكثر الطرق تأثيراً لشرح التاريخ الصحيح هي منحه طعم الرواية دون الإفراط في التخيل، من خلال الغوص إلى أعماق المصادر.

لقد أردت أن يقع هذا الكتاب الذي أتحدث فيه عن السلطان سليمان وعصره في القرن السادس عشر في جزء واحد. ولكن المواد البصرية الغنية جداً التي أدرجتها فيه حالت دون ذلك. لذا، اضطررنا إلى نشره في جزءين. بدأ الجزء الأول بالسلطان بيازيد، وغطى الفترة الممتدة حتى نهاية حملة إيران الأولى التي انتهت بإعدام إبراهيم باشا. أما الجزء الثاني، فقد تضمن الصراع السياسي بين عامي 1538-1566، والحرم في قصر طوب قابِ، وبنية القصر التنظيمية، وأمراض القانوني، وأوضاع أولاده، وصراعاته في السنوات الأخيرة حتى وفاته.

باعتباري خريج تاريخ، ودرستُ لاحقاً تاريخ الفن، ومستمر بعملي الأكاديمي في هذا المجال، لا أرى أن التاريخ يتشكل من أحداث سياسية وسيّر أشخاص فقط، بل من قيم جمالية للفن والعمارة، إضافة إلى أن تناولها مع الأحداث والشخصيات يحمل أهمية وفائدة أكبر. لذلك، أعتقد أن قراءة التاريخ

كقراءة دليل سياحي مجاز من وزارة الثقافة والسياحة. لذا، عليه أن يكون مدعوماً بالزيارات الميدانية ويحمل أهمية كبرى. ستجدون في هذا العمل كل ما تقدم، وستجدون التاريخ والمرحلة السياسية وتفاصيل حياة الأشخاص، والفنون، والأمكنة والجغرافية مقدمةً كلها بشكل متداخل.

إنني لا أرى أي حاجة للإطالة في هذه المقدمة لقد قال أجدادنا أجمل ما في الأمر: «عمل الشخص هو المهم، دون النظر إلى الحديث والسيناريو والمسلسل والفيلم!»

طلحة أوغورلو إل



همایون یوردقلرینی واقع اولان علمانك وصلحانك بیانندر

ومنهم العالم الفاضل المولى عبد الحليم بن علي رحمة الله عليه



قائد لا يهدأ في مكانه: السلطان سليم الجبار

من حسن حظ السلطان سليمان القانوني أنه ابن سلطان سلاطين مثل السلطان سليم الجبار. فقد كان السلطان شخصية لا يمكن أن تهدأ أو تكل أو تتردد بتقديم أي تضحية عندما يتعلق الأمر بطموحها. لقد كان السلطان متسامحاً إلى أبعد الحدود فيما يتعلق بشخصه، وحازماً غير متهاونٍ فيما يتعلق بالدولة والشعب. وأعتقد أن هذا الجانب هو ما جعل فهمه بصورة واضحة صعباً. لقد كانت حالة السلطان سليم الجبار النفسية تحمله على فتح دول، وكان السلطان يتحمل أعباء حملات طويلة دون كلل أو ملل من جهة، وعند الضرورة يجابه حتى جيشه. من جهة أخرى، كان السلطان ليوافق على إعدام صديق قريب جداً منه رافقه في «العمل التشريقي»؛ وإذا لم نأخذ الفترة الزمنية بعين الاعتبار والحالة التي دفعته

على اتخاذ مثل هذا القرار لا بد أننا سنفهم قراره بشكل غير صحيح. ففي الأوقات الحرجة، وعندما تضرب الفتن أطنابها، فإن أي ضعف يمكن أن يبديه إزاء عبارة الصدر الأعظم الأكثر ثقة لديه: «سلطاني، الجنود يرجون العودة!» فهذا يعني إلغاء تلك الحملة. لذا في مثل هذه الحالة، يجب عليه قطع دابر الفتنة، وأكبر ترهيب لمسببي الفتنة هو معاقبة حاملها وناقلها. ولقد أعطى هذا الدهاء والحسم في إدارة الأزمة ابنه سليمان أهم دروس الحياة.

السلطان سليم الجبار أثناء صيد التماسيح على ضفة النيل

كان السلطان سليم الجبار إدارياً ماهراً فهم جيداً بنية عصره السياسية، ورأى جيداً دعاية الصفويين الدينية والأدبية بجواره مباشرة، وذلك في سعيهم لشق طريقهم إلى قلب الأناضول. لقد كان التهديد الأكبر للقيم التي يمثلها العثمانيون من إيران وليس من أوروبا النصرانية. وكانت الأناضول ستشعل بالفتنة لو لم تُتخذ إجراءات عاجلة. لهذا تصدى السلطان سليم الجبار لحل هذه المعضلة فور جلوسه على العرش.

لم يكن السلطان رجل حرب فقط. فقد تلقى تعليماً جيداً جداً، وكان بالإضافة إلى ذلك قنّاصاً ماهراً جداً إلى درجة أنهم إذا أطلقوا حمامتين في الهواء أمامه، كان بإمكانه أن يرميهما بخنجرين يحملهما بيد واحدة ويسقطهما معاً، وكان جريئاً جداً، إلى حدّ أنه هجم على التماسيح الضخمة على ضفة نهر النيل، وبلغ من الاقدام ما دفعه إلى التقاط الأسود بحلقة حبل

السلطان سليم الجبار في صيد الأسود

يلوح بها من فوق صهوة جواده وهو منطلق بأقصى سرعة خلفها. إن الانجازات التي حققها في فترة حكمه واضحة وجلية بحيث إنها يمكن أن تهدم بكل سهولة الافتراءات التي وصفته بأنه سفاح ومرتكب مجازر.

عند انطلاقه في حملة الشرق، شرح لأصحاب الرأي المحليين في المناطق المختلفة قلق العثمانيين وتخوفهم بالتفصيل، وأرسلهم إلى تلك المناطق، وطلب منهم أن ينقلوا طموح العثمانيين وأهدافهم. وقد نقل علماء شرقيون كبار كثيرون مثل إدريس بيتليسي لشعوب الشرق وجنوب الشرق هدف العثمانيين بعمق، وعندما دخلت الجيوش العثمانية هذه المناطق، لم يقف أحد من سكانها ضد هذه الجيوش. إن معظم الشعب الكردي الذي يعيش في المناطق الشرقية سني أصلاً، وقد سئم من الصفويين وضغوطهم المذهبية، مما جعلهم يقابلون مجيء الجبار إلى المناطق الشرقية بفرح عارم، ولم يتوانوا عن الالتحاق بالتابعية العثمانية. حتى إن هناك مناطقَ ألحت بطلب التابعية العثمانية. ومن هذه المناطق ديار بكر ونواحيها.

استقبل شعب ديار بكر حملة جالدران التي قادها السلطان سليم الجبار بفرح كبير، واعتبر هذا النصر خلاصاً لهم من الصفويين. ولقد استمد أهالي ديار بكر القوة من نصر العثمانيين هذا، وطردوا جنود الصفويين خارج أسوار المدينة ليلاً، وأغلقوا أبوابها، وانتظروا السلطان سليم الجبار وجيوشه سنتين بالتمام والكمال. وبحجة أن سلطان السلاطين قضى مزيداً من الوقت في معركة جالدران والمعركة الأخرى التي تعتبر امتداداً لها في جبل طورنا بعد انتصاره، فقرر العودة.



جامع أولو في ديار بكر



الجنود العثمانيون مقابل الجنود الصفويين

خيّب قرار السلطان هذا أمل أهالي ديار بكر، فأرسلوا إدريس بيتليسي إلى طريق عودة الجيش العثماني. وعندما وصل سلطان السلاطين طلب أهالي ديار بكر بالانضمام إلى تابعيته، فأرسل أحد أكثر رجاله ثقة وهو محمد باشا بييقلي على رأس جزء من الجيش إلى ديار بكر، فدخل بييقلي المدينة بأجواء احتفالية. وقد دفن بييقلي في حديقة الجامع ذي الرصاص (يسميه أهل ديار بكر جامع فاتح باشا) الذي بناه في ديار بكر التي يحبها كثيراً.

مراسلات الجبار مع الأخوين خضر هي إحدى أهم المؤشرات على محاولاته البحث عن إمكانية الحوار. لقد تابع رجل الدولة البعيد النظر الصراع الذي خاضه الريس خضر وشقيقه أوروتش في البحر المتوسط عن قرب، وأمن لهذين الشقيقين الجريئين دعماً مالياً بالإضافة إلى سفن يضمانها إلى أسطولهما داعماً بذلك حملاتهما العسكرية ضد أعدائه. وسيطرح هذا الحوار أطيب الثمار في عهد ابنه السلطان سليمان.

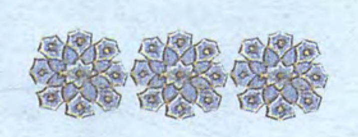
لقد حظيت شخصية سلطان السلاطين الأدبية كما حظي شعره بإعجاب محيطه، ومن خلال حياته البسيطة، أحاط نفسه بهالة المتصوفين. كان السلطان يتناول طعامه بأطباق فخارية، وذات يوم، خاطب ابنه سليمان منبهاً إياه عندما رآه مفرطاً بالزينة في زمن الرخاء قائلاً: «ابني! لم تترك لأمك ما تلبسه». وعندما عاد من حملة مصر محملاً بالغنائم، ومع اقترابه نهاراً من أوسكودار، أمر الجيش بالاستراحة، وحين سألوه: «يا سلطاننا، لماذا لا ندخل المدينة وقد اقتربنا منها كثيراً؟» فأجابهم متواضعاً: «الناس ينتظروننا منذ أسابيع، إذا دخلنا المدينة نهاراً سيعتبروننا نحن الذين حققنا النصر ويصفقون لنا، مع أن هذا النصر من عند الله».

كان سلطان السلاطين هذا متديناً ومشهوراً بقربه الشديد من الله وقد أكسب العثمانيين الخلافة والأمانات المقدسة. وقد شهد رَجُلَه المقرب حسن

جـان كثيـراً مـن وقائعـه، ورواهـا كلها لابنه. ونقل لنا الشـيخ سـعد الدين أفندي ابن حسن جان كثيراً من مذكرات السلطان سليم الجبار في كتابه الموسوم «تاج التواريـخ». حصولـه علـى الإذن بحملة مصر مـن الصحابة الذين جاؤوا إلى باب القصـر، ودخولـه صحراء سـيناء ودليله سـيدنا الرسـول ﷺ وقربه مـن الله تعالى لحظة وفاته وكثيرٌ من المواضيع تعطينا أدلة جدية على تديّن هذا الرجل.

لـم يتـوان عـن التفكير مطولاً عند الموافقة على إعدام أحد، أو بالبحث عن طرق تمكن هذا الشـخص من الخلاص. قدم كثيراً من العروض لطومانباي آخر سلاطين المماليك الذي أسره بعد انتصاره في معركة الريدانية من أجل أن يكسبه، وقد عرض عليه أن يكون مسـؤولاً إدارياً في الأرض العثمانية، ولكن طومانباي لـم يقبـل بتلـك العـروض. غير هذا، غض الجبار الطـرف عن محاولاته تحريض الذين أرسلهم من أجل استدراجه في الكلام، ولكنه قرر ملء الساحة التي فرغت عند عودته إلى اسطنبول. وقد زرف السلطان سليم الجبار الدموع عند إعدامه في بـاب الزويلـة. ولـم يتـوانَ عن القيام بالأمر عينه مع شـقيقه الأكبر أيضاً. لقد ثبّت أخويـه الأكبـر فـي موقعهمـا حيـن ترك له والـده بيازيد الثاني العـرش. ولكن مع انطلاقـه فـي حملـة جديـة إلى إيران. أدرك أن أدنى تصدع يحدث خلفه سيفشـل هذه الحملة الهامة. لذا، أرسل الجبار رجالاً إلى شقيقيه أحمد وقورقوط تظاهروا بأنهم ضده من أجل اسـتدراج شـقيقيه بالكلام، ومع الأسـف أفشـى الشـقيقان ما كانا قد أضمراه.

وسَّع السلطان سليم في عهده الممتد ثماني سنوات أرض الدولة إلى ثلاثة أضعافهـا، ومـلأ الخزينـة تماماً، ولم يترك منافسـاً لابنه، كما أورثـه فريقاً نخبوياً؛ طاقـم خبيـر مؤلـف مـن رجل الدولـة الكبير بير محمد باشـا، والقائد العسـكري العظيم محمد باشا بييقلي، وقمة العلم شيخ الإسلام علي جمالي أفندي زنبيللي. وهذا الفريق لم يسمح للأمير الشاب الطموح الذي جلس على العرش بأن يسرح في أرضية خاطئة.









أميرة من القرم: الخاتون حفصة

كثيراً ما ردد المستشرقون مقولات تعدد زوجات السلاطين العثمانيين، حتى إن هناك من أوصل عدد الزوجات إلى أرقام رهيبة. ولكن الوضع لم يكن كذلك، وتم تجاهل اكتفاء بعض السلاطين بزوجتين أو ثلاث على الرغم من أن ظروف تلك الأيام تمكنهم من اتخاذ عدد كبير من الزوجات. ومما لا شك فيه أن السلطان سليم خان الجبار واحد من السلاطين الذين عاشوا هذا النوع من الزيجات.

الرأي الذي تشترك فيه المصادر عموماً أن للجبار زوجة أو اثنتين. اللبس ناجم عن كون اسم كل من الزوجتين عائشة. المؤكد أن إحدى زوجتيه هي الخاتون عائشة حفصة ابن خان القرم غيراي منغلي، تتحدث بعض المصادر عن وجود خاتون عائشة ثانية. في الحقيقة، إن اسم الخاتون حفصة موجود في الأسرة العثمانية قبل الجبار. فهناك الخاتون حفصة كريمة عيسى بيك آيدن أوغلو زوجة بيازيد الصاعقة، ولها آثار اليوم في تيرة.

نعلم بأن جامع السلطانة شاه الموجود اليوم في بهارية وملحقاته هو للسلطانة شـاه ابنة السـلطان سـليم الجبار. ومن المؤكد أن السـلطانة شـاه هي ابنة الخاتون عائشـة ابنة خان القرم. غير هذا لدى السـلطان سـليمان شـقيقة اسـمها خديجة. وإضافة إلى السلطانة خديجة التي يُشك في قضية زواجها من إبراهيم باشا تَذكُرُ المصادر شقيقة أخرى تدعى السلطانة شاه التي بقيت فترة متزوجة من لطفي باشا.

ولد للسلطان سليم الجبار غير البنتين والأمير سليمان ثلاثة أبناء هم أورخان وقورقوط وموسى، وتوفوا جميعاً وهم صغار.

يُتوقع بـأن الخاتـون عائشـة حفصـة ولدت عـام 1479، وتوفيـت بعد عودة القانونـي مـن حملـة ألمانيـا مباشـرة، وقبيـل انطلاقه فـي حملة إيـران (19 آذار/ مارس 1534).

ومهما بدا بيازيد الصاعقة وتيمور عدوان يمثلان قومان عند مواجهتهما في معركة أنقرة في مرحلة التأسيس العثماني، فإنهما ينتميان إلى عرق وعقيدة وجذر فكري واحد، ولن يبقى أبناء عثمان وأبناء تيمور أعداء لفترة طويلة. وفي الحقيقة أن التيموريين سيحظون بالدعم العظيم الدائم اعتباراً من مرحلة الفتح، ويستقبل أفراد أسرتهم المالكة في اسطنبول بالطريقة اللائقة بهم، وتقدم لهم الرعاية. وتقع «العضاضة» التي تعد أقدم قسـم من خزينة السـلطان أيوب اليوم بجوار تربة العروسـين مدفون فيها أحد أفراد أسرة تيمور المالكة.

بصراحة، إن زواج السـلطان سـليم الجبار من ابنة خان القـرم يعنـي وحـدة هاتيـن العائلتيـن الأصيلتيـن. لـم تبـق الخاتـون عائشـة حفصة طويلاً قـرب زوجها خارج فترة حكمه لسنجق طرابظون. لأنه ثمة قاعدة لدى العثمانيين تقضي بخروج الأم مع ابنها الأمير لحكم سنجق عندما يبلغ العاشرة أو الحادية عشرة من عمره. وهذا ما فعلته الأم، ولم تلتقِ بزوجها السلطان سليم الجبار كثيراً لفترة طويلة هي مدة رحلة السنجق.

تمثال نصفي للخاتون حفصة في مانيسا

أول رحلة سنجق للأمير سليمان كانت إلى بلد والدته كفة في القرم، وبقي هنـاك قرابـة ثـلاث سـنوات، وعـادا إلى اسـطنبول عند جلوس الأب سـليم على العرش، ولكنهما بعد إقامة قصيرة خرجا إلى سـنجق مانيسـا. ورافقت الأم ابنها إلى مانيسا، وبقيت مقيمة فيها حتى جلوس ابنها على العرش عام 1520. عُرفت السلطانة حفصة بحبها لعمل الخير، ومن المعروف أنها أسست مدينة حفصة في منطقة تراكيا واستمدت اسمها منها، وبنت كلية السلطانة في مانيسا ونزلاً للقوافل في مرمريس دعماً لحملة رودس، ومسجداً في أورلا.

ونعرف بأن الأمير سليمان الذي أرسل إلى مانيسا مع والدته الخاتون حفصة أقام في اسطنبول أثناء حملة والده على إيران، كما أقام مع والدته في أدرنة أثناء حملـة مصـر الطويلـة. وقـد بقيـت والدته فترة في أدرنة بعد وفاة والده وجلوسـه

مدخل كلية مانيسا



على العرش، وقامت بأعمال خيرية. وفي تلك الفترة أسست المدينة التي سميت باسمها.

يكفي الحديث عن «وقف مسير» في مانيسا لشرح عظمتها، ويزيد. أصيبت السلطانة الوالدة بمرض خطير، ولم يجد أي من الأطباء دواءً لعلتها، حضّر لها الشيخ مركز أفندي أحد وجوه تكية سنان سنبل في اسطنبول، وكبير شيوخ كلية السلطانة في مانيسا خلطة دواء. وهذه الخلطة التي تسمى اليوم معجون مسير شفت الخاتون حفصة. وبصفتها أُم المجتمع كله، أوصت بأن تستفيد الإنسانية كلها من هذه الخلطة، وأن توزع في كليتها حتى يوم القيامة، وتُؤسس وقفاً خاصاً بهذا الأمر. مازال هذا الخير العظيم يُقدم حتى اليوم كل سنة دون انقطاع على الرغم من مرور قرون عليه. هذا المثال فقط يعبر خير تعبير عن أصالة المرأة العثمانية، ومفهومها بتقديم الخير للمجتمع.

كلية السلطانة حفصة هي مجموعة أبنية وُضع حجر أساسها في عشرينيات القرن السادس عشر. ثمة جامع ومدرسة أولاد وتكية وجمعية خيرية ومدرستان



مركز أفندي يُحضّر خلطة مسير

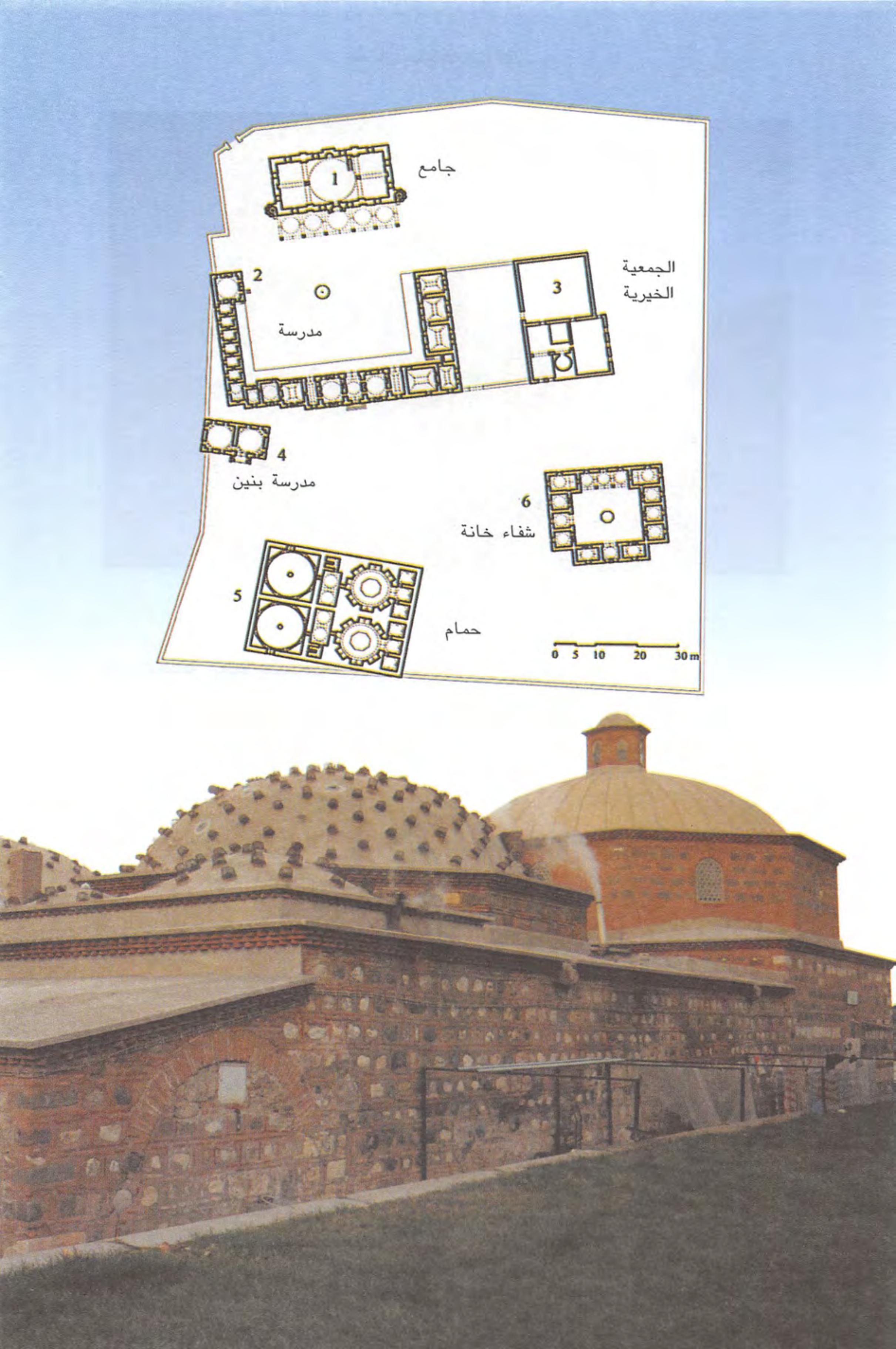


جامع السلطانة في مانيسا

في الكلية. بعد وفاة الخاتون حفصة أضاف ابنها على الكلية حماماً ومشفى. أشعل اليونانيون كثيراً من الحرائق أثناء احتلالهم لمانيسا، ونالت الكلية السلطانية نصيبها من تلك الحرائق، وأُخرجت التكية والجمعية الخيرية من الخدمة. وقد أمر والي مانيسا مراد غرمن في فترة توليه الأمر ما بين عامي 1934-1935 بهدم إحدى مدرستي الكلية. وقد تم التحقق من أسس المدرستين عبر أعمال التنقيب التي جرت مؤخراً.

تحمل الأسطر التي كتبها إبراهيم حقي قونيالي حول الكلية السلطانية في مرحلة تعرض الآثار الوقفية إلى التخريب معنى مهماً إلى أبعد الحدود:

«بقيت كلية السلطانة حفصة شامخة بهيبتها حتى قبل ستين أو سبعين سنة... خربت الجمعية الخيرية بكل ملحقاتها. وانهار المشفى والمدرسة وقاعة الدرس وقباب الحمام، وأصبحت مكاناً لوقوف البوم. بقايا الجمعية الخيرية والتكية المهدمة غطت على المكان أمام دار الشفاء والحمام وقبابها كأنها جبال صغيرة. استخدم الجامع بميزته المعمارية الغريبة وخزفه ومحرابه المدهشين مستودعاً للتبن لعشر سنوات. وقد دفنت الزخارف الخشبية التي لا تطاوع الإنسان نفسه



جامع
1
2
مدرسة
3
الجمعية
الخيرية
4
مدرسة بنين
6
شفاء خانة
5
حمام
0 5 10 20 30 m



أن يلمسها، والرسوم الزخرفية وأجزاء القرآن الفريدة تحت التبن والغبار!»

صمم الجامع الفنان المعماري علي العجمي، وقد افتتح للعبادة في رمضان عام 1523.

كتب فوق باب مدخل الجامع عبارة مزركشة كالتي فوق مدخل تكية مولانا في قونية تقول: «هذا المكان قبلة العشاق، من يدخله ناقصاً يكتمل».

أما العبارة العربية المكتوبة فوق باب المدخل فهي:

«أم السلطان سليمان المكين قد بنت لله بيتَ الساجدين

ما مثله قد جاءه تاريخه هو جامع المتقين الحامدين»

وحسب حساب الأبجدية للشطر الأخير من هذه الكتابة هو 929 هجري الموافق 1522 ميلادي.

ثمة عبارة فوق المنبر الرخامي تقول: «الاستماع إلى الخطبة فرض كصلاة الجمعة»

ومن الكتابة التي تعلو حمام الكلية والمؤلفة من ستة أسطر، وتعود لعلاء شهيرلي أوغلو يفهم بأن الخاتون حفصة بدأت ببناء الحمام، ولكنها توفيت قبل الانتهاء منه. جاء في الكتابة الآتي:



نزل قوافل حفصة خاتون في مرمريس

«صاحبة الكرم أم الحاكم والسلطان العظيم سليمان خان وسع الله قبرها بالخير والإحسان وزاد نورها نوراً. بنت للناس حماماً واسعاً وجميلاً. أدام الله عزها حتى نهاية أيامه. ويقول علاء شهيرلي أوغلو من أجل أن نفهم تاريخها بالضبط: إنه أجمل الحمامات»

بحسب حساب الأبجدية للشطر الأخير من هذه الكتابة فهي تشير إلى تاريخ 946 هجري. وبحسب هذا فالحمام قد أنجز في عام 1539.

ومن آثار الخاتون حفصة الجميلة التي بقيت إلى يومنا هذا سليمة إلى حد ما نزل القوافل في مرمريس. أمرت ببناء هذا النزل دعماً لابنها السلطان سليم في حملته إلى رودس، وافتتح لإقامة الجنود، ثم حولته إلى وقفٍ. ولكن هذا البناء تحول في يومنا إلى بار، وعبارة «بار السلطانة» المكتوبة فوقه تدمي القلوب بشكل دائم. الذين يلفقون قصص الحرم، وحكايات التآمر والجرائم المنسوبة إلى فاعلات الخير هذه لتشويه سمعتهن استخدموا ما بنته لخدمة الناس لوجه الله فقط لهدف سيء، واستطاعوا أن يكتبوا فوقه «بار السلطانة». أترك تقييم هذا المشهد لكم.





الوجه الحقيقي للحرم: زوجات بيازيد الثاني

مع الأسـف عندما يُذكر الحرم تخطر ببالنا المشـاهد المأخوذة من المصادر الغربية. قصور ملأتها مئات النساء. أجواء خاصة بمتع السلاطين وزوجات يُبدلن كل ليلـة. هـذه المشـاهد الخياليـة التي يدونها الأوربيـون وينقلونها إلى اللوحات ليسـت سـوى انعكاس للقذارة التي يحملونها في داخلهم. هكذا أرادوا أن يروا، ولأن في نفوسهم أموراً كهذه، رؤوا ما لا يعرفون عنه شيئاً على هذا النحو.

على الرغم من أن الإسلام يحرّم على الرجل رؤية بدن الرجل، وعلى المرأة المتزوجة رؤية بدن المتزوجة من السرة إلى الركبة، لابد أن ملء بركة ماء بعشرات النسـاء العاريـات يتجـاوز قضية السـخرية. يجب تناول لوحات المستشـرقين من هذا النوع بطريقتين. الأولى، تشـمل مرحلة ما قبل محمود الثاني، وهي لوحات تلفيقية لا تعكس مكاناً محدداً؛ والثانية، تشمل مرحلة ما بعد محمود الثاني، وهي

لوحات المرحلة التي بدأ الزوار القادمون من الخارج يتجولون في قصر طوب قابِ براحة. تعرفون أن رئيس بلدية أصغر بلدة اليوم لديه مصور في حياته. تُصور نشاطات الإداري بشكل مستمر. من المؤكد وجود رسامين في حياة سفراء تلك الأيام. المهم هو نقل الأمكنة إلى قماش اللوحة. انتقلت الإدارة العثمانية في تلك الفترة إلى المنطقة المجاورة لضولما بهشتة (طولمه باغجه). وقد فُتح قصر طوب قابِ الفارغ بين فترة وأخرى للزوار. كان قصر طوب قابِ مثل صندوق مغلق بالنسبة إلى الأوربيين على مدى قرون، وهذا ما أثار فضولهم. لهذا السبب تقدموا للإدارة بطلبات الزيارة، وعموماً كانت تصدر الموافقات على زيارات من هذا النوع. عندما تظهر بركة ماء أمام هيئات السفارات أو تدخل هذه الهيئات بهواً أثناء تجوالها في القصر سرعان ما يقترن المكان بما في نفوسهم من قذارة. لابد أنكم سمعتم بأن الرسامين يرسمون رسوماً سريعة خلال لحظات. يأخذون شكل المشهد الذي أمامهم بقلم الرصاص على الورق بسرعة، وعندما يذهبون إلى مراسمهم يجسدونه على اللوحات وكأنهم رسموه هناك. وبالطبع فإنهم سيملؤون تلك الأمكنة بالضحالة التي في عقولهم. هذه هي الحقيقة الكامنة خلف مشاهد الحرم الكاذب التي شوشت عقول الناس على مدى قرون.

إليكم لمحة عن مفهوم الحرم العثماني الحقيقي. تأسست الإدارة لدى العثمانيين على مبدأ التضحية وليس مبدأ المتعة واللهو. كان المجتمع والدولة



الكلية المرادية في بورصة،
تربة الأمير أحمد



داخل تربة الخاتون عائشة غولبهار في طرابظون

والإنسان دائماً المقياس في الزواج أو النقل والترقية أو الحملات والحروب أو العفو أو التضحية. قُدمت السعادة العامة على سعادة الأفراد دائماً حتى لو كان الفرد سلطان سلاطين. ويمكن ضرب أمثلة كثيرة على هذا الأمر بدءاً من قتل أبناء السلاطين في سبيل بقاء الدولة، وصولاً إلى دفن السلطان سليم بعد وفاته بثلاثة أشهر ونصف. أي أن هذا النظام لم يتهاون حتى مع السلطان سليمان، فقد كان هذا النظام يعطي الأولوية لفتح قلعة على دفن سلطان سلاطين.

في تسلسل تضحيات كهذه من المؤكد أن تتشكل علاقات زوجات السلاطين على هذا الأساس. إذا كان لدى زوجة السلطان صبي، يختن هذا الصبي، وعندما يصل إلى حوالي العاشرة من عمره، يفرض على أمه السفر معه. ولا تُستثنى من هذه القاعدة حتى أحب الزوجات إلى قلب السلطان، وحتى لو كانت الزوجة الوحيدة.

ثمة حكمة من إرسال الأمهات مع أبنائهن إلى السناجق. فلو أبعد هؤلاء الفتية المرسلين إلى السناجق

مشهد تربة الخاتون غولبهار من الخارج



قبرا الخاتون بلبل وابنها أحمد في تربة الامير أحمد

عن حنان أمهاتهم، وعاشوا في عالم محاط بالرجال فقط، سينشأون على قسوة القلب، لهذا لا يغيب هذا الإجراء عن الأعين في أي وقت.

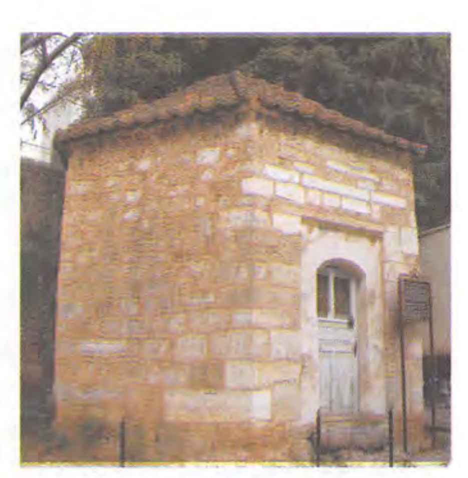
سيجلب هذا الموضوع إلى الذهن السلطانة حُرّم. لماذا لم تخرج السلطانة حُرّم إلى السنجق؟ في الحقيقة، إن السلطانة حُرّم أشرفت على أبنائها الذين ذهبوا إلى السناجق ولو لفترات قصيرة. أثناء إدارة ابنها سليم سنجق قونية، فقد أضافت بناء حمام على الكلية التي أمرت ببنائها والتي تعود لها في قرة بنار. ولا يزال هذا الحمام سليماً حتى الآن. سبب عدم خروج السلطانة حُرّم إلى السنجق هو وجود ولد مريض طريح الفراش تقريباً لديها في القصر. ولد ابنها الأخير «جيهان غير» مشوهاً، فلم يُشف من الحدبة الضخمة التي في ظهره والتقرحات الدائمة في جسمه. وبما أن نقل ولد كهذا إلى سنجق أمير آخر أو إبعاده عن أمه غير ممكن، بقيت السلطانة حرّم بجانب ابنها. عندما وصل جيهان غير إلى العشرين من عمره وأصبح شاباً، رغب كثيراً بمرافقة والده إلى الحملات مثل إخوته. ونتيجة إلحاحه الشديد، قرر القانوني اصطحابه في حملة إيران عام 1553. ولكن جسم هذا الشاب المريض لم يحتمل ظروف السفر الثقيلة، وتوفي في حلب أثناء الذهاب.

أجمل أمثلة الخروج إلى السنجق ستكون تلك المتعلقة بالسلطان بيازيد الثاني وزوجاته. موضوع كتابنا هو حياة السلطان سليمان القانوني والجوانب الدقيقة في هذه الحياة. تحدثنا عن خصائص الأب والأم. والآن جاء الدور على القانوني. أول ما سنقوم به من أجل تفسير حياته هو الذهاب إلى طرابظون. حين نذهب إلى طربظون تقابلنا كلية الخاتون عائشة غولبهار. هذه الخاتون هي جدة السلطان سليمان القانوني، ووالدة السلطان سليم الجبار، وزوجة بيازيد الثاني. حسنٌ، ما عمل زوجة بيازيد خان الثاني في طربظون وهو سلطان سلاطين في اسطنبول؟ إنه الموضوع الذي عرجنا عليه قبل قليل. موضوع خروج الأم مع ابنها إلى السنجق.



يتوضح هذا الموضوع الشديد الدراماتيكية عبر بيازيد الثاني وزوجاته. فكروا بالخاتون بلبل إحدى زوجات بيازيد الثاني. إنها الزوجة الأولى التي دخلت حياة بيازيد وهو مازال أميراً. لم تهدأ أثناء حكم زوجها سنجق أماصيا فأمرت بإنشاء جامع ومدرسة الخاتون بلبل بشكل جميل جداً مقابل كلية بيازيد على ضفة النهر الأخضر المطلة على الجبال. هذه السيدة هي والدة الأمير أحمد. وقد ذهبت إلى بورصة مركز السنجق مع ابنها، وعاشت وماتت فيها. والخاتون بلبل مدفونة اليوم داخل سور تربة الأمير أحمد في الكلية المرادية في بورصة.

زوجة السلطان بيازيد الثاني هي الخاتون نيغار. أين قبر الخاتون نيغار؟ في حديقة الجامع ذي المئذنة المحززة في أنطاليا. ماذا فعلت الخاتون نيغار هناك بينما زوجها سلطان سلاطين في اسطنبول؟ لأن ابنها الأمير قورقوط كان مسؤول سنجق في نواحي أنطاليا. حتى إن ناحية قورقتلي التابعة لأنطاليا اليوم استمدت اسمها من اسم الأمير قورقوط.



تربة الخاتون نيغار زوجة بيازيد الثاني
في باحة الجامع ذي المئذنة المحززة

لنأت إلى زوجة بيازيد الثاني الثالثة الخاتون عائشة غولبهار. قبرها في طرابظون أيضاً. لأن ابنها الأمير سليم كان حاكم سنجق طربظون. وبحسب القواعد رافقت ابنها وعاشت معه، وبقيت هناك حتى ماتت. وهي مدفونة في تربة حديقة جامع الخاتون غولبهار الذي بني في طرابظون. ولأن امتطاء هذه السيدة صهوة حصان وقطعها كل تلك الجبال من أجل رؤية زوجها أمر شديد الصعوبة بحسب ظروف تلك الأيام، فمن الواضح أنهما لم يكونا يريان بعضهما كثيراً. الخاتون غولبهار من مواليد مرعش، وهي ابنة علاء الدولة آغا مقاطعة دوالقادر أوغلو. ولدت في مرعش، وذهبت عروساً إلى اسطنبول، وماتت في طرابظون. إنه نظام مؤسس على التضحية.

وكما يُرى فإن أياً من زوجات سلطان السلاطين ليست مدفونة في اسطنبول، على الرغم من أن أزواجهن حكام دولة عظمى في العالم. أي أنهن يقمن بواجبهن مع أبنائهن في المناطق النائية بدلاً من التمتع في القصر. مما يعني أن هذا هو الأساس، ولم تتوانَ أي منهن عن القيام بمهمتها وفق هذا المفهوم.

امرأة عثمانية





کسی را که باشد دو فرزند ناز / همیشه بود از یکی بی نیاز
کنون شاه را در سر سپهر سال / چنین است قانون خجند فال
که سازد بهر خط از دیار / روانه یکی کرد صاحب وقار
کند همره او فرخنده یکی / بهر نوازش پی بندگی

کلاهای سرخ و قباهای آل / فراوان تر از برگ سبز نهال
ز گلگون بتر لالها دوخته / چو گل بسته بر هم اند دوخته
که گردد بگرد ولایت تمام / ستاند ز هر خانه یک غلام
چو لاله کلاهی نهاد بر سرش / چو غنچه قبایی کند در برش



ولادة قائد

فـي بيـت السـلطان سـليم الجبار، وعلى أرضية خصبـة لقحها الفاتح، كانت الخاتـون حفصـة علـى وشـك ولادة صبـي في سـنجق طرابظـون. وتقضي العادة العثمانية أن يُقرأ القرآن أثناء انتظار الولادة. كما انتظرت ولادة الفاتح ابن السلطان مراد الثاني. عندما دخلوا عليه ليبشـروه ويسـألوه عما سيسـميه، قال: «قبل قليل أنهيت سورة محمد، وبدأت سورة الفتح. ليكن اسمه محمداً اسـتلهاماً من اسـم سـيدنا محمد ﷺ، وإن شاء الله يتيسر له الفتح».

وهنـا أيضـاً كان الأمير سـليم الجبـار يقرأ القـرآن قربـه. يقـرع البـاب أيضاً، ويبشـرون من في الداخل بالمولود. في تلك اللحظة كان رجل الدولـة العظيـم يقـرأ الآية 30 من سـورة النمل، جـاء فـي الآية: «إنه من سـليمانَ وإنه بسـم اللهِ الرَّحمن الرحيم».

يقـول الحاكم العظيم: «أسـميته سـليمانَ»، ويعود إلـى المصحف الذي يقرأ منه. سـليمان المذكور في الآية هو سـيدنا سـليمان. وتتحدث الآية عن الرسـالة التي أرسلها إلى بلقيس ملكة سبأ. مُنح ذلك المولود الصغير اسم سيدنا سليمان الذي لا تكف الألسـن عن رواية سـلطانه وقدراته، وسـيكون مشـهوراً مثل سميه، ويوقِّع على أعمالٍ جليلة.

هنـاك روايـات مختلفـة حول تاريخ ولادته. يقـول تاريخ صولاق زادة حول الموضوع:

«جـاء ظـل اللـه على الأرض، وحاكـم العصر والزمان سـليمان، وإمبراطور إيران ودول الدانوب، ومالك ملك الأرض، وصاحب السلطة المقدسة والسعادة حضرة السلطان سليمان إلى الدنيا في رأس السنة الهجرية، وقد وطأ عام 900».

ولكن إسماعيل حامي دانيشمند يقول:

«كان الأمير سـليم (السـلطان سـليم الجبار) واليَ طرابظون في تلك الأثناء. والدته الخاتون حفصة الشهيرة بجمالها. قبر هذه السيدة في جامع السلطان سليم. وتُذكر أم سليمان في بعد المصادر باسم 'الخاتون عائشة'. ولد هذا الأمير صاحب المسـتقبل الباهر في الصباح الباكر من يوم الخميس في 6 صفر 900 (6 تشـرين ثاني/ نوفمبر 1494)، وهناك رواية أخرى تقول إنه ولد في شـعبان 901 (نيسـان/ أبريل-أيار/ مايو)، ولكن هذه الرواية ضعيفة جداً».

وبعد تقديم هذه المعلومات المتناقضة، يقدم المعلومة الواضحة:

«ولـد الأميـر سـليمان الـذي سـيحمل لقب السـلطان سـليمان القانوني يوم الإثنين في الأول من شعبان المصادف 27 نيسان/ أبريل 1495».





السلطان سليم الجبار منمنة النقاش عثمان





أخ رضاعة متصوف: يحيى أفندي

عندما تقومون بجولة في المركب عبر البوسفور اليوم، وبعد عبور قصري ضولمة بهشة وتشراغان، تلفت نظركم مجموعة بيوت صغيرة ذات مشربيات على السفح. هذه تكية الخلوتية الأجمل التي لم تخرب حتى الآن من اسطنبول المستمرة إلى اليوم. بناء الحجر المرصوف ذو القبة الذي يتوسط تلك البيوت هو تربة، وهو في الوقت نفسه قبر المتصوف العظيم يحيى أفندي شيخ هذه التكية.

كانت تلك الأمكنة في الماضي نائية قفرة بعيدة عن اسطنبول التي داخل السور. طبيعة يحيى أفندي فرضت عليه البقاء بعيداً عن المجتمع، ولأنه رغب بتنشئة طلابه في مكانٍ ناءٍ وقع الخيار على هذا المكان، وعمل سنوات طويلة فيه، وفي النهاية دفن فيه.



هذا العالم الكبير الذي نتحدث عنه هو أخ السلطان سليمان القانوني بالرضاعة. لقد شح حليب الخاتون حفصة عندما ولدت الأمير سليمان في طرابظون. فبحثوا عن مرضعة. كان قد رُزق عمر أفندي قاضي طرابظون في ذلك الوقت بولد. أرضعت زوجة عمر أفندي ابنها والأمير سليمان. وسيكون الشخص الذي رضع معه أكبر قائد في المستقبل هو العالم الكبير يحيى أفندي. في الحقيقة، إن المكتوب

يظهر من عنوانه. لأنه إذا كان الإنسان أخاً بالرضاعة لحضرة محمد عزيز هدائي أو الحاج بيرم ولي أو يحيى أفندي يتضح كيف سيعيش أو مما سيحذره أثناء حياته. ولكننا لن ندع الأمر لاحتمالات التاريخ، وسنصغي لما حدث.

قضى الصديقان طفولتهما معاً في طرابظون، حتى إنهما تلقيا الدروس على الأساتذة أنفسهم، وتعلما المهنة نفسها (الصياغة)، ولم يفترقا في السنوات اللاحقة. وسيجلبهما القدر إلى اسطنبول، وسيكون أحدهما سلطان العالم، والثاني سلطان القلوب. رغب السلطان سليمان بإنشاء تكية كبيرة داخل السور لأخيه بالرضاعة، فرفض يحيى أفندي المنتسب للطريقة الخلوتية، واختار مكاناً نائياً مطلاً على البوسفور. ولكن عينه ستكون دائماً على السلطان سليمان. ولم يتوانَ عن مراقبته في أي وقت.

يجب ألا يُعتقد بأن يحيى أفندي قد تقدم في العلوم الدينية فقط. لأننا إذا وضعنا بعين الاعتبار التعليم الذي تلقاه، والمدارس التي أعطى فيها دروساً، سنجد أنه حقق تقدماً في كثير من علوم زمانه. عندما أتى إلى اسطنبول تلقى دروساً من علي جمالي أفندي زنبيللي، وبعد وفاته أخذ مكانه كمدرس في الجمبازية. فيما



تكية يحيى أفندي الخلوتية وقبره على سفوح بشيك طاش

بعد عمل هذا العالم العظيم في مختلف مدارس اسطنبول، ثم وصل إلى رتبة مدرس صحن سمان التي تعتبر ذروة العلم، وألقى الدروس فيها. ولكن يحيى أفندي لم يبتعد عن التصوف الذي اعتنقه في صغره في أي وقت، وسيستمر به. وقد بنى جوار مزرعة حيدر باشا في قواغي على الشاطئ الأناضولي تكية للانزواء، وانزوى فيها وتعرف اليوم باسمها المشهور: قمة يوشع. وثمة اعتقاد شائع بأنه هو من اكتشف قبر يوشع.

كلما انطلقت بجولة في البوسفور، ومررت قرب شواطئ بشك طاش تخطر ببالي قصة، ولن أستطيع المرور دون روايتها. لألخصها هنا أيضاً.

على الرغم من أن السلطان سليمان قرين يحيى أفندي فهو يناديه يا أستاذي، وقد كان يرجوه بشكل متكرر قائلاً: «لو تتفضلون علينا ونرى الخضر عليه السلام نحن أيضاً». لأنه كان شائعاً بين الناس بأن يحيى أفندي يلتقي بالخضر عليه السلام. لم ينبس يحيى أفندي إزاء هذا الطلب ببنت شفة، وكان يرد بابتسامة. ذات يوم يدعو هذا المتصوف الكبير أخاه بالرضاعة إلى شاطئ بشك طاش على عجل. فيأتي السلطان سليمان مع حراسه في زورق سلطاني. كان يحيى أفندي يركب زورقاً صغيراً وبجواره رجل لم يعرفه. يدعو السلطانَ إلى زورقه المتواضع. يستجيب الحاكم العظيم دون السؤال عن السبب. ولحظة تحركهم من الشاطئ، يشير الرجل المجاور ليحيى أفندي نحو الخاتم ذي الحجر الماسي. فيخلعه

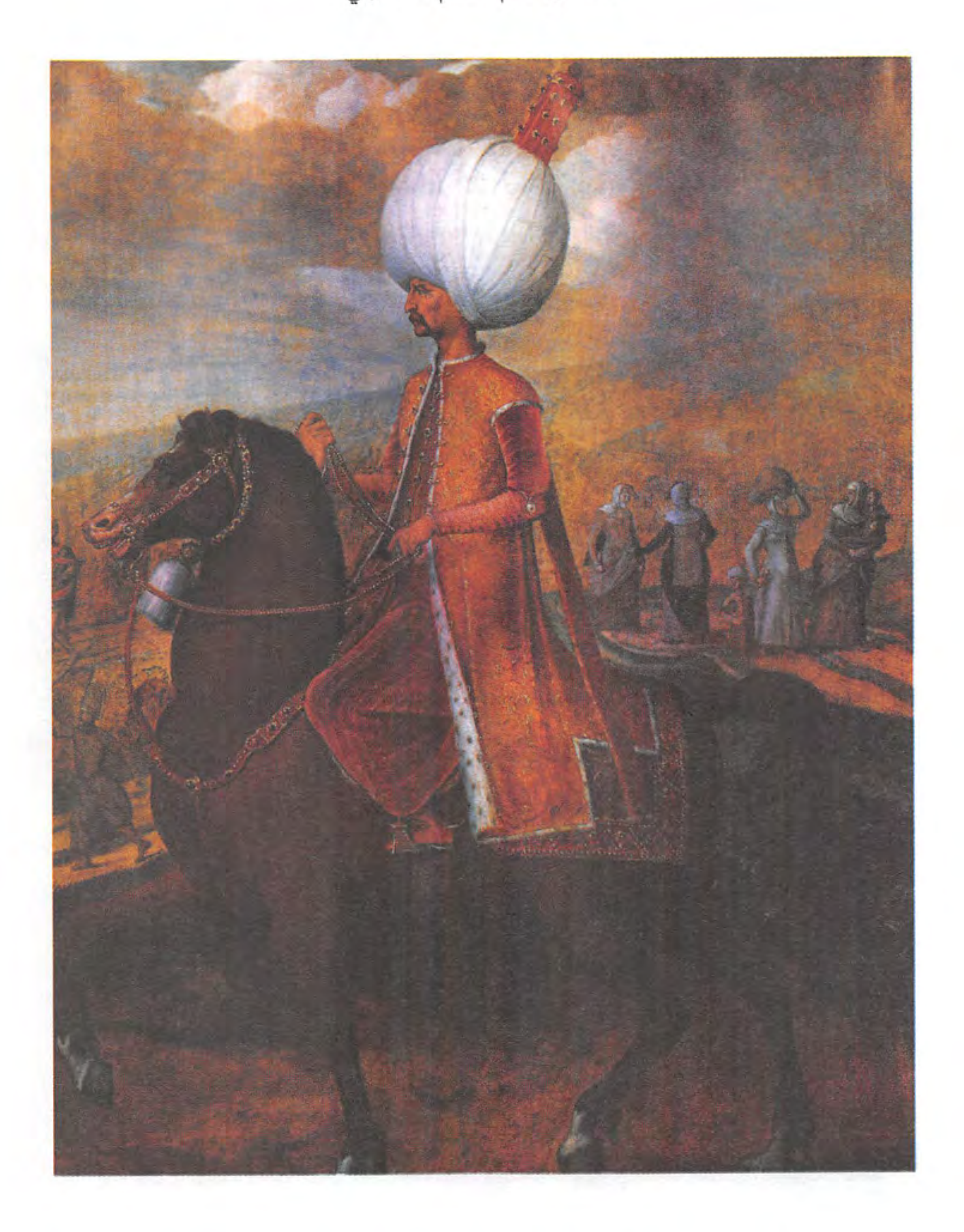


القانوني، ويضعه في كف ذلك الرجل. يرمي الرجل الخاتم إلى مياه البوسفور. دهش السلطان أيما دهشة من هذا التصرف. انزعج قليلاً، ولكنه نظر إلى أستاذه يحيى أفندي، ولم يقل شيئاً، وهو أيضاً لم ينبس أدباً. أخذا يجذفان قليلاً. وعندما لم يتكلم يحيى أفندي، لم ينبس السلطان سليمان أيضاً، وينتظر ما سيحدث إلى أن يصلوا إلى قروتششمة. هنا يقتربون من الشاطئ. بداية ينـزل يحيى أفندي من الزورق، ولحظة تحرك السلطان سليمان، يغط الرجل المجاور ليحيى أفندي يده في ماء البوسفور، ويخرج الخاتم الذي رماه في بشك طاش من هناك، ويقدمه للسلطان سليمان. يتجمد القانوني دهشة من هذا الأمر الغريب، ويُري أستاذه يحيى أفندي الذي نزل من الزورق الخاتم، ويسأله: «ما الحكمة من هذا؟» يشير يحيى أفندي إلى الزورق بيده. فيلتفت، وينظر إلى الزورق، فيجده فارغاً. فيختفي الرجل للتو. يقول يحيى أفندي: «إنه الخضر عليه السلام، لماذا لم تتكلم؟»

إذا أردنا أن ندع أصل هذه القصة، ونأخذ عبرتها، فإن العصر كان يعج برجال عظماء، ولا يمكن أن يسمح رجال كهؤلاء بأن تجري تعيينات خاطئة.

بما أننا فتحنا الحديث عن أخ السلطان سليم بالرضاعة، لنذكر بأنه كان أحد أصحاب المضيق المعنويين. عندما كان الصيادون ينطلقون لصيد السمك في زمنه، يقتربون من الشاطئ أسفل التكية. يخرج يحيى أفندي إلى طرف التكية، ويدعو لهم من حيث يقف قائلاً: «بارك الله لكم بإنتاجكم ودخلكم». ويقول الصيادون جميعاً بصوت واحد: «آمين». ثم يقول لهم يحيى أفندي مودعاً: «بالتوفيق!» وقد استمرت هذه العادة بعد وفاة يحيى أفندي. يذهب الصيادون إلى هناك، ويقرؤون الفاتحة عن روحه، ثم يقولون لأنفسهم: بالتوفيق! ويغادرون. وقد استمرت تطلق هذه العبارة ولكنها تحرفت مع الزمن.

عليكم أن تعرجوا ذات يوم على تكية الخلوتية الواقعة على سفوح بشك طاش، وتزورون تربة يحيى أفندي التي أبدعها المعمار سنان. عندما تذهبون إلى هناك لا تعتقدوا أبداً أنه لا يشعر بوجودكم. ثقوا بأنه يتابع حتى الذين يمرون من البوسفور ويذكرون اسمه. قبل عدة سنوات كانت إحدى طالباتي تجوّل مجموعة أمريكية في البوسفور، وحدثتهم عن التكية الخلوتية. أرادت أن تلفظ اسم الشيخ، ولكنها نتيجة تعب اليوم لم تستطع تذكره بأي شكل. لم تتوقف



المجموعة الأجنبية عند هكذا تفصيل، ولهذا يمرون. تحلم طالبتي في تلك الليلة، ويأتيها في الحلم رجل ربع القامة، باسم الوجه، مرتدياً جبة، قصير اللحية. يقول: «يا بنتي، كنتِ متعبة جداً البارحة، فلم تستطيعي تذكري، أنا يحيى أفندي، أنا يحيى أفندي، أنا يحيى أفندي» إنه مثال على المستمرين في الحياة بعد موتهم.



أبو السعود أفندي



أقطاب العصر الآخرون

خير الدين أوحد أوغلو

كان عصر السلطان سليم عصراً مباركاً في التاريخ العثماني أخرج عباقرة في العلم والفن والتصوف والعمارة والشؤون العسكرية. بدأ حياته التعليمية بتلقي الدروس على عالم مهم يدعى خير الدين أوحد أوغلو من ضاضاي في قصطامونو عندما كان طفلاً صغيراً في طرابظون. وقد علّم هذا الشخص إضافة إلى السلطان سليمان أعداداً كبيرة من الشخصيات المهمة، منهم صالح جلبي جلال زادة الذي عمل مستشاراً له، ودوّن فتوحات القانوني لبلغراد ورودس وبودين (بودابست)، ودرس في صحن سمان وأدرنة، وعمل قاضياً في الشام ومصر. وكتب أعمالاً كثيرة أهمها «تاريخ السلطان سليمان».

علي جمالي زنبيللي

من كبار رجال عصر السلطان سليم القانوني علي جمالي زنبيللي. وقد عين هذا العالم العظيم شيخ الإسلام في عصر السلطان بيازيد الثاني، واستمر بهذا المنصب الرفيع طوال عهد السلطان سليم الجبار، والسنوات الست الأولى من

عهد السلطان سليم القانوني. بقي زنبيلي في هذا المنصب أربعاً وعشرين سنة، وكان شيخ الإسلام الثامن في الدولة العثمانية العلية.

اسمه الأصلي علي جمالي، واشتهر بأنه يدلي الزنبيل من بيته في زيرك إلى الأسفل، فيكتب الناس أسئلتهم، ويضعونها فيه. ثم يسحب الزنبيل ليلاً، ويجيب عن تلك الأسئلة، ثم يضعها بالزنبيل، ويدليه نحو الأسفل. أي أنه بإمكان أي شخص من أدنى طبقات المجتمع أن يكون لصيقاً بعالم في الذروة براحة تامة. ولد علي أفندي في نواحي قرامان، وبعد أن تلقى العلم على الملا خسرف، تابع بحضور دروس مولانا مصلح الدين أفندي حسام زادة في بورصة. وعمل فترة في مدارس بورصة. ثم ترك الوظيفة بعد ذلك، وانتسب إلى سيدنا الشيخ مصلح الدين أبو الوفا من أجل التقدم في التصوف. وصل علي جمالي أفندي إلى الذروة في التصوف، وعمل في مدارس بورصة وإزنيك في عهد بيازيد الثاني. في تلك الفترة ذهب إلى الحج، وفي تلك الأثناء توفي شيخ الإسلام أحمد الدين أفندي أفضال زادة، فعُين مكانه. إلى جانب هذا كُلف بوظيفة في مدرسة بيازيد التي أنجزت تواً. بعدئذ أصبح تدريس شيوخ الإسلام في مدرسة بيازيد عادة.



علي جمالي أفندي وهو يدلي زنبيله من بيته

سمع ذات مرة بأن السلطان سليم خان الجبار سيعاقب أمناء خزينة القصر، فصعد إلى الديوان. والتقى بالوزراء، ثم طلب المثول أمام سلطان السلاطين، ولم يتوانَ عن التعبير لسلطان السلاطين في غرفة العرض بأن قراره مخالف للدين. وبالنتيجة أقنع سلطان السلاطين بعدم معاقبتهم، وحتى الإبقاء عليهم في وظائفهم.

طالما قدّر السلطان سليم خان هذا الرجل الجريء باسم العدالة، حتى إنه

أراد جمع منصبي كبير علماء الدين لكل من الأناضول وروملي، وتعيينه فيه، ولكن علي أفندي الذي لا يهتم للدنيا نهائياً رفض هذا العرض بلباقة.

مما لاشك فيه أن الميراث الأكبر الذي تركه السلطان سليم الجبار لابنه سليمان هو هذا الفريق الإداري الضخم. ولا شك أن زنبيللي أحد أهم شخصيات هذا الفريق. استمر علي أفندي بوظيفته في السنوات الست الأولى من عهد السلطان سليمان القانوني، ورافق سلطان السلاطين في حملة رودس، وبقي هناك فترة بعد الفتح، وتابع الإجراءات المنفذة هناك باسم الإسكان، كما عمل إماماً وخطيباً، وأشرف على تأسيس المؤسسات الإسلامية.

يذكر مؤلف «الشقائق» خاطرة عن زيارته برفقة والده للزنبيللي في أيامه الأخيرة. يقول إن والده بكي بعد أن حدثه ببعض الأمور سراً. بعد الزيارة يسأل والده عما تحدثا فيه. فروى له والده بأن علي أفندي أخبره بأن الله سيتوفاه عما قريب، وقد جاءه موسى عليه السلام هذا الصباح، ودعاه إلى الآخرة. لدى علي أفندي كتاباً قيماً جداً في الفقه بعنوان «المختارات» وله أعمال أخرى هي: «مختصر الهداية»، «رسالة في حق الدوران وآداب الأوصياء».

وهو مدفون اليوم في حديقة المدرسة التي أنشأها بجوار بيته أثناء حياته وعمل فيها والوقعة اليوم في زيرك.

ابن كمال

عظيم عصر القانوني الآخر هو ابن كمال. فقيه ومفسر وشاعر ومؤرخ إلى جانب أنه شاعر وشيخ إسلام في عهد السلطان سليمان، واسمه الحقيقي شمس الدين أحمد سليمان. ولكونه حفيد كمال باشا اشتهر باسم ابن كمال. على الرغم من بدئه في الوظيفة عسكرياً، تابع بإعطاء الدروس إلى جانب الملا لطفي، وكلفه بيازيد الثاني فيما بعد بكتابة التاريخ، ثم عمل في مدارس إسحاق باشا في أوسكوب، أوتش شرفلي في أدرنة، وصحن سمان في اسطنبول. عمل ابن كمال قاضياً لأدرنة في عهد السلطان سليم الجبار، وكبير علماء الأناضول، ورافق سلطان السلاطين في حملة مصر. وفي هذه الرحلة وقعت حادثة تناثر

الطين الشهيرة. أوصى السلطان سليم الجبار بأن يغطى قبره بالقفطان الذي تلوث بالطين المتناثر من حوافر حصان ابن كمال. ومازال هذا القفطان في محفظة فوق قبر سلطان السلاطين على سفوح تشارشمبة.

كان كثيراً ما يسعف سلطان السلاطين بدهائه العلمي. وبأمر من السلطان سليم الجبار ترجم كل يوم جزء من كتاب يوسف جمال الدين «النجوم الظاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، وكان يقدمه لسلطان السلاطين في اليوم نفسه.

أثناء الحملة على مصر فسر الآية 105 من سورة الأنبياء اعتماداً على علم الجفر، ووضع وسط الصفحة أن الجبار سيفتح مصر. أثناء مرورهم من قرمان في إحدى الحملات، تظهر زوبعة وتهب عاصفة فيسأل السلطان سليم الجبار عن الحكمة منها، فيقدم له التفسير الآتي: «لأن قرمان مهبط أنوار مولانا، فإن جبال وصخور وأرض هذه الديار تدور دورة السما».

كتب هذا العالم الكبير حوالي ثلاثمائة عمل بين كتاب ورسالة، إضافة إلى أنه ترجم عمل إدريس البيتليسي «هشت بهيشت» إلى التركية. لدى ابن كمال تفسير للقرآن لم يكتمل، وكتب عملاً بالفارسية بعنوان «نيغارستان» متشبهاً بعمل سعدي «غولستان»، وقدم رسالة تضم تاريخ العثمانيين ومعركة موهاج.

بوفاة علي جمالي أفندي زنبيللي عام 1526، شغر منصب شيخ الإسلام. إنه عالم كبير شغل هذه الوظيفة في عهد السلطان سليمان القانوني، وسيحظى باحترام كبير لديه كما حظي به من قبل لدى والده. شغل ابن كمال هذا المنصب مدة عشر سنوات حتى وفاته عام 1536، ودفن في زاوية محمود جلبي الواقعة قرب جامع الأمير بخاري في أدرنة قابِ.


قبر علي جمالي أفندي

لا تقل شاعرية ابن كمال عن علمه، لديه ديوان بالتركية، واشتهر بمثنويات يوسف وزليخة المؤلفة من عشرة آلاف بيت، ورثائه للسلطان سليم عند وفاته.



المدرسة التي بناها علي جمالي أفندي زنبيللي، وقبره في حديقتها

يقول شيخ الإسلام ابن كمال في رثاء السلطان سليم الجبار:

...

إنجازه عظيم في زمن قصير
ظله غطى العالم كله

شمس عصره وظِلُ العصر
طويل، ولكن زمنه قصير

ثمة من يفخر بتاج وعرش
ولكن التاج والعرش يفخر فيه

متعة قلبه بصليل السيوف
وإطلاق بوق النفر

...

مات السلطان سليم يا حيف
ليبكه القلم كما بكاه السيف

هناك حادثة جرت بمشاركة ابن كمال في عصر السلطان سليمان القانوني. وفي هذه الحادثة التي سجلها إبراهيم بتشفي في تاريخه، يقال بأن رجلاً يظهر في تلك الأيام يدعى الملا قابض، ويشيع في شوارع اسطنبول بأن سيدنا عيسى أسمى من سيدنا الرسول ﷺ. بعد فترة تصل الشكوى من هذا الرجل إلى الديوان السلطاني. يقبض على الملا قابض، ويمثل في حضرتهم. وكان هناك كبير علماء روملي محي الدين تشلبي وكبير علماء الأناضول قدري جلبي في المحكمة إلى جانب إبراهيم باشا. يُطلب منه أن يثبت ما يدعيه. فيقدم الملا تفسيراته واحداً تلو الآخر. ولأن كبار العلماء ليسوا مختصين بهذا الموضوع فلا يستطيعون دحض

أقول الملا قابض. وبموجب العدالة العثمانية يطلق سراح الملا قابض. كان السلطان سليمان يتابع الوقائع من نافذة برج العدالة في الديوان السلطاني. في الحقيقة، لقد حزن وغضب كثيراً لعدم دحض أقول الملا.

وقال غاضباً: «يأتي منحرف إلى ديواني، ويشوه مكانة سيدنا الرسول ﷺ العظيمة، ويجرؤ على كلام تافه، ويخرج حراً من حضرتي دون أن يُخرس. ما سبب هذا؟»

يجيب إبراهيم باشا: «ماذا نفعل، لم يكن كبار علمائنا متعمقين في الشرع بحيث يسكتا هذا الملعون». إثر هذا يُقرر الاستماع ثانية إلى الملا قابض في اليوم الثاني. ويدعى في هذه المرة اسمان مهمان هما شيخ الإسلام ابن كمال وقاضي اسطنبول سعد الله سعدي جلبي. في اليوم الثاني يطلب العالِم الكبير ابن كمال بلطف شديد أن يقدم مسنده لما يدعيه. يقدم الملا الآيات والأحاديث التي يعتبرها أدلة إثبات ادعائه. ولكن أمامه هذه المرة عالماً يفهم جوانب الدين كلها. ينقض ادعاءات قابض. ويشرح له كيف أنه يفسر الآيات والأحاديث التي يطرحها أدلة خطأ. تجمد الملا قابض هذه المرّة. يطلب ابن كمال منه العودة عن خطئه بعد أن ظهرت الحقيقة له، ولكن الملا ينتفض. في تلك اللحظة يلتفت ابن كمال إلى القاضي سعدي جلبي، ويقول: «انتهت قضية الفتوى، وأصدروا الحكم أنتم بموجب الشرع». سعدي جلبي يسأل الملا قابض: «هل تدخل في طريق أهل السنة والجماعة الصحيح؟» ولكن قابض لا يعود عن كلامه. إثر هذا يحكم القاضي سعدي جلبي بإعدام قابض، ويُنفذ الحكم.

سعد الله سعدي أفندي

هو شيخ الإسلام الثالث في عهد السلطان سليمان القانوني. كان قاضيّ اسطنبول حين كان ابن كمال شيخ الإسلام، وبوفاة ابن كمال حل محله. استمر في هذا الموقع خمس سنوات بين عامي 1534-1539 حتى تاريخ وفاته. وقد وفق بقضية دحض أقول الملا قابض الشهير مع شيخ إسلام تلك الفترة ابن كمال بعد أن تم الفشل بدحضها في المرة الأولى.

محي الدين أفندي تشفي زادة

شيخ الإسلام الرابع في عهد السلطان سليمان القانوني، وعين في هذا الموقع عام 1939. لم يبق في هذا الموقع سوى ثلاث سنوات. وقد كان مدرساً في صحن سمان وقاضياً في مصر. أصبح كبير علماء الأناضول ثم كبير علماء روملي. توفي أثناء شغله منصب كبير علماء روملي، ودفن في أيوب.

عبد القادر أفندي

لُقِّب حميدي لارتباطه بسنجق حميد. تلقى دروساً من عدة علماء، وانتسب إلى ركن الدين أفندي زيرك زادة في مدرسة السلطانية في بورصة. أعطى دروساً خاصة لمصطفى آغا أحد أغوات القصر في عهد السلطان سليمان، ثم بدأ بالتدريس في صحن سمان. عمل قاضياً في بورصة واسطنبول، وكبير علماء الأناضول عام 1523. مشهور بصدقه، وعين في موقع شيخ الإسلام عام 1542، ولكنه لم يبق في هذا الموقع سوى عام واحد بسبب تدهور صحته. بنى جامعاً ومدرسة في بورصة. كان شاعراً متمكناً، واستخدم اسم قادري الفني في الشعر.

يعتقد بأن تكية عبد القادر ذي الشعر الموجودة اليوم في أيوب لها علاقة بهذا الشخص. خدمت هذه التكية القادرية فيما بعد الطريقتين البيرمية والرفاعية. وتستخدم اليوم موضأً لدار الحديثين التي تستخدم بدورها مسجد الشيخ سعد الدين أفندي. ثمة ثلاثة قبور في الداخل يعتقد بأن أحدها لوالد عبد القادر أفندي، والثاني له، والثالث لخليفته. إضافة إلى هذا هناك روايات تقول إنه مدفون داخل جامعه في بورصة.

أبو السعود أفندي

ولد أبو السعود أفندي في 30 كانون الأول/ ديسمبر 1490 في قضاء إسكيليب التابع لتشوروم، وهو ابن الشيخ محي الدين أفندي محمد، وحفيد

علي قوشتشو لأمه.

عمل أبو السعود أفندي قاضياً في بورصة واسطنبول، وعرف بدرايته وصدقه ووقوفه إلى جانب الحق. عين كبير علماء روملي عام 1537. وبعد أن قضى أبو السعود أفندي ثمانية أعوام في هذا الموقع، رُقيّ إلى درجة شيخ الإسلام. وقد قضى أطول فترة في منصب شيخ الإسلام في التاريخ العثماني بلغت 28 عاماً. وقد استمر بهذا الموقع في عهد سليم الثاني الذي جلس على العرش بعد وفاة والده السلطان سليمان القانوني.

وله مساهمة كبيرة بإطلاق لقب القانوني على السلطان سليمان. وقد بذل جهداً كبيراً بإعادة صياغة القوانين القديمة وإصدار قوانين جديدة تناسب الزمان.

اشتهر هذا الرجل بعدم التردد بقول الحقيقة، ولم يتوانَ عن قول الحق في وجه سلطان السلاطين عند الضرورة. العبارة الشهيرة التي تقول: «ما ليس مشروعاً لا يشرّعه أمر سلطان السلاطين». هي لأبي السعود أفندي.

لُقب «مفتي الثقلين» أي مفتي الأنس والجن.

قبل أن يأتي إلى هذه الوظيفة رأى سيدنا الرسول ﷺ في حلمه أمام مجلس قدام جامع الملا، وأشار إلى ابن كمال الذي كان شيخ الإسلام في تلك الفترة قائلاً: «هل تعرفون هذا الشخص؟» ثم أشار هذه المرة إلى أبو السعود أفندي، وقال: «لابد أن هذا العبقري مفتي الأمة».

توفى الله هذا العالم العظيم سنة 1574 عن عمر ناهز السابعة والثمانين عاماً، وشيعت جنازته من جامع الفاتح وقد أمّ المصلين في صلاة الجنازة حضرة سنان سنبل شخصياً. جهز قبره وهو على قيد الحياة في حديقة مدرسة الأولاد في أيوب. شاهدة قبره مثل شواهد شيوخ الإسلام جميعاً بسيطة على شكل عمود. وبسبب تحريم الزخارف النباتية التي تغطي شواهد قبور العثمانيين، ولكونهم قادة دينيين فضلوا أن تكون قبورهم أكثر بساطة.

أوقع خبر وفاته حزناً شديداً في العالم الإسلامي حينئذ. أقيمت له جنازات غيابية في مكة والمدينة.

قدم تفسيراً للقرآن بعنوان «إرشاد العقل السليم» وهو يشير إلى الدرجة السامية التي وصل إليها في علم القرآن. مازال هذا المرجع يحافظ على أهميته

في كثير من الكليات الجامعية وعلى رأسها الأزهر في مصر.

وبنى مدرسة للأولاد في أيوب إضافة إلى جامع في مسقط رأسه إسكيليب. هناك سواقي جرَ مياه وصنابير غير هذا الجامع حافظت على سلامتها إلى اليوم.

تربط أبو السعود أفندي علاقة خاصة بالسلطان سليمان، وكان كثيراً ما يستقبله في حديقة الورد الشهيرة بأنواع ورودها. واشتهر بأنه كان يغرس وردة في عمامته عند خروجه من البيت صباحاً. أثناء مرضه في فترة شيخوخته كتب له السلطان سليمان قصيدة تحمل دلالة كبرى، منها:

«يا شريك حالي ومدفني وأخي في الآخرة، ورفيقي في طريق الحق»

لم يكن السلطان سليمان يستشير شيخ الإسلام في قضايا الدولة فقط، بل في كثير من التفاصيل الأخرى خشية الوقوع بالخطأ. ذات يوم يرى السلطان النمل يلف بعض أشجار الفاكهة في حديقة قصر طوبِ قابِ الخلفية. وكان يعلم أنها إذا عولجت ودهنت بالكلس ينتهي الأمر. ولكن السلطان لا يستطيع أن يقرر. فقرر أن يسأل أبو السعود أفندي عما إذا كان هذا جائزاً. ولكنه لم يجد أبو السعود أفندي في مكانه. فكتب له السؤال على قصاصة ورق، وتركها في غرفته. يأتي أبو السعود أفندي بعد فترة، ويرى القصاصة، ويقرأها. ويدرك أنها سؤال من السلطان. فيكتب الجواب تحت السؤال نظماً على وزن السؤال.



قبر أبو السعود أفندي في
حديقة مدرسة الأولاد في أيوب



سأل القانوني على النحو الآتي:
إذا لفت النمل أشجار الفاكهة هل في إبادتها حرمة؟
فيرد أبو السعود:
ستطلب النمل حقها من سليمان في ديوان الحق غداً

يتراجع السلطان سليمان عن معالجة النمل. في الحقيقة، ليس هناك حرج في قتل الحشرات من الناحية الدينية، ولكن شيوخ الإسلام يطالبون سلاطين السلاطين بالعيش على أساس التقوى وليس على أساس الفتوى.

أمّ هذا الإنسان العظيم المصلين في جنازة السلطان سليمان القانوني، وكان مسؤولاً عن تنفيذ وصيته القائلة: «ادفنوا هذا الصندوق معي». وحين سئل عما يجب أن يُفعل بشأن الوصية، أمر بفتح الصندوق. عندما فُتح الصندوق، تأثر الجميع بما خرج منه. كانت فيه فتاوى أبو السعود أفندي. ما قصده سلطان السلاطين بأنه عند سؤاله في القبر عن أي تصرف تصرفه، سيرد: «لم أفعل أي شيء على هواي، فقد سألت من يجب أن أسأله». وهذا التصرف أجج مشاعر كل من كان في الجنازة. وقد تمتم أبو السعود أفندي وهو يصبب دموعه:

«أيها الحاكم العظيم، لقد أنقذت نفسك، سنرى ماذا سيحل بي يوم الحشر».





زمن السنجق

بحسب تقاليد الدولة العثمانية، يرسل كل أمير إلى سنجق حين يتجاوز العاشرة من عمره. يبقي حتى ختانه بجوار أمه، ويتربى على حنانها، ثم يدخل عالم الأب والرجال. وقبل بلوغه الخامسة عشرة يُرسل إلى مدينة من أجل أن يتعلم الوقوف على قدميه وتطوير موهبته بالإدارة. كان ثمة مراكز سناجق معينة لدى العثمانيين. قونية ومانيسا وكوتاهية وأماصيا وبورصة هي بعض هذه المراكز.

ولد الأمير سليمان في طرابظون، وأُولي تعليمه عناية خاصة حتى السابعة من عمره، وبحسب الروايات فقد أرسل فترة إلى اسطنبول، وتلقى تعليماً في مدرسة القصر بإشراف جده سلطان السلاطين بيازيد. وهذا ما يقبله المنطق أكثر. لأن مدرسة القصر أهم أكاديمية علوم سياسية بالنسبة إلى تلك الأيام. بما أن الكوادر الإدارية كلها تتخرج من هذه



الأمير سليمان

المدرسة، من غير المعقول أن يُحرم من سيكون على رأس هذه الإدارة من التعليم فيها. تم وضع مخطط قصر طوب قابِ بعد الفتح، وكان مؤسسة غاية في الكمال ببنية مدرسة القصر وخارج القصر. دربت هذه المؤسسة الذكور والإناث ممن سيكون في الإدارة، ويُصفى الولد هناك، ويُشكل مهما كان عمله في المستقبل بدءاً من المطبخ إلى المراسلة، ومن مربي الطيور إلى المحاسب، ومن أمين مستودع إلى موظف الدائرة الخاصة. كان هذا النظام ينسحب على الجميع. ولا يمكن لأحد أن يعين وزيراً في الديوان متجاوزاً هذه السلسلة.

عاد الأمير سليمان إلى طرابظون بعد تعليمه في مدرسة القصر وكان قد بلغ الرابعة عشرة وهو سن الخروج إلى السنجق (1509). كان في تلك الأثناء الأمير الأب سليم حاكم سنجق طرابظون، وطلب من الجد منح السنجق للحفيد. بعد فترة يأتي الجواب. وُجد المناسب للأمير شرق قرة حصار. انزعج الأب سليم من هذا القرار. لأن المكان صغير جداً، ودخله قليل. يجب أن يكون ابنه في مكان أهم، ويدربه بنفسه، ويبرزه. يعترض لدى والده. فيصدر تعيينه هذه المرة في بلو. بلو مكان مهم من كل النواحي، وله جوانب تفضيلية لقربه من اسطنبول. ولكن هذه المرة سرعان ما يعترض العم أحمد.

في تلك الفترة كان أولاد بيازيد الثاني الثلاثة يؤدون وظائفهم في ثلاثة سناجق مختلفة. ويحضرون أنفسهم لما بعد وفاة الأب المتقدم في السن. الولد الأكبر هو أحمد،



حدود الدولة العثمانية عندما جلس السلطان سليم الجبار على العرش

وهو الأقرب إلى السلطنة بعد وفاة الأب. وبصراحة كان السلطان بيازيد أيضاً يفكر بأن يخلفه أحمد. ولكن تعيين سليمان ابن الأمير سليم في بلو لا يناسب العم أحمد. لأنه في حال وفاة والده بيازيد، فإن الواصل أولاً يكون دائماً في وضع أقوى، وهو في أماصيا. أي أن سليمان ابن أخيه الأصغر ومنافسة سليم على طريقه. لا يمكن أن يغامر بهذا الأمر، واعترض لدى والده، وحتى أرسل رجاله إلى بلو، وأجبروا الأمير الصغير على العودة إلى والده في طرابظون. يتقبل بيازيد الثاني رغبة ابنه أحمد، واعتراضه، ولم ينبس إزاء هذه الحركة التي أقدم عليها دون أخذ موافقته. غضب سليم الجبار كثيراً من هذا التصرف لكنه اضطر لابتلاع غضبه. بعد فترة أصدر قراراً بإرسال الأمير سليمان إلى سنجق كفة في القرم (6 آب/ أغسطس 1509).

للقرم أهمية خاصة وحظوة، ويقع شمال البحر الأسود، فتحه السلطان محمد خان الفاتح. صحيح، إنه بعيد عن بيت العرش، ولكنه قريب من مناطق كثيرة عن طريق البحر، ولا يمكن إغلاق طرقه. إلى جانب هذا فإن الوالدة الخاتون حفصة من القرم. لم ينبس الأب سليم الجبار على هذا التعيين. وتبدأ التحضيرات من أجل الأمير حاكم سنجق القرم. وبما أنه لا يمكن للأمير أن يسافر وحده. وبمقتضى العادة ترافقه والدته الخاتون حفصة.

وكما ذكرنا من قبل، فإن الأساس لدى العثمانيين هو الدولة والنظام. والأشخاص في المستوى الثاني، والأساس هو التضحية. لهذا السبب يركّب السلطان سليم الجبار رفيقة حياته الوحيدة مع ابنه السفينة، ويرسلهما إلى كفة في القرم. ستبقى الأم والولد سنتين وثمانية أشهر. فترة قرابة ثلاث سنوات سهل قولها. لو تخيلنا ما سيسمعه الرجل من زوجته فيما لو تأخر عن بيته قليلاً لليلتين متتاليتين، أو إذا تخيلنا ما تقوله النساء عادة نفهم هذه التضحية. صدقوا أنها ليست سهلة لا على المرأة ولا على الرجل. لم يبحث رواة حكايات الحرم وتعدد الزوجات بهذه التضحيات قط. هذه تفاصيل الحرم الحقيقي وبنية العائلة العثمانية المؤثرة.

لن تشعر الخاتون حفصة ابنة غيراي منغلي خان القرم بالغربة في أرض كفة، وستهتم بتربية ابنها خلال هذه الفترة الطويلة. على الرغم من أننا سنتناول الأمر بالتفصيل لاحقاً، ولكنني أريد أن أقول هنا بأن انتماء الأم إلى هذه المنطقة



يشرح كثيراً من الأمور المتعلقة بالسلطانة حُرّم. الأمهات اللواتي يبحثن عن زوجة لأولادهم الذين وصلوا إلى سن الزواج في الأناضول عموماً، يقلن: «لتكن من قريتنا». من أين جلبت السلطانة حُرّم؟ أو في أي قصر تشكلت لسنوات طويلة بعد أن تم تحويلها الديني؟ المكان الذي تم فيه تحويلها الديني يتبع خانية القرم. والمكان الذي تربت فيه هو قصر القرم. لابد أن تكون الأم قد نبهت من في القصر ليبحثوا عن فتاة مناسبة لابنها، وجاءت الفتاة التي أشير إليها في قصر القرم بهذه الطريقة إلى قصر اسطنبول. سنترك البقية للكتاب الثاني الذي سنتحدث فيه عن السلطانة حُرّم.

ليس لدينا معلومات كثيرة عما فعله الأمير سليمان في كفة. ما نعرف أنه تعلم اللغة التتارية هناك. ثمة رواية ضعيفة بأنه تزوج هناك، ولكن عدداً من المصادر لم تؤكد هذه الرواية. بقي قرابة ثلاث سنوات في سنجق القرم، ثم استدعي إلى اسطنبول عند جلوس الأب سليم على العرش.





جلوس السلطان سليم الجبار على العرش

مـن أجـل فهـم الأزمـات التي عاشـتها الدولة العثمانية فـي المرحلة الأخيرة من عهد بيازيد الثاني، أنصحكم بالاطلاع على الخريطة السياسية لتلك المرحلة. لأن حدود الدولة عند وفاة السـلطان محمد خان الفاتح كانت تنتهي شـرقاً عند طرابظـون، وتنـزل الحـدود عموديـاً منها إلى الجنوب، ثم حدود بخط منحنٍ من الشـرق إلـى الغـرب. أي أن مـا يسـمى اليـوم شـرق الأناضول كلـه كان في تلك الأيام بيد الشاه إسماعيل الصفوي. مرعش وإلبستان ونواحي أفشين كانت بيد أبناء ذو القـادر، أمـا جنـوب شـرق الأناضول فقد كانت تحت حكـم المماليك. وهذه الـدول كلهـا كانـت قويـة جـداً. كان ثمة خلافـات حدودية ومائية مـع المماليك. كان جد السـلطان سـليم الجبار علاء الدولة لا يؤيد توسـع الدولة شـرقاً. ولكن الصفويين شكلوا الخطر الأكبر في الشرق.

عملت الدولة التي يقودها الشاه إسماعيل على نشر أيديولوجيتها. لقد جعلت الشـيعية مذهـب دولـة، ولـم تعترف بحق بقية العقائـد أو الرؤى بالحياة، ونهجت



سياسة التأثير على الناس بداية، ثم تذويبهم داخلها. الجانب المزعج في الأمر هو أنهم لا يترددون بفرض هذا الأمر بالقوة. وتُنشر الدعاية الشيعية هذه باتجاه وسط الأناضول، وباتت تشكل خطراً مستقبلياً. يرى الأمير سليم هذا المشهد بكل وضوح من حيث كان مقيماً في الشرق، ويرسل الرسالة تلو الرسالة إلى والده. ولكن الوزراء في بيت العرش يحرصون على عدم وصول هذه الرسائل إلى الأب. إنهم يعرفون مقدار حيوية الأمير المقيم في طرابظون، وإقدامه. وخافوا من تأثيره على والده، وجر البلد إلى حرب. كان تصرفهم صائباً من زاويتهم، ولكن هذا المنعطف الحرج سيفرض نفسه ذات يوم، ولن يكون هناك مفر من مواجهته.

أدرك الأمير سليم بأنه لن يستطيع التواصل مع والده بهذه الطريقة، فخرج مع قواته التي في طرابظون، وعرج بداية على ابنه الأمير سليمان في كفة، وهناك زار حماه خان القرم غيراي منغلي بغية الحصول على دعمه، ولكن تهديد ولي العهد الأمير أحمد لم يتأخر، فقد أبلغه بأنه سيعزله مستقبلاً عندما يصبح سلطان سلاطين إذا لم يسحب دعمه لأخيه الأصغر. لم يمكث سليم الجبار كثيراً في كفة لكي لا يسبب مشكلة لحميه، وغادر. لم يعد سليم إلى طرابظون، وطلب من بيت العرش سنجقاً في روملي. لم يكن يعط سناجق للأمراء في روملي، ولكن سنجقا سماندرة وفيدين أعطيا للأمير الذي كسب قلوب الجنود. لم يكتف سليم الجبار بهذا، فيأتِ في تموز/ يوليو من ذلك العام (1511) إلى أدرنة أولاً، ومنها إلى تشورلو. وفي الثالث من آب/ أغسطس يواجه جنود بيازيد، وبعد مناوشة صغيرة ينسحب متوجهاً إلى السفن التي كانت بانتظاره. ثم يتجه إلى ابنه سليمان في كفة ولا يعود إلى طرابظون.

بعـد أسـبوعين مـن هـذا الحدث، يدعـو بيازيد الأمير ولـي العهد أحمد من أماصيـا إلـى بيـت العـرش من أجـل نقـل الإدارة. ولكن الأمير أحمـد لم يدخل اسطنبول من مالتبة. لأن الإنكشاريين الذين يريدون أن يجلس سليم على العرش تمردوا في الطرف الأناضولي. لم يستطع أحمد الدخول إلى بيت العرش، فذهب إلى قونية بدلاً من العودة إلى أماصيا، وأعلن حكمه فيها. إضافة إلى هذا ستؤجج انتفاضـات فـي منطقتـي أماصيا وطوقاط اللتين تركهما بضغـط الصفويين، وعلى الرغم من كونها منطقة حكمه لم يهتم بما يجري. في الحقيقة إن السبب الأساسي لتخلـي الجيـش عـن الأميـر ولـي العهد أحمد هو عمى بصيرته عن انتفاضة شـاه قولـو، وجبنـه. انطلـق مع الصدر الأعظم علي باشـا المخصي ضد متمردي شـاه قولو، واشتبكا معهم، واستشهد علي باشا المخصي، وبدلاً من مطاردته المتمردين عاد إلى سنجقه.

هـذه الأمـور كلهـا كانـت القطرة التـي طفح بها كيل ثكنـة الجيش النظامي. انتفـض الجنـود مـن أجـل الأميـر المقـدام الـذي ذهـب مـن طرابظـون إلى بلاد الجورجييـن، وفـرض عليهـم الضريبة، ودخل بصراع لا هوادة فيه مع الصفويين. غيّر بيازيد قراره تجاه ابنه الصغير سليم، ودعاه إلى اسطنبول. وصل الأمير سليم إلى اسـطنبول في 19 نيسـان/ أبريل، وأُعلن سـلطان سـلاطين في 23 أيار/ مايو 1512.

قـرر الأب بيازيـد الذهـاب إلـى ديماتـوكا لقضـاء أيامـه الأخيرة في جو هادئ. ولكن الجسـم المسـن لم يحتمل السـفر الطويل، وتوفي قرب تشورلو.

جلس السـلطان سـليم الجبار على العرش باعتباره سـلطان سـلاطين الدولة العثمانية التاسـع، ولكن المشاكل كلها لم تُحل. هنـاك فـي الخـارج بليتـا الصفويين والمماليك، وفـي الداخل لم تتحقـق الوحـدة بـكل معنى الكلمة. أخوا السـلطان سـليم الجبـار علـى قيد الحياة، ولا يعرف ما سـيفعلانه. خلال فترة قصيرة سـيُظهر الاثنان نيتهما الحقيقية. أعلن أحمد سـلطته من قونية، وحتى إنه أرسـل ابنه علاء الدين من

شاهدة قبر إنكشاري


قونية رسم نصوح مطرقجي

أجل أن يأخذ بورصة، واحتل المدينة. إثر هذا ينطلق السلطان سليم الجبار إلى بورصة ويسترجعها، ويعيد تعيين أحمد باشا هرسك المُدافع عن العدل بين الأخوة في إدارة والده صدراً أعظم.

فقط الأخ الأكبر قورقوط بارك جلوس سليم على العرش، وأعلن الولاء له. أعطى السلطان سليم الجبار لأخيه هذا سنجق صاروخان. ولكنه لم يكن واثقاً تماماً منه. أمر بعض رجال الدولة بكتابة رسائل لأخيه الأكبر، وهمس له بأن يكون السلطان عند خروج سليم في حملة. وكتب قورقوط رسائل ترد بالإيجاب. لم يبق إلا أمراً واحداً هو حل قضية قورقوط. تُحاصر مانيسا، ويُقضى على قورقوط. ويُجلب إلى بورصة، ويدفن في تربة أوخان غازي.

لم يرد السلطان سليم الجبار إراقة مزيد من الدماء، فأرسل إلى أخيه الأكبر أحمد رسائل باسم بعض الوزراء يبلغونه بأنهم سيقفون إلى جانبه في أية مواجهة. إثر هذا يسير أحمد بجيشه نحو أخيه، ولكنه يهزم أمامه في سهل يني شهير، ويقع في الأسر، ويقضى عليه. ودفن في تربة والدته الخاتون بلبل في الكلية المرادية في بورصة.

حقق السلطان سليم الأمن والاستقرار في البلد، كما أمّن ظهره في حال خروجه في حملة، وبإمكانه الآن الانطلاق في حملة الشرق وهو مرتاح.



الكلية السلطانية في مانيسا



أمير مانيسا مدينة الأمراء

بعد تسلّم السلطان سليم خان الجبار السلطنة من والده، وقطعه طريق تمرد أخويه المحتمل، بدأ التحضيرات السريعة للحملة. ففور جلوسه على العرش جلب زوجته الخاتون حفصة وابنه الأمير سليمان من كفة إلى اسطنبول، وأثناء صراعه مع أخويه، عين ابنه سليمان نائباً له. إلا أنه وبعد أن كسب الصراع مع أخويه، أرسل ابنه البالغ سبع عشرة سنة برفقة زوجته الخاتون حفصة إلى سنجق مانيسا.

وهذا تقليد يُجبر كل أمير على القيام به من أجل أن يكون إدارياً في المستقبل، وترافقه أمه، وأستاذه. وقد كان أستاذ الأمير سليمان قاسم باشا بين المسافرين إلى مانيسا.

كلف فريق من أجل إعداد الأمير من كل النواحي وبالشكل الأفضل. فقد كانت أمه بحنانها سنده في سنوات الشباب، وهذا ما يحقق نمواً سليماً لقلبه، أما أستاذه فيمنحه كثيراً من المعلومات في مواضيع الدولة والسياسة، ويوجهه بخبرته. أضف إلى ذلك ينضم إلى الفريق علماء من اتجاهات مختلفة فيغنون حياته التعليمية. لقد انضم إلى هيئة مانيسا المرافقة للأمير مركز أفندي وهو





من أهم طلاب تكية سنان سنبل في اسطنبول، فينير بمفهومه العلمي والفكري والتصوف درب أهالي مانيسا وعلى رأسهم الأمير. مركز أفندي هو من حضّر خلطة مسير الشهيرة التي شفت الخاتون حفصة من مرضها الذي استعصى على الأطباء، لم يكن مركز أفندي صديق الأمير سليمان في مانيسا فقط، بل اصطحب القانوني هذا الرجل العظيم إلى اسطنبول بعد وفاة سنان سنبل أفندي، وبنى له تكية خارج أسوار طوب قابِ، ووضعها في خدمته.

قصر مانيسا (قصر الأميرة)

مانيسا إحدى أهم مدن الأمراء. ولعلها في بعض الجوانب أهمها على الإطلاق. لأنها قريبة جداً من اسطنبول. فعندما يتوفى السلطان يحصل الأمير الذي يصل أولاً إلى بيت العرش بالأفضلية لتولي العرش.

كانت مانيسا عاصمة مقاطعة آل صاروخان عندما أسسوا إقطاعية. وثمة ملحقات قصر يعود إلى أبناء صاروخان في المدينة. ولكن مراد الثاني هو الذي

جعل منها مركزَ إدارة حقيقي، وبذل جهوداً كبيرة لا تقل عن جهوده من أجل قصر أدرنة. ولكي ينشئ ابنه الفاتح تنشئة جيدة، بعد أن تلقى تعليمه في مدرستي بيكلر وذات الساعة، أرسله إلى هناك، وسيعمل ما بوسعه من أجل تعليمه. نفهم الأهمية التي منحها السلطان مراد خان لمانيسا من خلال انزوائه فيها بعد تركه العرش لابنه.

المحزن هو عدم بقاء شيء من قصر مانيسا في يومنا هذا. كان هذا القصر يغطي مكاناً واسعاً ممتداً من الخان ذي الرصاص وجامع خاتونية وحديقة فاتح والمتقاعدين وقصر المحافظة وصولاً إلى بيزفيل. وكان هذا القصر ثالث قصر بعد طوبِ قابِ وأدرنة من ناحية الفخامة. ويصف أوليا جلبي قصر مانيسا في «سياحة نامة» المشهورة:

«يقع في حديقة زنبق أسفل المدينة من الناحية الشمالية. إنه بناء متين كالقلعة مبني بالقرميد من جوانبه الأربعة وله شرفات، وباب خشبي يطل على الطرف الجنوبي. محيطه 3300 خطوة. فيه قائد حرس و200 حارس بقبعات صفراء من الأستانة. ويحافظ على هذا القصر عامراً بشكل دائم، ومازالت أملاك السلف غير حوائجهم من الحلل المطرزة بالذهب والفضة والنوافير والأقداح مُحافظ عليها، وتطالعك قباب هذا القصر الرصاصية وراياته، وهو يرتبط بدخل ذاتي، ويرسل منه ضريبة بدل محصول إلى مسؤول التركات في الأستانة. بساتين وحدائق الجوار هي جنان. إذا مر أحد من قرب تلك البيوت فإن الروائح الطيبة تعطر دماغه. وفي ذلك القصر مئات ألوف أنواع النباتات بعدد ما خلق جناب الباري في الأرض. وقد زرع في هذا المكان مائة شجرة مثمرة إضافة إلى شجر بلوط وحور وسرو

مجسم لقصر مانيسا





جامع الدرويش علي
DERVİŞ ALİ CAMİİ
İ.İnönü Kız Meslek Lisesi
ثانوية عصمت إينونو النسوية
FATİH PARKI
حديقة الفاتح
ŞEHİTLER İ.Ö.O
الشهداء
دار محافظة مانيسا
MANİSA VALİLİĞİ
تربة الاثنين وعشرين سلطاناً
22 SULTANLAR TÜRBESİ

وليف وتبلدي وجرجان على شكل صفوف. بساتين وحدائق بهذه الهيبة والتنظيم هي للسلطان».

من لم يقم في هذا القصر؟ لقد كان مسكناً لستة عشر أميراً من السلطان محمد فاتح اسطنبول إلى سلطان سلاطين العالم السلطان سليمان، ومن الصدر الأعظم إبراهيم باشا أعظم ساسة التاريخ إلى الأمير محمد ابن السلطانة حُرّم البكر الذي توفي فيه، كما تزوج القانوني فيه، وولدت له فيه الخاتون ماهدفيران غولبهار ابنه مصطفى وصولاً إلى سليم الثاني المدفون في ظل أياصوفيا اليوم ومراد الثالث ومحمد الثالث.

في عهد أحمد الأول صدر قانون الأكبر والأرشد، وبموجبه يبقى الأمراء في اسطنبول، ولا يخرجون إلى السناجق. وهذا القرار كان بداية نهاية قصر مانيسا. مع الزمن تفسخت الأمكنة التي استخدمت مضافة الأسرة المالكة. وقد تأذت أبنية هذا القصر التي تعتبر بغالبيتها قطعاً فنية خشبية أذى بالغاً أثناء حرب الاستقلال بشكل خاص. الحرائق التي أشعلها اليونانيون أثناء احتلالهم المدينة، وهروبهم منها قضت على ما تبقى من آثاره القليلة.



إذا خطر ببالكم بأنه يمكن إعادة بنائه على أسسه الأصلية كما حدث في القصر العتيق في أدرنة، سأضيف موضحاً بأنه تم بناء «مركز ثقافة شعبية» على تلك الأسس الحجرية، وبهذا أزيلت تماماً. الجزء الوحيد الباقي من هذا القصر العظيم إلى يومنا هذا بناء شبيه بالبرج يدعى قصر الفاتح، ويستخدمه اليوم الهلال الأحمر. في تنقيبات الفترة الأخيرة اكتشفت بقايا حمام بجوار قصر المحافظة.

لمانيسا حظوة خاصة لأنها مدينة الأمراء، وخرّجت كثيراً من الأشخاص المهمين الذين سيضبطون نبض السلطنة العثمانية بوصولهم إلى السلطة، وقد نالت نصيبها لامتلاكها هذا الجانب. أنفق على المدينة كل من نشأ فيها، وهذا ما جعل نجمها يزيد لمعاناً. وقد ذخرت المدينة بآثار كثيرة بدءاً من الكلية السلطانية التي أنشأتها الخاتون حفصة والدة السلطان سليمان، والحمام المزدوج ودار الشفاء التي أمر ابنها الأمير سليمان المعمار علي العجمي بإكمالهما، وصولاً إلى الكلية المرادية التي أمر ابن حفيده مراد الثالث ببنائها.

أيام الأمير سليمان في سنجق مانيسا ستضع أمامه اسماً مفاجئاً. إنه إبراهيم باشا رفيقه باللعب عندما كانا ولدين، وحافظ أسراره في انفعالات أيام الشباب وحماسها، وصدره الأعظم في جزء مهم من حياته.

تقول الروايات بأن الأمير سليمان كثيراً ما كان يخرج مع رجاله إلى الأحياء المتطرفة من ولاية صاروخان (مانيسا). في واحدة من هذه الجولات يلفت انتباهه عزف على كمان ينبعث من بيت ذي حديقة. يقترب، ويصغي طويلاً لهذا الصوت الجذاب. بعدئذ يطلب الإذن بالدخول إلى البيت. ينظر، فيجد عجوزاً ويافعاً. كان اليافع هو الذي يعزف على الكمان. يتعرف عليهما، ويتحدث إليهما. بداية تعرّف المرأة بالولد



قلعة مانيسا

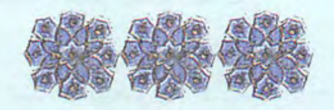


قائلة ابني. يفهم فيما بعد بأنه عبدها المعتوق. الأرملة الوحيدة تتبنى هـذا الولـد المجلـوب مـن بارغا فـي اليونان. بمـرور الزمن يصبح الأميـر سـليمان صديقـاً لإبراهيم هـذا. يتنزهان معاً. بعد فترة تعرف المرأة هوية الأمير سليمان الحقيقية، فتهبه ابنها بالتبني. بالطبع ليس ثمة ما يترك للحظ لدى العثمانيين. ليس ثمة رجل أو امرأة صاحب رأي فـي الإدارة يمكنـه القـول: «أنـا أحببت فلاناً كثيـراً» ويعين في موقع كبير فوراً. الجميع مضطرون للمرور بتدرج معين وانتقال في الرتب. وسيخضع إبراهيم باشا أيضاً لهذا التدرج. يُرسل إلى مدرسة القصر، ونتيجة التعليم الصارم الذي يتلقاه هناك، يغدو هذا الشاب اللامع الموهوب أحد أهم الصدور العظام في التاريخ العثماني.

لا يطرح التاريخ بالنسبة إلى إبراهيم باشا إلا نقداً واحداً، هو أنه لم يُرسـل إلى منطقة نائية لينضج أكثر عندما كان رئيس الغرفة الخاصة، وانتقل مباشرة إلى الصدارة. لأن نظام المدرسة السلطانية العثمانية يقضي بأن يعمل الشاب الخريج في الإدارة فترة، ويكتسب خبرة جيدة، ثـم يصبـح وزيـراً ثالثـاً في القصر، ثم وزيراً ثانياً، وإذا لم يخرب نفسـه، واسـتمر بتطوره، يعين في الصدارة.

الأطفال المحولون دينياً وهم
يساقون إلى اسطنبول







نائب السلطان في أدرنة

نعرف بأن الأمير سليمان الذي من المفروض أن يبقى في سنجق مانيسا في عهد السلطان سليم الجبار قد أقام فترة قصيرة في أدرنة. لم يكن الأب يهدأ في مكانه. انطلق بداية في حملة الشرق، ثم في حملة مصر. ناب الأمير والده أثناء حملته إلى إيران عام 1514، وحملته على مصر عام 1516. وأقام في اسطنبول أثناء حملة إيران، ولكنه مارس هذه المهمة أثناء حملة مصر الطويلة من أدرنة. وقد أحب السلطان سليمان القانوني أدرنة كثيراً إلى درجة أنه سيمضي جزءاً مهماً من فترة نيابته للسلطان وتوليه العرش في هذه المدينة.

عموماً تكون هناك أسباب تجعل السلاطين يميلون إلى أدرنة. في سنوات تأسيس الدولة العثمانية، وقبل دخول اسطنبول، كانت إدارة الحملات على البلقان ومتابعتها منها أسهل. لأن أكبر الأعداء في أوربا، وستبقى أدرنة قاعدة لتلك الحملات.

الخصوصية الأخرى لأدرنة أنها محاطة بسهول واسعة، وفيها ساحات صيد غنية. ثمة قاعدة هامة لدى العثمانيين: لا يمكن الإبقاء على الجنود فترة طويلة في الثكنات. إذا بقي الجنود فترة طويلة في الثكنات، يبدأون بالتململ، والاهتمام بما هو غير عسكري، وإقلاق

راحتهم وراحة من حولهم. لأنهم يحملون سلاحاً، وعليهم أن يبقوا مركزين على مهنتهم. تعتبر أدرنة ومحيطها من أفضل الأمكنة لشغل الجنود، والإبقاء عليهم دائماً جاهزين لحالة الحرب. تنظم فيها رحلات صيد مطاردة تستغرق أسابيع طويلة. في الحقيقة، إن رحلات الصيد تلك تشبه تدريبات الحرب كثيراً. لهذا السبب كان السلطان سليمان يقضي غالبية وقته مع جنوده في أدرنة.

أقام السلطان سليمان القانوني في أدرنة لفترات طويلة إلى درجة أنه أمر بإنشاء برج عدالة من أجل اجتماع الديوان السلطاني. في الحقيقة، إن هذا كله يشير إلى أن السلطان سليمان القانوني لم يكن كما يدعى بأنه لا يخرج من قصره. فقد شارك في 13 حملة كبيرة خلال فترة توليه العرش البالغة 46 عاماً، وخارج هذه الحملات بقي على رأس جيشه إما في أدرنة أو في نواحي غبزة. لقد بقي خارج اسطنبول فترة طويلة إلى درجة أنه أمر ببناء بناء في مدينة أخرى لاجتماعات الفريق الإداري الذي يمكن تسميته مجلس الوزراء العثماني.

بقي الأمير سليمان في أدرنة أثناء حملة والده السلطان سليم الجبار على مصر بصفته حارس روملي، وبعد عودة والده عاد إلى سنجقه في صاروخان (مانيسا).



قصر أدرنة



برج العدالة في قصر أدرنة

دار دنیادن کوچوب اولدی روان
بر سفر اتدی نیه اول پهلوان

چون بو ملکی کورمدی اول پایدار
جاودانی ملکه واردی شهریار



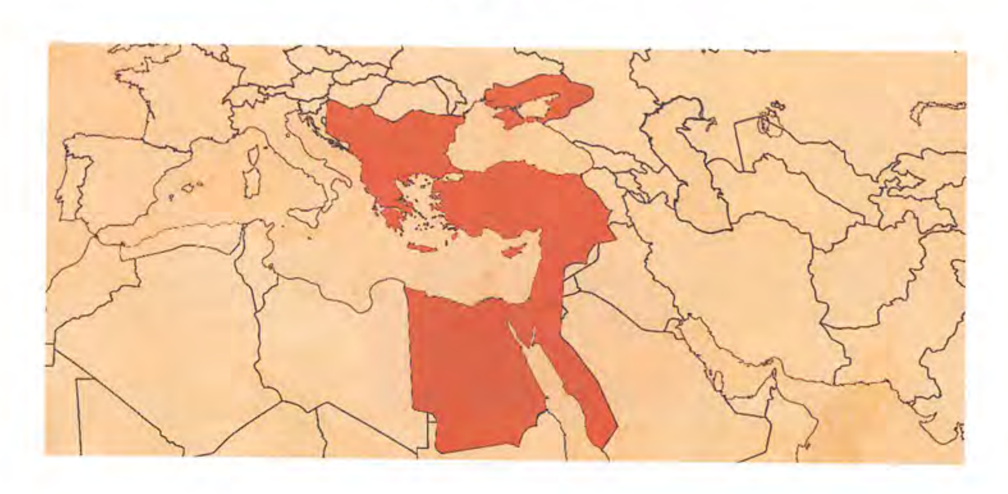
وفاة السلطان سليم الجبار

كان الأمير سليمان يعود إلى سنجقه في ولاية صاروخان بعد أن ينوب عن والده أثناء معارك جالدران وجبل طورنا ومرج دابق والريدانية.

نهج السلطان سليم الجبار حتى ذلك اليوم سياسة صائبة، والآن جاء دور الاهتمام بالغرب. الجيش مستنفر دائماً، والرياح هذه المرة ستهب نحو الغرب، وفي الوقت نفسه أمر سليم خان بتجهيز أسطول، وبدأ بناء 150 قطعة بحرية مرفوعة على السكك في الخليج، إضافة إلى هذا قدم الرعاية للأخوين خضر في البحر المتوسط، وتقدم الحوار معهما كثيراً عبر رسائل يسربها لهما. في الحقيقة، إن كل هذا سيبقى إرثاً عظيماً للأمير سليمان، وسيفتح الطريق المؤدي إلى موقع سلطان سلاطين العالم أمامه.

كان الأب سليم خان صاحب نظرة بعيدة، إلى درجة أن خرائط العالم التي أمر برسمها جعلت قلب إمبراطور الصين يخفق جزعاً. كان يحاول رؤية المدى الذي يمكن أن يصل إليه في حملات الشرق، وفي الوقت نفسه يبعث برسائل للدول المحيطة بأن تنتبه لتصرفاتها.

ولكن القدر لم يقسم لهذا السلطان العظيم سوى ثماني سنوات. وسينطلق سليم خان في أول حملة إلى الغرب دون أن يهمس لأحد بهدفها، ولكنه لم يستطع الوصول سوى إلى مرادلي القريبة من تشورلو. كان الدّمل الذي فقؤه له عند



خروجه في الحملة على وشـك أن يقبض عليه. وسـيتوفى في خيمته قرب قرية صرط قبيل حملة كجده الفاتح. ولم يفارقه المفكر الكبير ومستشاره حسن جان ولو للحظة، ونقل لنا تسلميه لقدر الله في اللحظات الأخيرة عبر ابنه الشيخ سعد الدين أفندي. يقطع قراءة القرآن فوق رأسه قليلاً، ويقترب من السلطان سليم وهو يسبح وسط العرق الحار يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويقول: «هذا وقت اللقاء بالله يا سـلطاني». يحملق السـلطان سـليم، وينهض قليلاً، ويقول هذه العبارة المزركشـة بشـعور الإحسـان التي سـيصغي التاريخ لها بكل جوارحه، وتفوح كل كلمة من كلماتها بالقرب من الله: «مع من كنت تعتقد أننا كنا حتى اليوم؟»

يجـب أن يبلّـغ الأميـر فوراً بوفاة سـلطان السـلاطين، وأن يؤتَى بمن يترأس الإدارة دون أن يعلـم أحـد. لأن مراحـل الفـراغ هذه فرصة نادرة لأبناء آوى التي وضعـت نصـب عينهـا القضاء علـى الدولة. ولكن لا داعي للقلق. لأنه ثمة داهية سياسية في الإدارة هو محمد باشا بيري. انطلق سليمان آغا حاملاً سلاح الصدر الأعظم محمد باشا بيري فوراً إلى مانيسا، ولم يتأخر بإيصال الخبر للأمير سليمان.

ينطلـق الأميـر مع مجموعته على صهوات خيولهم بأقصى سـرعة، ويصلون إلى اسـطنبول، ويوفق بالخروج خارج الأسـوار لاسـتقبال جنازة والده. يسير فترة طويلـة بجانـب تابـوت والده، ويحاول أن يظهر احترامـه له للمرة الأخيرة. عاش هذا الأب عظيماً، ووضع أمامه أهدافاً عظيمة، وحقق بعضها، ولكنه ودّع الحياة قبل أن يحقق القسـم الآخر. ولكنه، أعد التحضيرات كاملة من أجل ما أراد أن



المساحة الخضراء هي جوار قرية ياقا كوي القريبة من مرادلي في تشورلو حيث توفي السلطان سليم الجبار

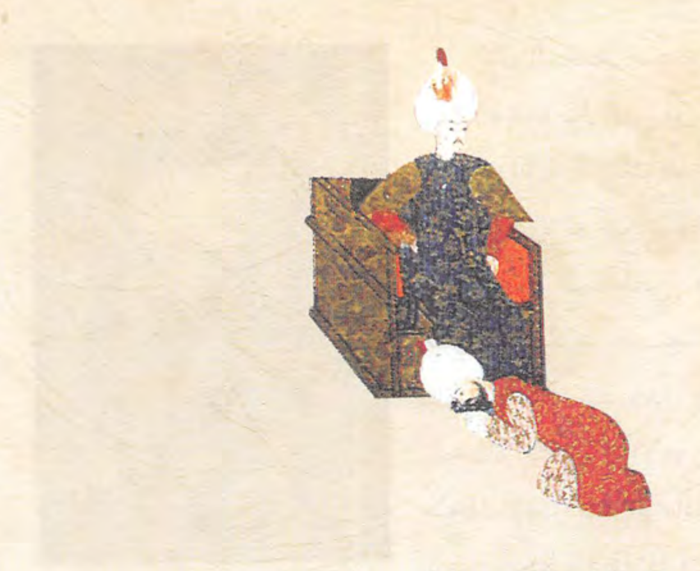
يحققه. لم يعهد ظهره فراشاً جيداً على مدى سنوات، كما لم تعهد يده ملعقة حديد وليس ذهباً أو فضة. اعتاد على تناول طعامه من طبق فخاري وبملعقة خشبية. تزوج مرتين، ولكنه زاهد إلى درجة أنه لم يعش مع زوجته بشكل طبيعي. ولم تذهب التحضيرات الحثيثة التي أعدها من أجل أهدافه هباء. لأن الولد الذي ترك له مكانه هو أحد أهم الحكام الذين نشأوا حتى ذلك اليوم. والفرق التي ستحسن استخدام هذا الميراث جاهزة. لم يبق سوى السير بعزم وإصرار.

كتب العالم الكبير ابن كمال هذه الأبيات عن السلطان سليم خان الجبار والد سلطان السلاطين الذي حقق إنجازات كبرى خلال فترة قصيرة:

إنجازه عظيم في زمن قصير
ظله غطى العالم كله
شمس عصره وظِلُ العصر
طويل، ولكن زمنه قصير
مات السلطان سليم يا حيف
ليبكه القلم كما بكاه السيف

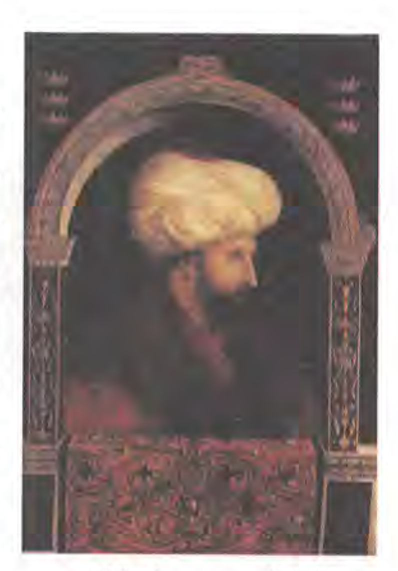
ولكن الأعمال الخيرة تحتاج بدايات خيّرة. لا بد أن يكون جلوس السلطان سليمان على العرش تم بأدعية أهل الخير في مكان ما مثله مثل بقية سلاطين بني عثمان، أي في حضرة صحابي سيدنا الرسول محمد ﷺ في اسطنبول أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه. يروي لنا أوليا جلبي هذا المشهد بكل تفاصيله. في 30 أيلول/ سبتمبر 1520، المصادف أول جمعة بعد جلوسه على عرش السلطنة، ذهب إلى جامع السلطان أيوب، وأقسم في حضرة الصحابي الجليل أن يكون حاكماً قوياً عادلاً، وقُلِّد سيف سيدنا الرسول ﷺ. وبحسب تعبير أوليا جلبي فإن المتوكل آخر الخلفاء العباسيين قلده السيف.





الحمل الجالس على العرش

سببت وفاة السلطان سليم حزناً عميقاً في الجغرافية العثمانية، وبالمقابل فرحاً عارماً لدى أعدائها. أرعب هذا السلطان أوروبا بعد أن ضاعف مساحة أرض الدولة ثلاثة أضعاف، وأزال عدوي العثمانيين الأزليين في الشرق. لا يمكن لهذا الإنسان العالم والعسكري البعيد عن متع الدنيا ولا يعرف الكلل أو الملل أن تصادفه عقدة إلا ويفكها، ولا عائق إلا ويتجاوزه. تُرى لو خرج في حملة إلى الغرب، ألن يتابع حتى إسبانيا؟ كانت هذه المخاوف تتلبس دول أوروبا القوية كلها في ذلك الوقت: المجر وألمانيا وفرنسا وإسبانيا وعلى رأسها البابوية. لم يكن قد مضى على إزالة دولة الأندلس الأموية سوى 28 عاماً. هاجم الأوربيون بوحشية تجاوزت وحشية الضباع الحضارة الإسلامية العظيمة من أجل إزالتها. لم يكن لدى تلك الزمرة الخارجة عن الإنسانية أي احترام لإنسان أو فن أو علم أو ثقافة أو قيمة. عندما نتجول اليوم في غرناطة أو قرطبة في إسبانيا، وننظر إلى الأقل من الواحد بالألف المتبقية من الآثار، لن نجد صعوبة في فهم أبعاد تلك الوحشية.


السلطان محمد خان الفاتح

كان السلطان محمد الفاتح قد فطر قلوبهم رعباً عندما نزل في أوترانتو فجأة. ولكنهم لم يستطيعوا إيقاف ذلك الرجل إلا بتنفيذ مخططهم الذي أعدوه له عبر سنوات طويلة بتسميمه في سهل غبزة السلطاني. وفجأة جاء سليم خان الذي استفاد من استعدادات جده الفاتح وأبيه بيازيد بشكل جيد جداً، وجعلهم يقطعون أملهم بالحياة. يبدو أن الأمور بدأت تتغير الآن. هل ضحك القدر لهم أم ماذا؟ لقد غادر سليم خان الدنيا، لحظة انطلاقه في حملة الغرب. والآن يجلس حمل على العرش بحسب تعبيرهم. كان شاباً غراً في الخامسة والعشرين من عمره، ويمكن استغلاله بسهولة. إنه شاب عديم التجربة، يمكن أن يلاحق طموحاته وأهوائه، وهو عصبي لا يصغي لمن حوله، وشاب مشغول بمتعه الشخصية بدلاً من الانشغال بالحملات. وهكذا بدأت مدريد وكوردوبا وفيينا وأورليون بتحضير خطة إثر خطة باعتقاد أن الحظ قد ابتسم لها هذه المرة.

ولكنها نسيت أمراً. لا يُربى الأولاد في مجتمع استمد قوته من عقيدته كما يعتقدون، فالتواضع يتقدم على كل شيء. قال الولد لنفسه مرة لأتزين قليلاً، فكان رد الأب الحنون الساخر: «أرى أنك لم تترك لأمك ما تلبسه». لكي يتذكر هذا الأمر دائماً.

العلم قيمة لا يمكن التخلي عنها نهائياً بالنسبة إليهم. لن يبقى هذا السلطان أقل من والده الذي انطلق في حملة مصر مصطحباً حمل بغل من الكتب. فقد ختم الأمير سليمان العديد من الكتب التي اقترحها عليه والده، وقرأ بموجب نصيحة والده أيضاً بعمق «سياسة نامة» لنظام الملك.

الأب قناص ماهر إلى درجة أنه إذا أُطلق طائرا حمام أمامه يمكنه أن يسقطهما بقذف خنجرين يحملهما بيديه، وجريء إلى درجة أنه يقطع تماسيح نهر النيل العملاقة إلى قطعتين بسيفه. أما ابنه فهو شجاع لا ينزل عن صهوة


السلطان سليم

الحصان، ولا يُدخِل الجنود إلى الثكنات حتى وإن شغلهم بصيد المطاردة. ويكتب الشعر باسم «محبي» الفني مثل والده الذي كتب الشعر بالفارسية، وستكون له شخصيته الأدبية. وكان ماهراً بفن الصياغة، ورقيق الروح إلى درجة تحويل الحجر بين يديه إلى جوهرة. بالنتيجة، يبدو أن الأوربيين سيغصون بفرحتهم. ولكن ثمة من اعتقد بأنه يمكن أن يرتاح عدة سنوات حتى يعتاد على العرش. سيخيّب السلطان سليمان أمل الجميع، ويبدأ الاستعداد للحملة فور جلوسه على العرش لأنه صاحب شخصية لا تعرف التوقف وناره متأججة كالفرن، وسيُفْقِدُ الأوربيين صوابهم. ولم يتأخروا بمعرفة أن من اعتقدوه حملاً في الخامسة والعشرين من عمره هو في الحقيقة ذئب.



حلب



محاولة العدو الأولى: التمردات

تنتظر السلطان سليمان الذي جلس على العرش باعتباره سلطان السلاطين العثماني العاشر في 30 أيلول 1520 أيام صعبة. لأن الدولة كبيرة، والخزينة مملوءة تماماً، والعدو قوي يُعدّ الخطة تلو الخطة من أجل تجزئة الدولة العثمانية. ستعطي هذه الخطط ثمارها بعد فترة قصيرة، وستندلع تمردات خطيرة في مختلف أرجاء الدولة. الاعتقاد أن تلك التمردات شخصية اعتماداً على من يتزعمها تعبير عن رؤية ساذجة. لابد من استعراض توازنات القوى في تلك المرحلة من أجل فهم تلك التمردات التي كانت القوى الخارجية تقف وراءها بقوة. في الشرق صفويون هدموا دولة الخرفان البيض ومازالوا يأملون بالسيطرة على الأناضول، ويندفعون بأقصى قوة. دخلوا فعاليات الخطف وتحريض علويي الأناضول وغير ذلك بستارة النشاط الدعوي. أنجزت إسبانيا وحدتها بعد أن هدمت الدولة الأموية في الأندلس، ونتيجة الزيجات أسست روما المقدسة، وتعد الخطط من أجل إسقاط الدولة الوحيدة الممثلة للعالم الإسلامي، وراعيته. أُسقطت دولة آلطن أوردو في الشمال، وتأسست

خانيـات عديـدة. لـم يكن لأولئك الخانات من يرعاهـم. عملت الذهنية الصليبية الأوروبية على جذب غنى 'العالم الجديد' إلى الغرب من جهة، وانتهاج سياسة توسعية في شمال أفريقيا من جهة أخرى. الدولة العثمانية هي الوحيدة التي يمكن لها أن تعطل هذه المخططات. لهذا السبب يجب أن تزلق قدمها، وألا تجد الوقت لحك رأسها، وأن يقع سكانها ضد بعضهم بعضاً بالتمردات الكثيرة. أليست هذه الكلمـات التـي قلتهـا الآن مألوفـة لآذانكـم؟ لو دُقق جيداً فـي التاريخ، يمكن أن تُفسـر أعقـد المؤامـرات. تعالـوا إذاً لنبحث في تلك التمـردات الناجمة عن تلك الأحابيل عن قرب.

تمرد جانبردي غزالي

لحملـة السـلطان سـليم الجبار علـى مصر خصوصيات يجـب الوقوف عليها بجـد. أولاً الدولـة التـي تخـاض الحرب ضدها هي دولة تركية مسـلمة خدم أهلها الدين سنوات طويلة، ودافعوا عن قيمه في مواجهة المغول إلى آخر حد ولكنها لم تعد تستطيع القيام بالمهمة التي أخذتها على عاتقها. سينهي السلطان سليم الجبار هـذه الدولـة فـي حملتـه على مصر. ولكن إنهاء الدولة هنـا لا يعني القضاء عليها. عومل الوزراء المماليك معاملة لطيفة إلى أبعد الحدود، حتى إن السـلطان عرض



تربة فرحات باشا

على آخر سلاطين المماليك طومانباي سنجقاً في الغرب. كلفت الإدارة العثمانية بعض أمراء المماليك بوظائف على الأرض المملوكية انطلاقاً من هذا الموقف.

بعد معركة مرج دابق تقدم الجيش العثماني نحو حلب. أعلن أمير المماليك في حلب خيرباي ولاءه للسلطان سليم، وكان دليل جيشه إلى حلب. فضل أمير الشام المملوكي في تلك الأيام جانبردي غزالي الهرب على الدخول في الحوار، ثم حظي بالعفو بكفالة خيرباي. بعد فتح مصر عيّن السلطان سليم خيرباي سيد سادة مصر، وجانبردي غزالي سيد سادة الشام.

ولكن جانبري غزالي لم يتقبل الأمر عندما وصله نبأ وفاة السلطان سليم الجبار، وجلوس ابنه الأمير سليمان مكانه، فأعلن سلطته المستقلة، وحتى إنه أرسل رسائل لسيد سادة مصر خيرباي والشاه إسماعيل، وحرضهما على التحرك معه. لم يتأخر خيرباي بإبلاغ اسطنبول بالأمر، فجهزت اسطنبول جيشاً ليسير ضد جانبردي. حاصر جانبردي حلب أيضاً في تلك الأيام، ولكنه وُوجه بمقاومة سيد سادة حلب أحمد باشا قراجا، ولم يستطع السيطرة على المدينة.



قبر السلطان المملوكي طومانباي

في اجتماع الديوان في اسطنبول تقرر تسيير قوات كل من سيد سادة قرمان وسيواس والأناضول نحو سورية. سيقود هذه القوات فرحات باشا الذي سينطلق من اسطنبول مع الإنكشاريين. إلى جانب هذا، صدر الأمر لعلي بيك شخصوار دوالقادرلي بإمداد حلب المحاصرة. وعندما تلقى جانبردي غزالي خبر انطلاق قوات علي بيك، اتخذ قرار الانسحاب إلى دمشق. تَهزم قوات فرحات باشا المتوحدة مع بقية القوات العثمانية قرب دمشق جانبردي غزالي، ويُقتل قائد التمرد على يد رجاله.

عُين أياس باشا سيد سادة الشام مكان جانبردي غزالي المتمرد. سيكون محمد أياس باشا في المستقبل صدراً أعظم خلفاً لإبراهيم باشا الصهر (البارغالي)، وهو مدفون اليوم في أيوب، وتربته أولى أعمال المعمار سنان بعد تسلمه منصب كبير المعماريين.

تمرد أحمد باشا الخائن

لم يكن الأوربيون فقط من اعتقد بأن السلطان سليمان الذي جلس على العرش حمل، بل هناك أعداء في الداخل فكروا بهذه الطريقة. عندما جلس السلطان سليمان على العرش كان محمد باشا بيري صدراً أعظم. شاخ الرجل صاحب التجربة الطويلة والنظرة البعيدة، وبعد جلوس سلطان السلاطين على العرش، طلب الإذن بالانزواء في مزرعته الواقعة في سيلفري. ينبغي أن يحل محله الوزير أحمد باشا كما تقضي القواعد. ولكن القواعد خرقت بتعيين مسؤول الغرفة الخاصة إبراهيم آغا (سيغدو الصهر إبراهيم باشا المقبول في المستقبل) صدراً أعظم. ولكن أحمد باشا لم يتقبل هذا، فرفع راية التمرد في مصر بعد فترة.

جمع حوله في تمرد مصر مجموعة من المماليك الممتعضين. ولكن الإنكشاريين في مصر لم يقبلوا أحمد باشا، واستعصوا في

شاهدة قبر آغا إنكشاري

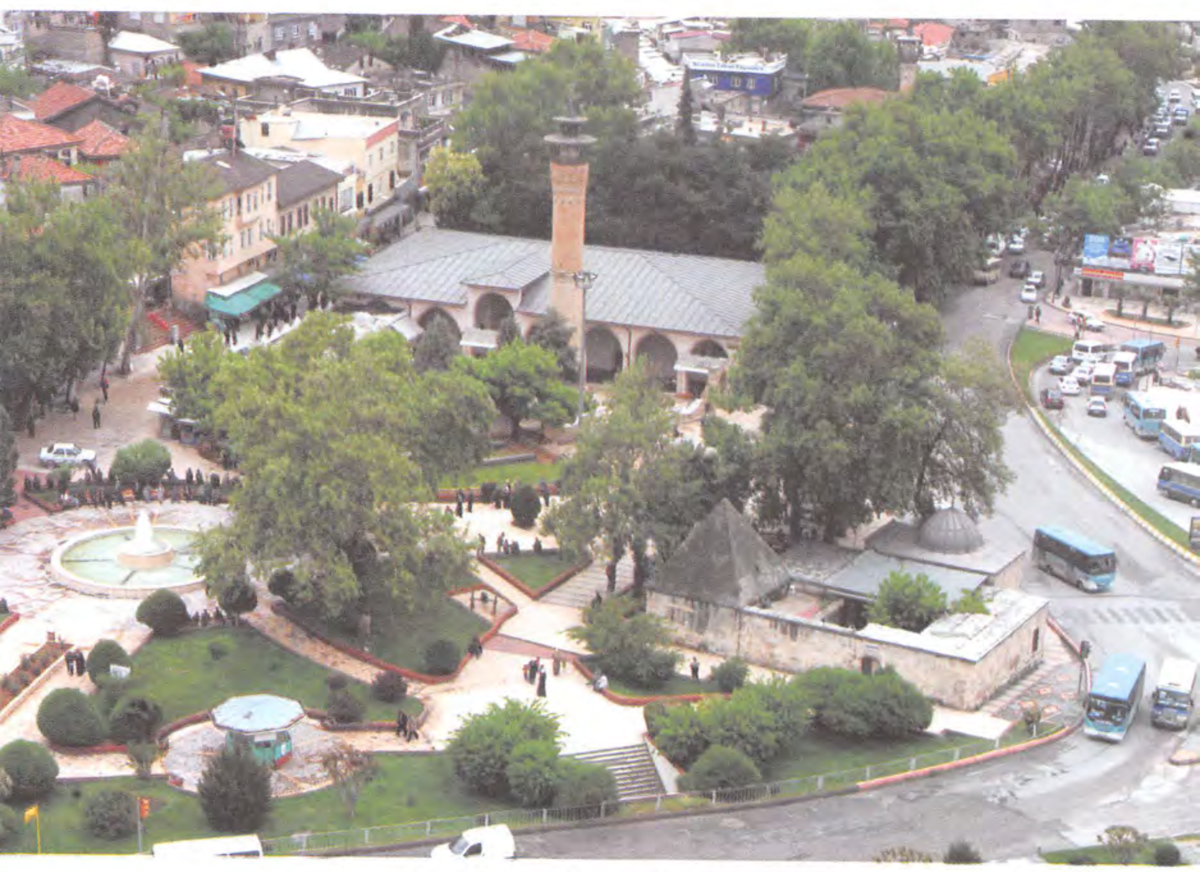
قلعة القاهرة، وأبلغوا اسطنبول بولائهم. حاصر أحمد باشا الخائن القلعة فترة طويلة، ولكنه لم يستطع أخذها. عندما أراد التراجع، اكتشف سرداباً قديماً لم يستخدم منذ قرون يؤدي إلى القلعة، فدخل منه، ومع الأسف استشهد أولئك الجنود الأبطال على يده. يُرسل السلطان سليمان الصدر الأعظم إبراهيم باشا لقمع التمرد، وفي هذه الأثناء يرسل خبراً لمحمد بيك قاضي زادة الذي ساهم باختيار الصدر الأعظم سراً بضرورة القضاء على أحمد باشا. يُعد أحمد بيك كميناً لأحمد باشا في الحمام، ويقبض عليه، ويُقتل. ويعين قاسم باشا سيد سادة مصر.

هذه المشاكل التي عاشتها مصر منذ فتحها فرضت الحاجة لحركة إصلاح جدية. أرسل الصهر إبراهيم باشا المقبول إلى مصر من أجل هذا الهدف، وأقام هناك فترة طويلة أعاد فيها تشكيل الإدارة، والنظام الضريبي، والوارد والصادر. لقد وضع رجل الدولة الموهوب هذا نظاماً في مصر استمر دون أي مشاكل حتى القرن التاسع عشر. ولم يحدث في مصر أي تمرد آخر.

تمرد قلندر جلبي

لم يكن هذا التمرد إلا واحداً من محاولات إيران إفشال مفاعيل معركة جالدران، والسعي لتقسيم الدولة العثمانية عبر التيارات الشيعية. من المعروف أن الشاه إسماعيل سعى للتأثير على الأناضول عبر الدعاية الدينية، وحاول جذب مواطنينا العلويين الأناضوليين إليه. تباطأت هذه الفعاليات بعد معركة جالدران، ولكنها لم تتوقف في أي وقت. لقد حاول الشاه تشكيل منظومة دعاة مرتبطين به عبر جواسيس يرسلهم إلى الأناضول، وشعراء شعبيين يلقون الشعر وهم يعزفون على الطنبور جاذبين محبة الناس ومقدمين دعاية سياسية. كان قلندر جلبي أحد هؤلاء المتمردين في نواحي مرعش، هاجم خسرف باشا سيد سادة ديار بكر المتمردين، وتغلب عليهم. ولكنه عاملهم بلطف نتيجة التحذير الذي تلقاه باحتمال وجود أناس عاديين. استغل المتمردون هذه الفرصة، وهاجموا بقوة أشد، وأخذوا قوات خسرف باشا على حين غرة.

على الرغم من بدء التمرد على يد مجموعة صغيرة في مساحة ضيقة، تحول إلى قوة خطيرة بعد انضمام كل من لديه مشكلة مع النظام من الجهات كافة.



جامع أولو لعلاء الدولة من قلعة مرعش

انضمت إلى هذا التمرد بعض وحدات مقاطعة ذو القادر المنزعجة من العثمانيين إضافة إلى فرسان جباة الضرائب المسحوبة منهم بعض المخصصات.

صدر الأمر لسيد سادة الأناضول بهرام باشا بقمع التمرد. فأخذ معه جنود خمس ولايات مثل بورصة وحلب وقرمان وغيرها، وسار نحو المتمردين. خسرت الوحدات العسكرية العثمانية معركتي طوقاط وقيصري. وشعر السلطان سليمان بخطورة الوضع، فأرسل الصدر الأعظم الصهر إبراهيم باشا ليهتم بالموضوع شخصياً.

كان إبراهيم باشا أحد دهاة ذلك العصر، فلم يتجه نحو قلندر مباشرة. الهدف هو قمع التمرد دون إراقة دماء. يراضي ذو القادر المزعوج من إعدام علي بيك شخصوار أوغلو بسبب عدم تقديمه الدعم الكافي ضد تمرد جانبردي

غزالي. ويبلغه بأنه سيكون له كلمة في الإدارة. بعدئذ يحاول حل مشكلة فرسان الجباية المتعلقة بالمخصصات. ويعطي وعوداً في هذا الموضوع.

خلال فترة قصيرة تنفضّ القوى الملتفة حول قلندر. يحقق إبراهيم باشا هدفه. ينسحب مع القوات القليلة المتبقية معه إلى جبال ألبستان. وبمداهمة مفاجئة قام بها إبراهيم باشا، يحاصره، ويهزمه في المعركة التي خاضها ضده ويقتل.

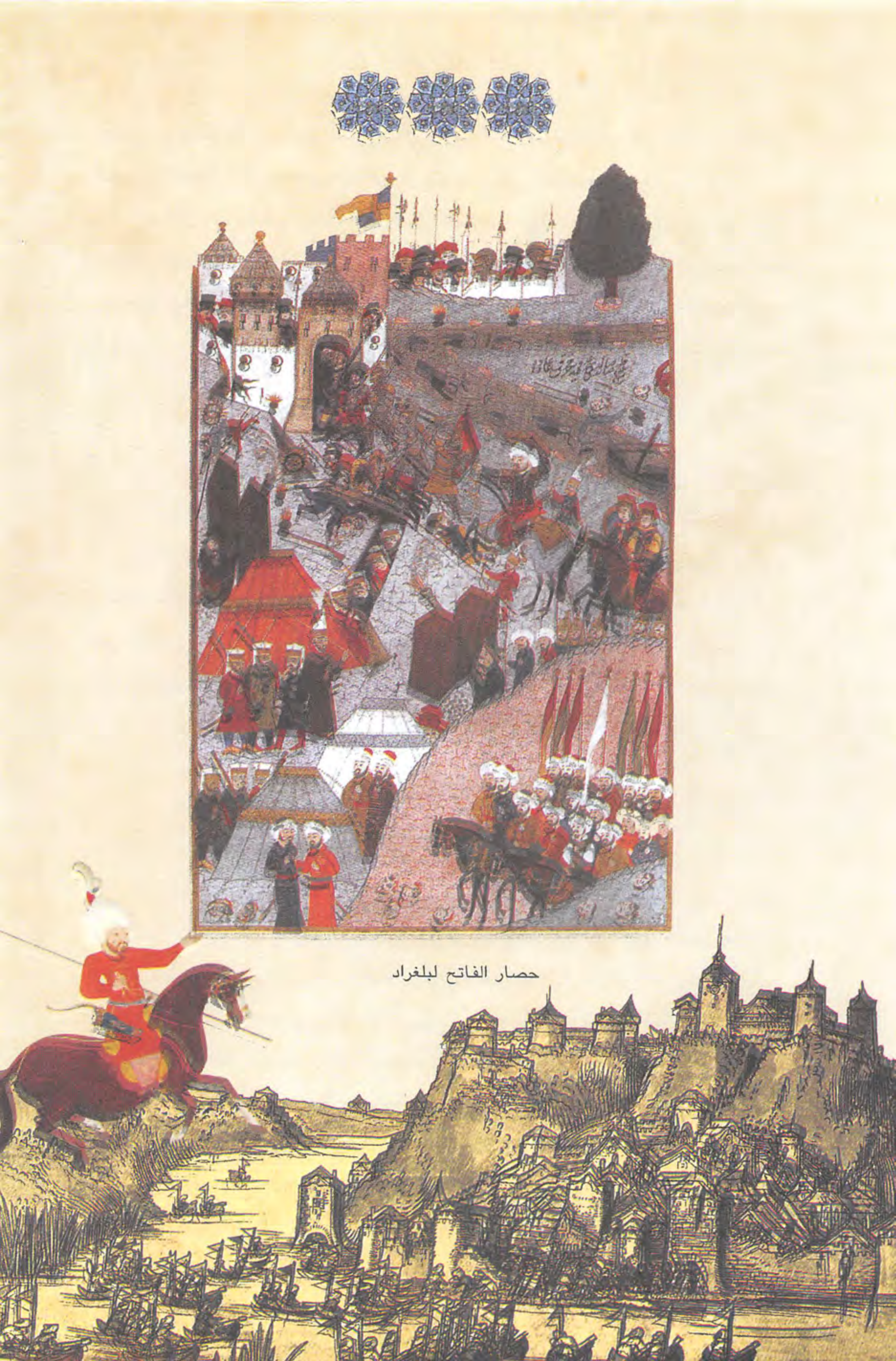
تمرد البابا ذو النون

تمرد هام ظهر نتيجة ما زرعته الدولة الصفوية على مدى سنين في الأناضول. الهدف هو إضعاف الدولة العثمانية، وجمع المؤيدين لإيران والشيعة لتشكيل قوة.

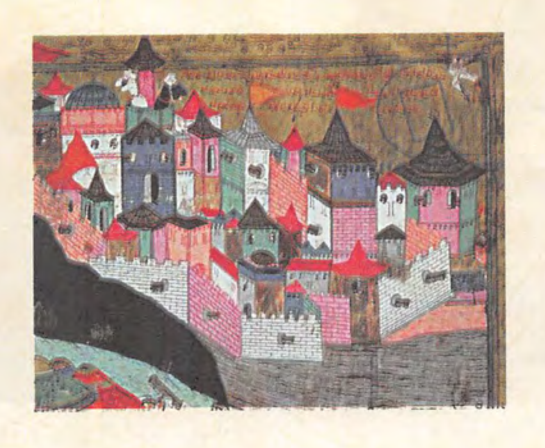
يتمرد على الدولة شخص يدعى البابا ذو النون في نواحي بوظوق عام 1526. بداية يداهم المتمردون قصر مصطفى باشا في بوظوق. أرسلت قوات إلى نواحي قيصري، ولكنه هزمها، وقتل مسؤولي سنجقي قيصري وإتشل. في 26 أيلول/ سبتمبر 1526 تهزمه وحدات محمد بيك ابن الصدر الأعظم السابق بيري محمود باشا آغا، سنجق أضنة في تلك الأيام، ويقتله، ويقضي على التمرد.

النتيجة

من الخطأ الفادح اعتبار سبب ظهور هذه التمردات هو استغلال تغيير النظام فقط كما بينا في البداية. الدولة العلية كبيرة، وهي تكبر يومياً، ولها أعداء بقدر ما لها أصدقاء، وتستفيد كثير من الدول من الأحداث الناجمة عن صراع المصالح أو ادعاء الزعامة أو حكم منطقة أو أسباب أخرى. لهذا السبب ظهر من يستغل فرصة الفراغ الذي حدث بوفاة السلطان العظيم سليم الجبار. ولكن ما شوهد هو أن الكوادر العثمانية المستقرة القوية والسلطان الذي خضع لتعليم جيد جداً لم يعط فرصة لهؤلاء، ووقف في حلق أوروبا وإيران. حل السلطان الشاب القضايا التي واجهته في السنوات الأولى، وتوجه نظره الآن إلى اللاعبين الرئيسيين الذين خططوا لهذه الألعاب. تنتظر هؤلاء أيام صعبة.



حصار الفاتح لبلغراد



السنة الأولى والحملة الأولى بلغراد

مكانـان هامـان حاصرهما السـلطان محمد خان الفاتح الذي فتح اسـطنبول ولم يستطع فتحهما، هما قلعة وجزيرة. قلعة بلغراد، وجزيرة رودس. جرب والده مراد الثاني فتحهما، ولكنه لم يوفق، لذلك أعد الفاتح استعدادات غير عادية من أجل فتحهما. تحرك جيش مؤلف من مائة وخمسين ألف مقاتل بتجهيزات جيدة. ولكن وحدة صليبية كبيرة بقيادة لايوش ستهب للنجدة، وتعيق الفتح. يقتل ملك المجر لايوش في هذه المعركة، ويصاب السلطان محمد الذي قاتل في المعركة مع جنوده كتفاً إلى كتف إصابة بليغة، ولكن القلعة لم تُفتح.

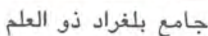
كانـت بلغـراد إحـدى أهـم مـدن دولة المجر فـي تلك الأيـام. وعلى رأس دولة المجر لايوش الثاني. كانت دولة المجر من دول أوروبا القوية.

ولا تعتقـدوا بأننـي أبالـغ بقولي هـذا. إذا وقع طريقكم ذات يوم علـى قصـر طوب قابِ، ففـي الباحة الخارجية لجناح القصر السلطاني، أي في بناء آمر الخزينة، وحيث تعرض الأسلحة اليوم، ترون أكبر السيوف بين العشرات المعروضة هناك، والتي تجعلكم تقولون: «ما هذا يا عزيزي، وهل هناك مـن يسـتطيع حملهـا» هي سـيوف الجنـود المجريين.



بلغراد المحاطة بنهري الدانوب وصاوا.





جامع بلغراد ذو العلم

ومازالت تعرض هناك باعتبارها غنائم معركة موهاج.

التوازنات المتغيرة في أوروبا، وقوة إمبراطورية روما الجرمانية المتزايدة جعل صهر ملك هذه الوحدة ملك المجر لايوش يتدلل. شعوره بالراحة نتيجة اتكائه على ملك عظيم جعله يقدم على تصرفات يجب ألا يقدم عليها.

ذهب الجاويش بهرام لتبليغه بجلوس السلطان سليمان، وتحصيل الضريبة المفروضة عليه، فأهانه وقتله، وهذه كانت القطرة التي طفح فيها الكيل. في الحقيقة، إن المجريين قد أقدموا قبل ذلك على تجاوزات تستوجب الحرب. أثناء حملة السلطان سليم الجبار إلى مصر، هاجم الجيش المجري زفورنيك، وقتل مسؤول السنجق مصطفى بيك. ونعرف بأن السلطان سليم الجبار مات في نواحي تشورلو وهو ذاهب في حملة لا نعرف هدفها. لعل تلك الحملة كانت موجهة إلى المجر التي تقدم على استفزازات دائمة.

عند اتخاذ قرار الحملة انطلقت وحدات بالي بيك سيد سادة البوسنة ووحدات الريس دانيشمند كقوات طليعة إلى مشارف بلغراد. الصدر الأعظم محمد باشا بيري تقدم مع فرسان الجباية ذوي المخصصات إلى بلغراد مباشرة، وفي هذه الأثناء تقدمت البحرية العثمانية من البحر الأسود عبر نهر الدانوب.

لم تكن بلغراد مدينة يسهل السيطرة عليها، لأن نهرين يلفانها من طرفين. نهر سافا من طرف، والدانوب من طرف آخر يحولان دون الدخول إلى المدينة.

كأن المدينة محاطة بخندق عظيم مليء بالماء. والمكان الوحيد المتصل باليابسة له أسوار هائلة.

يغادر السلطان سليمان اسطنبول بالجيش الأساسي في أواسط أيار/ مايو. قوات الوزير الثالث أحمد باشا المتقدمة أمام جيش القانوني تأخذ قلعة شاباتس (بويوردلان). في الفترة ذاتها كان ابن عمة القانوني خسرف بيك قد سيطر على زيمون. أما مصطفى باشا الراعي فقد أخذ سلانكامين. أي أن الطرق التي كان يأتي منها الإمداد في زمن الفاتح وأعاقت الفتح كلها قد أغلقت. بدأت قوات محمد باشا بيري بمحاصرة بلغراد. بعد شهر تقريباً، أي في 8 آب/ أغسطس 1521 تمت



قلعة بلغراد

السيطرة على القلعة الخارجية، وبعد أحد عشر يوماً أُسْقِطت القلعة الداخلية. أي أن بلغراد دخلت الهيمنة العثمانية في 29 آب/ أغسطس. هكذا كُسر قفل أوروبا الوسطى. بعدئذ ستكون طرق روما المقدسة مفتوحة أمام العثمانيين.

انسحب جزء من سكان بلغراد المجريين إلى أطراف بودين، ونقل صرب المدينة إلى اسطنبول، وأسكنوا في نواحي يدي قولة. أحب المجتمع العثماني بلغراد كثيراً إلى درجة أنه أطلق اسمها على أحد أسوار اسطنبول البرية، أي أنه الباب المفتوح على بلغراد.

أنشأ السلطان سليمان جامعاً في بلغراد كرمز لفتحها. أطلق عليه اسم الجامع ذي الراية، ومازال قائماً إلى اليوم في بلغراد.

بعد فتح بلغراد حدثت تنقلات وترقيات مهمة. عُيّن ابن عمة سليمان مسؤول سنجق البوسنة، وبالي بيك حاكماً لبلغراد، وجلب إلى البوسنة أيضاً الغازي خسرف بيك حاكم سنجق وهو ابن عمة آخر أيضاً لسليمان. إذا مر طريقكم من سراييفو عاصمة البوسنة ذات يوم، فإن جامع خسرف بيغوفا (بيك)



الذي سترونه في وسط المدينة بناه أحد كبار هذه الدولة. كما أن مدرسة الخاتون سلجوق المقابلة تماماً لهذا الجامع، بنتها والدة خسرف بيك عمة القانوني، وهي أخت السلطان سليم الجبار.

ما يلفت انتباهنا هنا أن أقرباء السلطان سليمان لم يحظوا بميزة. في الحقيقة، إن هذه نتيجة تقاليد الدولة العثمانية، أي أن القرب من الإدارة يشبه ارتداء قميص من نار. دعكم من الجلوس في بيت العرش للمتعة، فهم مضطرون للركض في كثير من أمكنة العالم بتغير سناجقهم باستمرار ليكونوا قوات طليعية على طول الحدود. قدموا أعمالاً في الأمكنة التي ذهبوا إليها، وعاشوا حياة تليق بالأسرة المالكة.



جامع خسرف بيغوفا (بيك) الذي كلف الغازي خسرف بيك المعمار سنان ببنائه عام 1531، والرسم يعود إلى العقد الأول من القرن العشرين



تنی را که سپر بود بهیچ پای
سری را که تن بود بیگفت وای

کسی کو به تن داشت پروای جان
همو است مرگ از خدا از زمان



الجزيرة التي لم يستطع الفاتح أخذها رودس

جزيرة إستراتيجية تقع في نقطة اتصال بحري إيجة والبحر المتوسط، وهي أكبر مجموعة الجزر المؤلفة من اثنتي عشرة جزيرة. على مدى التاريخ من يريد أن يسيطر على التجارة البحرية يحاول السيطرة على هذه الجزيرة، إضافة إلى أنها نقطة طريق التجارة بين اسطنبول ومصر. فتحها الخليفة معاوية في العصر الأموي (672)، ولكن إمبراطورية روما الشرقية استردتها بعد فترة. كان فرسان عكا (فرسان القديس يوحنا) من أهم فرق الصليبيين المتمركزين في الشرق الأوسط، وباسترداد صلاح الدين القدس عام 1174 فقدت كثيراً من الدماء، واضطر هؤلاء لترك عكا عندما فتحها المماليك. كانت القاعدة الجديدة لفرسان القديس يوحنا هي جزيرة رودس. كان الفرسان في هذه النقطة المفتاحية يزعجون العثمانيين بضربهم تجارة

البحر المتوسط، وشقهم المياه العثمانية. سيطر السلطان محمد الفاتح على كثير من جزر إيجة والجزر الإيطالية، وحاصر رودس ولكنه لم يستطع أخذها. سور وأبراج هذه الجزيرة المحكمة تدافع عنها بشكل جيد جداً.

لعب فرسانها دوراً مؤثراً في الصراع بين بيازيد وجم ابني السلطان محمد الفاتح. عندما خسر السلطان جم الصراع ضد أخيه، نزل على الساحل الجنوبي من الأناضول، واتفق مع فرسان رودس على أن ينتقل مع جنوده إلى منطقة تراكيا. ولكنهم لم يلتزموا بوعدهم، وبعد أن ركب السفينة أسروه، وأهدوه لملك فرنسا.

أثناء فتح مصر بدأ هذا الحيز في المياه الإقليمية الإسلامية يغدو أكثر إزعاجاً. لأن الطريق التجاري بين اسطنبول ومصر يمر منه. كان الفرسان كثيراً



مشهدين خارجي وداخلي لخزانات المياه التي أنشأها القانوني من أجل حملة رودس

ما يقطعون الطريق، ويهاجمون سفن التجارة والحج. نعرف أن السلطان سليم الجبار استعد من أجل محاصرة رودس، ولكن عمره لم يساعده على تنفيذ الأمر.

بسبب قربها من الأراضي العثمانية، كان الفرسان يتدخلون في الفعاليات المستهدفة تخريب استقرار الدولة الداخلي، ويدعمون تمردات الفترة الأولى من عهد السلطان سليمان وعلى رأسها تمرد جانبردي غزالي.

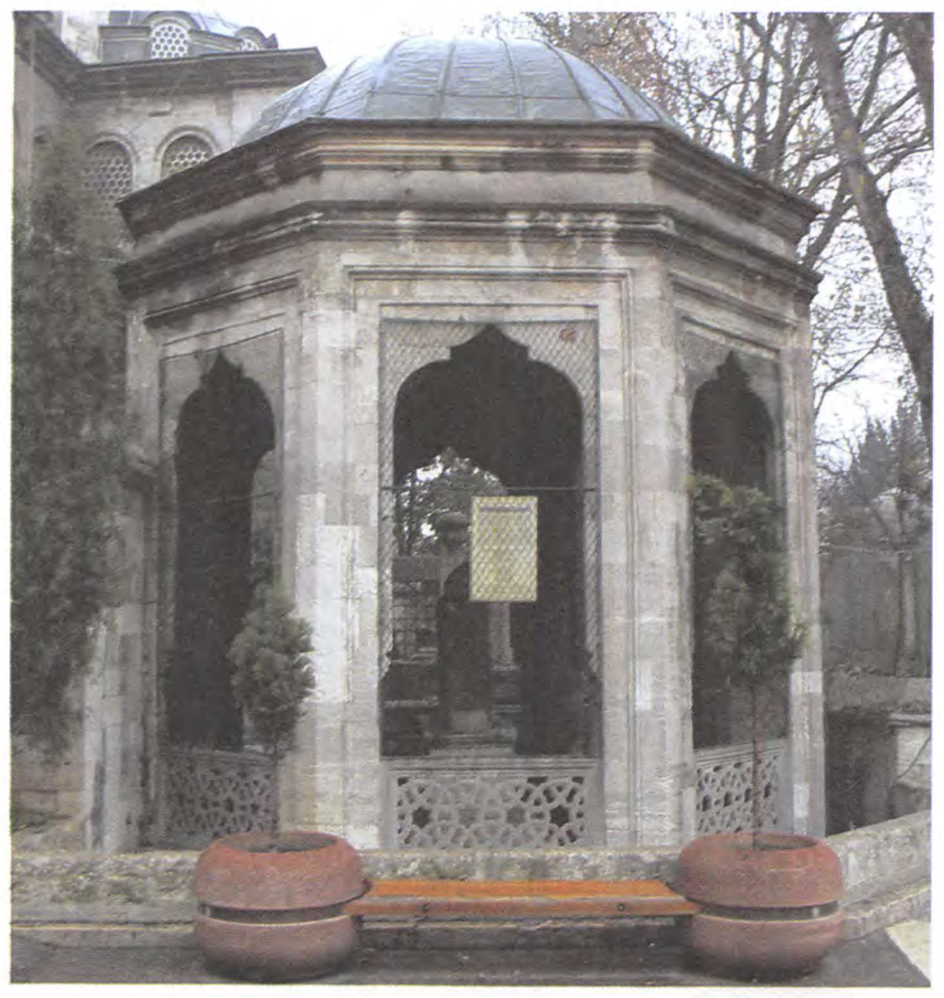
بعد حملة بلغراد التي قام بها السلطان سليمان القانوني في السنة الأولى لجلوسه على العرش، بدأ في السنة الثانية مباشرة بالتحضير للحملة الثانية. الهدف هو فتح رودس. يجب الاستعداد بشكل جدي من أجل السيطرة على هذا المكان الذي لم يستطع الفاتح أخذه. تصل أخبار تحضيرات السلطان سليمان إلى آذان فرسان رودس، ويبدؤون العمل الحثيث على تقوية الدفاع وتخزين المؤن.

عين على رأس الحملة الوزير الثاني مصطفى باشا. وكان قائد الأسطول الريس مصلح الدين كرد أوغلو. غادر الريس مصلح الدين اسطنبول على رأس الأسطول في 4 حزيران/ يونيو، ووصل إلى قرب رودس في 24 منه، أما الجيش البري فقد انطلق بقيادة السلطان سليمان في 16 من الشهر نفسه. وشارك في الحملة هذه المرة على غير العادة شيخ الإسلام علي جمالي أفندي زنبيللي.





تقع رودس في مكان استراتيجي جداً، ومن يمسك بها تكون بيده الأفضلية. وبالطبع فإن السيطرة عليها ليست سهلة بسبب موقعها. أرسل السلطان سليمان جيوشاً جرارة من أجل هذا الحصار. وفكر بحاجات هذه الجيوش بشكل دقيق، واتخذ استعدادات غاية في الدقة من أجل هذا الأمر. ما نراه اليوم مثلاً بين موغلا ومرمريس وميليس على جانب الطريق بكثافة من خزانات مياه على شكل مخروطي، فقد أنشئت من أجل تلبية حاجة الجيش الذاهب إلى رودس. ولهذه المستودعات المائية خصوصية غريبة، فهي تحافظ

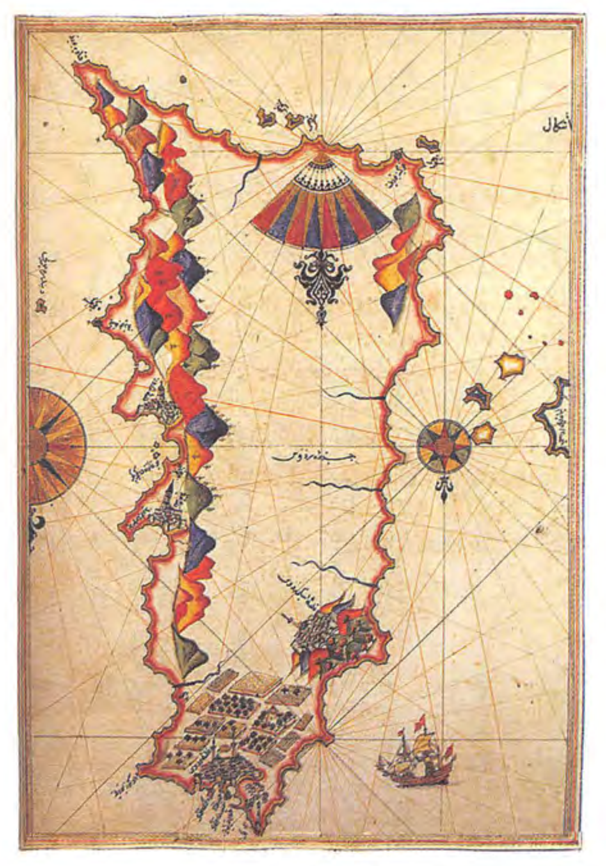


مشهد خارجي لتربة مصطفى باشا بولاق

على الماء بشكل جيد جداً، وتجمع مياه المطر بشكل صحي في آن واحد. المطر الساقط على قبة الخزان يسيل إلى الأطراف، ويُجرّى إلى الداخل، ويحافظ على الماء.

من التحضيرات التي أعدها السلطان سليمان من أجل حملة رودس إنشاء قلعة تكون قاعدة. قلعة مرمريس القائمة حتى اليوم هي القلعة التي بنيت لتكون مخفراً متقدماً.

ما يخطر ببالنا هنا، ما هو سلوك سلطان السلاطين وموقفه أثناء الحملة؟ بماذا كانت السلطانة حفصة الوالدة تفكر عند وداعها ابنها لحملة تستغرق أكثر



جزيرة رودس

من سنة؟ هل تفكر بأن القصر سيبقى لها في غياب رأس السلطة؟ أم أنها كانت تكفكف الدموع خلف ابنها الذاهب إلى الحرب وتدعو له؟ ماذا تفعل المرأة الأناضولية في موقف كهذا؟ من الطبيعي أن تبكي الأم عندما ترسل ابنها إلى الحرب، وتدعو له. ولكنها لا تفعل هذا فقط. إذا كان بين يديها بضعة دراهم تعطيها لابنها، وتقول له: «استخدم هذه في عمل خير» ألم تفعل الخاتون حفصة هذا؟ طبعاً فعلته. إذا وقع طريقكم على مرمريس، وشاهدتم قلعتها التي بناها القانوني من أجل فتح رودس، سترون بجوار القلعة مباشرة نزل القوافل الذي أنشأته الخاتون حفصة ليقيم فيه الجنود، ولا تنسوا أن تشاهدوه بدقة. وستقرؤون على اللوحة المجاورة للبناء التاريخي، وتحت عنوان نزل قوافل الخاتون حفصة: «بني من أجل الإقامة أثناء حملة رودس».

بالطبع ثمة ما يحزننا هنا. لم تبن الخاتون حفص هذا البناء لكي يشرب أحفادها فيه المشروب حتى الصباح ويثملون. ما أسوأنا من أحفاد، ألسنا كذلك؟ أنزلنا قيمة هؤلاء الأشخاص إلى تحت الأرض عبر المسلسلات والأفلام المعدة اعتماداً على المواقف المسبقة والكتابات الأوروبية، إضافة إلى ذلك لا نتردد باستخدام ما بنوه من أجل الخير لأهداف سيئة، فنحولها إلى بارات وملاهٍ، ونسميها «بار السلطانة». أحيل هذه القضية لضمائركم.

مصطفى باشا المكلف بحصار رودس مدفون اليوم في تربة بناها المعماري سنان في جامع السلطان أيوب أمام الجدار القبلي، وعلى طرف فسحة البركة ذات النافورة. كان باشا ماهراً بالتنظيم، وقد وضع قوات في مختلف الأمكنة التي من المحتمل أن يأتي منها إمداد إلى العدو في الجزيرة الكبيرة جداً. أحاط أسوار المدينة بالمدافع. من جهة أخرى فقد نزل السلطان سليمان إلى الجزيرة في 28 تموز/ يوليو بعد أن وصل إلى مرمريس.

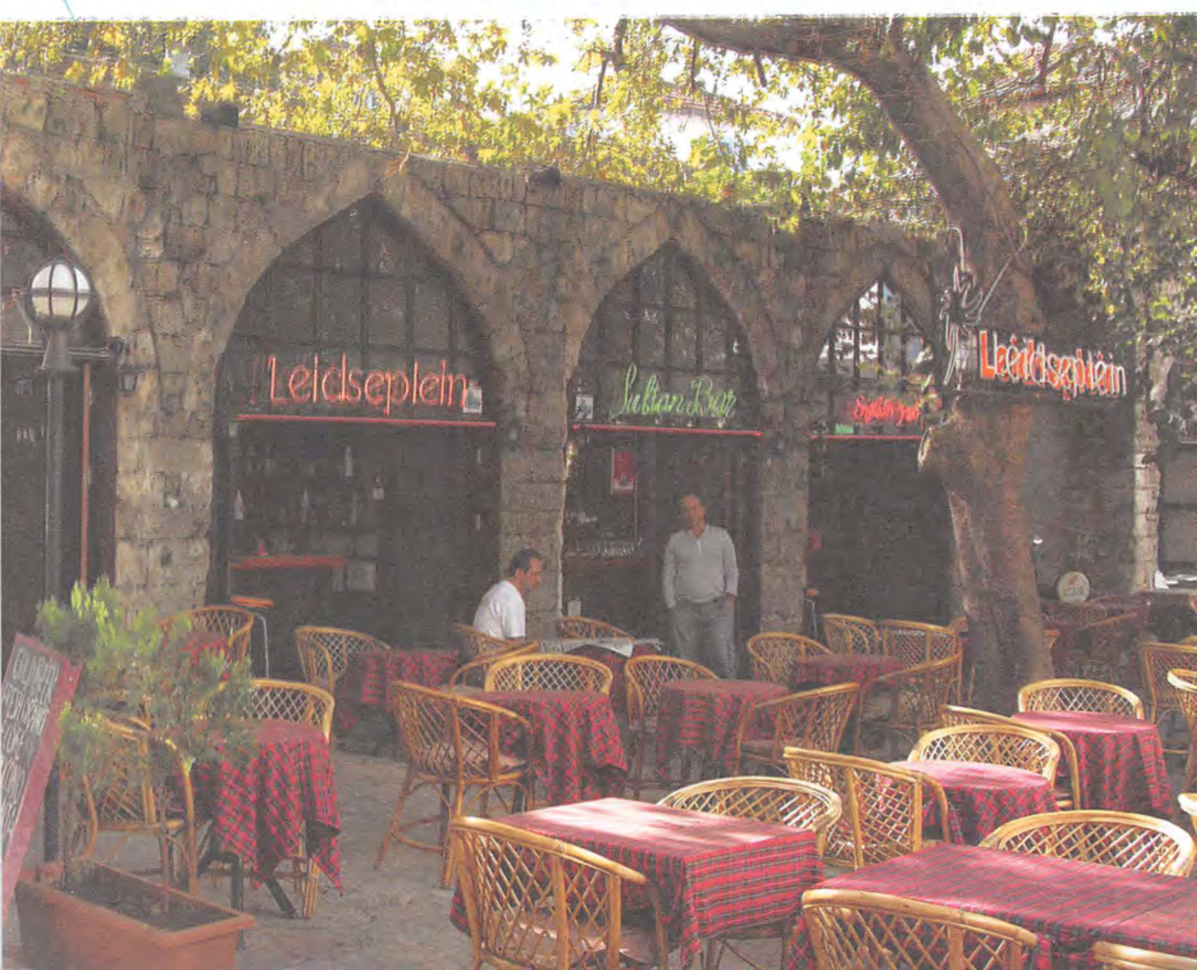
مقابل استعدادات العثمانيين لهذا الفتح، فقد اتخذ الفرسان أيضاً احتياطاتهم. أغلق مدخل الميناء بالجنزير، وأغرقت بعض السفن للحيلولة دون الدخول إلى الميناء.


قلعة مرمريس التي أمر السلطان سليمان القانوني ببنائها

وكما تقضي العادة، قدم عرض الاستسلام. وإثر الرفض بدأ القصف المدفعي. ولم يتحقق أي تقدم من خلال القتال الدائر طوال شهر آب/ أغسطس. كانت الأسوار تُصلح بسرعة، وتصد الأنفاق بأنفاق مقابلة، وتفشل الهجمات العثمانية من تحت الأرض. في هذه الأثناء كان القباطنة العثمانيون الآخرون مشغولون بفتح الجزر المجاورة لرودس. في الأيام اللاحقة جاء خبر استسلام جزيرتي إليكي وإنجيرلي. ومع سقوط هذه الجزر واحدة تلو الأخرى، سقطت أيضاً بوضروم آخر قلعة مسيحية في الأناضول.

من أهداف حفر الأنفاق هو الوصول إلى أساسات الأسوار، وتفجيرها وتدميرها. وقد أصيب البرج الإنكليزي من قلعة رودس العصية إصابة بليغة بحركة من هذا النوع، وقتل في هذا التفجير حامل راية قائد الفرسان الملقب «الأستاذ الأعظم»، وضباط المدفعية التابعين له. وإذا كانت قد تمت السيطرة

نُزل قوافل الخاتون حفصة المستخدم اليوم باراً




المدرسة السليمانية في جزيرة رودس

على البرج الإسباني بعد البرج الإنكليزي، فقد استعادوه بعد فترة قصيرة. كانت القلعة حصينة إلى درجة أن العثمانيين قدموا آلاف الشهداء في كل هجوم. فلم يكن من في الداخل يستسلمون، ولم يكن الشجعان العثمانيون المؤمنون يملّون.

أثناء الحصار أرسل سيد سادة مصر خيرباي صهره قيتباي برفقة سفن محملة بالمؤن. ويُعرف من هذين الاسمين بأنهما مملوكيان، وقادة في الدولة المملوكية، وأعلنا الولاء للدولة العثمانية بعد فتح مصر. أي أن حملة الجبار على مصر لم تكن إلغائية بل حاضنة، قامت بجمع المجتمعات الشقيقة في بوتقة واحدة.

من أكثر المشاهد المحزنة في حصار رودس تلك التي حدثت بعد كشف الجواسيس العثمانيين داخل القلعة. تم تحديد رجل وثلاث نساء جواسيس للعثمانيين يبلغونهم بالأمكنة الإستراتيجية بواسطة المشاعل، فدلوهم عن الأسوار، وقطعوا أعضاءهم من أجل أن يعطوا أسماء بقية الجواسيس العثمانيين الذين في القلعة. وسيستشهد هؤلاء ببطولة من دون إعطاء أي اسم من أسماء الجواسيس الآخرين.

الثامن عشر من كانون الأول/ ديسمبر كان يوماً حرجاً. في ذلك اليوم، شن هجوم على كافة الجبهات في ذلك اليوم. فتحت الأسوار. اضطر المدافعون عن الأسوار للانسحاب إلى الداخل. من الواضح أنهم لن يستطيعوا الدفاع عن المدينة. نوقشت شروط الاستسلام في 20 كانون الأول/ ديسمبر، وتقرر تسليم القلعة. سمح لهم بحمل أسلحتهم الخفيفة والمغادرة بالسفن. سيكون هناك 4000 إنكشاري لتأمين القلعة، ويبقى الجيش في الخارج.

التقى السلطان سليمان بأستاذ الفرسان الأعظم فاليري دي آيسل، وعزّاه، وحتى دعاه إلى الإسلام. تأثر السلطان سليمان كثيراً بحالة هذا الرجل المهزومة والحزينة، فقال لمن حوله: «لا أنكر حزني على إخراج هذا الرجل من بيته». وبهذا يظهر بأنه صاحب شخصية مشفقة حتى على عدوه.

مع هذا الفتح انتقلت الجزر الاثنتا عشرة وبوضروم إلى العثمانيين. تمت

السيطرة على هذه الجزيرة التي تعتبر من أصعب الأماكن الأوروبية التي يمكن السيطرة عليها، ولكن سقط في هذه العملية 18 ألف شهيد تقريباً. تم تجاوز هذا العائق الأصعب في أوروبا بعد بلغراد، وقد انتهت هذه الدولة التي تعتبر آخر الدول المؤسسة في سبيل الحروب الصليبية، وأدرك مؤسسو الوحدة الصليبية الأوروبية حجم القوة التي تواجههم جيداً، وكان هذا سبباً لتقييم حساباتهم بشكل أفضل.

دخل السلطان سليمان المدينة في 29 كانون الأول/ ديسمبر، وصلى جمعة ذلك الأسبوع في كنيسة القديس يوحنا بعد تحويلها إلى جامع. كان إمام صلاة الجمعة تلك علي جمالي أفندي المشارك في الحملة. وكما هو معروف فإن الجزيرة سقطت في رأس السنة. وفي أثناء أداء البابا هادريانوس الثاني القداس في كنيسة القديس بيير في روما سقطت حصاة من سقف الكنيسة على قدمه. وفسرت الكنيسة هذه الحادثة بأن رودس قد سقطت.

خصص السلطان سليمان مبالغ ضخمة من أجل إعمار الجزيرة، وكلف رجال دولة مهمين من اجل متابعة هذا الأمر. يوجد اليوم في جزيرة رودس كثير من آثار رجال الدولة العثمانية وعلى رأسهم السلطان سليمان والسلطانة حُرّم. مازالت مدرسة القانوني تقدم العلم للطلاب على الرغم من مرور كل هذه القرون. أمرت السلطانة حُرّم ببناء إحدى كلياتها المشهورة هناك أيضاً. مع الأسف أن أبواب الخير هذه المنتشرة في اسطنبول ومكة والقدس لم يبق منها إلا القليل جداً في رودس. إضافة إلى هذا، أعفي سكان رودس من الضريبة مدة ثلاث سنوات.

تسمى عملية البناء التي يجريها العثمانيون بعد الفتح «إحياءً» أو «بث البهجة». أي سيؤثر على الناس هناك بعد الفتح، ويجعلونهم يقولون: «كان الحكام السابقون يستغلوننا، ولكن هؤلاء يأتون بالخدمات إلى عند أقدمنا». ويرونهم الفرق بالممارسة بين العقيدتين علهم يجدون العنوان الصواب.





صدارة إبراهيم باشا

انطلق السلطان سليمان في حملة رودس من اسطنبول بالبر، وبعد الفتح عاد إلى بيت العرش من الطريق نفسه. تصله البشارة في طريق العودة بأنه رُزق بابنة. وكما عيش فرح مزدوج إثر وصوله خبر ولادة ابنه الأمير محمد من السلطانة حُرّم بعد فتحه قلعة بلغراد، عيش هذه المرة أيضاً فرح مزدوج بعد الفتح.



شاخ كثيراً محمد باشا بيري أمانة السلطان سيلم خان الوالد لدى القانوني. بذل جهوداً جبارة في حملة رودس، ولكن السلطان سليمان حسب حساب الحملات التالية، وما يمكن أن تتطلبه من عناء، وتوصل إلى أن الخيار الأصوب هو صدر أعظم شاب. أحيل هذا الإنسان العظيم الذي أعطى سنين حياته للدولة إلى التقاعد في 27 حزيران/ يونيو 1523. انزوى محمد باشا بيري في مزرعته في سيليفري، وتوفي هناك، ودفن في حديقة الكلية التي بناها فيها.

IBRAIM PASCIA VISIR AGHA
DI GIANNIZZARI

اسـم الشـخص الـذي سـيعين بعـد إحالـة محمـد باشـا بيـري إلـى التقاعـد مدهش إلى أبعد الحدود. إنه إبراهيم آغا أقـدم موظفي الغرفة الخاصة أهم أقسـام القصـر، ويعتبر العمل فيها بمثابة تدريب لطلاب السـنة الأخيرة من مدرسـة قصر طوب قابِ. أي أنه إبراهيم باشا المقبول والذي سيحظى بالشهرة مستقبلاً.

حاولـت التعريـج على الطريقة التي حُـوِّل فيها إبراهيم باشـا دينيـاً، وقُبل في القصـر في الفصل المعنون «أمير مانيسـا مدينة الأمراء»، فقد جُلب من بارغا المجاورة لجزيرة كورفو إلى مانيسـا، وتبنته امرأة، وربته. لفت نظر الأمير سليمان حين كان حاكم سنجق مانيسا، وأدخله في تعليم القصر.

فـي الحقيقـة، إن إبراهيـم باشـا أذكى صدر أعظم جاء إلـى الإدارة العثمانية وأكثرهم حنكة سياسـية. حاز تقدير الجميع بعلمه وفنه منذ كان صغيراً. يسـتطيع تكلم التركية والفارسية والعربية والرومية والإيطالية والكرواتية براحة. إضافة إلى عـزف الكمـان الـذي أثر بالأمير سـليمان، فقد حقق تقدماً في ضروب أخرى من الفنون. يبحث جيداً في التاريخ، ولديه موهبة فذة بتطبيق الدروس المستنبطة منه علـى الحاضـر. كان داهية في السياسـة بكل مـا تعنيه الكلمة، ومراقباً حثيثاً لدول عصـره ومواطـن قوتها وضعفها. يسـقط السـفير الأجنبي القادم إليـه أمامه عاجزاً من خلال معلوماته المخابراتية الواسـعة. من يعتقد بأنه تحزب مع نسـاء القصر، فهو صاحب فكر ضحل لا يجعله يسـتطيع فهم كيف كان يقلب قادة العالم بين أصابعه كما يقلب حبات السبّحة.

استهجنت بعض الأوساط انتقال إبراهيم باشا من رئاسة الغرفة الخاصة إلى الصـدارة. لأن الإداري يجـب أن يمضـي فتـرة فـي الريف ليكتسـب خبرة الإدارة بعـد الغرفـة الخاصـة، وإذا وجد ناجحـاً بعد ذلك يبدأ من منصب وزير ثالث في

القصر ويتدرج إلى الصدارة. ولكنه سيتجاوز هذه الدرجات، ويعيّن بموقع الصدر الأعظم وهو في الثامنة والعشرين من عمره. وهو أحد صدرين أعظمين عينا شابين. (الثاني أحمد باشا فاضل)

يجب ربط هذا التعيين غير العادي بموهبة السلطان سليمان بجمع المواهب من حوله. لأنه كان قائداً نادراً استطاع الاستفادة من المواهب التي تركها له والده، وفتح الباب لمواهب جديدة كثيرة. لم يكن إبراهيم باشا وحده في محيطه، بل جمع حوله كثيرين من أمثال خير الدين بربروس الذي حوّله من قرصان إلى باشا، وسنان العظيم الذي نقله من الجندية إلى كبير المعماريين الخاصين، وأبو السعود أفندي الذي رقاه من قاض في اسطنبول إلى شيخ إسلام مشكلاً طاقماً طبع العالم بطابعه.

في الحقيقة، إن إبراهيم باشا لن يسوّد وجه السلطان سليمان، وسيملأ عينه بإجراءاته التي اتخذها في كل من تمرد أحمد باشا الخائن وغزالي جانبردي. وخاصة تمرد قلندر جلبي الذي هدد وحدة العثمانيين، وغدا من الصعب إيقافه، فقد ذوّب إبراهيم باشا قوته، وأزال أثره بسهولة.

كانت بقايا المماليك في مصر التي فتحها السلطان سليم الجبار تسبب مشاكل لا تهدأ. الأزمات الاقتصادية ومخاوف الناس تسبب مشاكل دائمة للدولة، وإبراهيم باشا هو الذي سيحل القضية المصرية. ذهب إبراهيم باشا إلى مصر بعد تمرد أحمد باشا الخائن، ووضع هناك نظاماً إدارياً واقتصادياً يسيّر البلد حتى انفصال مصر عن الدولة العثمانية دون ظهور أي مشكلة.

قبل مرور سنة على تسلم إبراهيم باشا الصدارة، شاعت الأخبار في أربع أرجاء البلد بأنه سيكون صهراً للقصر. وحقيقة تزوج ابنة السلطان سليم خان الجبار، وأخت السلطان سليمان خديجة. ويقام حفل عرس في ساحة الخيل (أصبحت فيما بعد ساحة السلطان أحمد) أمام قصر إبراهيم باشا لأيام. يدون إسماعيل حامي دانشمند صفحات هذا العرس بكل تفاصيلها. يروي بأن العرس بدأ في 22 أيار/ مايو، واستمر 15 يوماً، وكلف أياس باشا بأن يكون مرافق العريس، وكان السلطان ضيف شرف في هذا العرس، وقد استضيف في خيمة سلطانية نصبت في الساحة.



قصر إبراهيم باشا

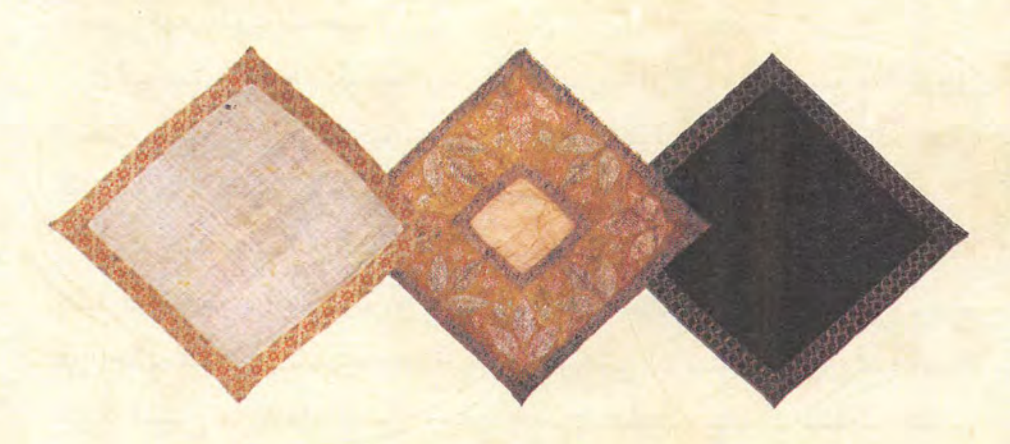
يتحدث تاريخ صولاق زادة عن حادثة مدهشة حدثت أثناء العرس. تقول الرواية، بأن البهرجة التي حدثت في عرس إبراهيم باشا لم يشهد لها مثيلاً حتى ذلك اليوم. وقد جلب الثلج من جبل أولو ملفوفاً باللباد في حر ذلك الصيف، وحفر وسطه وقدم فيه الشراب للضيوف. يرى هذا السلطان سليمان، فيسأل صدره الأعظم: «هل عرسك مبهرجاً أكثر أم احتفالات الختان التي نعدها نحن؟»

السؤال خطير جداً، لأنه يؤدي إلى طريق مسدود. يظهر جلياً بأن عرس إبراهيم باشا أكثر بهرجة. ولكن من الوقاحة قول هذا. وإذا قال لا، احتفالاتكم سيكون كذباً ورياء ومداهنة. ولكن إبراهيم باشا داهية لا تمارى كما ذكرنا. لا يتأخر بالجواب: «سلطاني، عرسنا أكثر بهرجة بالتأكيد، لأن ضيف الشرف في

احتفالاتكم هو أنا صدر أعظم الدولة العلية، أما ضيف شرف عرسنا فهو أنتم سلطان هذه الدولة شخصياً».

لم يبق للسلطان سليمان ما يقوله. قدرت الإدارة والمجتمع هذا الرجل لسنوات طويلة. ولكنكم كما تتوقعون، بقدر ما يطول الشخص في موقع رفيع، بقدر ما يكثر أعداؤه. وسيكون هناك اتهامات كثيرة لإبراهيم باشا.

مثلاً قضية التماثيل المجلوبة إثر معركة موهاج الشهيرة. في الحقيقة، إن هذا تقليد دولة. عندما تفتح دولة أو مدينة يجلب منها غنائم إلى بيت العرش، وتوضع في إحدى ساحات المدينة، وتعرض لأيام، ويمكن أن تمتد لشهور. وهذه أفضل طريقة لشرح ما حدث للناس. ومثلما جلب السلطان سليمان شمعدانات من قصر المجر بعد عودته من الحملة عام 1541، وأمر بوضعها في جامع أيا صوفيا (مازالت موضوعة على طرفي المحراب في أيا صوفيا)، فقد جلب معه عام 1526 غنائم كثيرة ومنها التماثيل، وعرضها في الساحة. ولكن أعداء إبراهيم باشا تحدثوا عن الأمر كأنه تصرف إبراهيم باشا الشخصي، وحاولوا تشويه سمعته بالقول: «جاء إبراهيم فكسر الأصنام، وجاء إبراهيم فنصب الأصنام». حسنٌ، لماذا يعدم رجل بهذه الموهبة بعد العودة من حملة إيران عام 1532؟ لندع هذا لصفحات التاريخ اللاحقة، ولنتحدث عن ولادة الأمير سليم ووالدته السلطانة خُرّم زوجة السلطان سليمان.



المنديل الأيسر هو للسلطانة حُرّم

لماذا السلطانة حُرّم محظية؟

لا يمكن أن نتحدث عن السلطان سليمان وعصره دون الحديث عن زوجته السلطانة حُرَّم. تعالوا لنتحدث قليلاً عن السلطانة حُرّم موضوع النقاش الطويل باعتبارها إحدى شخصيات ذلك العصر المهمة. وأثناء الحديث دعونا ننسى أننا لا نعرف الكثير عن نساء العثمانيين. بالحق، لماذا لا نعرف الكثير عن نساء العثمانيين؟ هل السبب هو أنهن يعشن خلف الحواجز؟ أم لأنهن لا قيمة لهن ويوضعن في المستوى الثاني؟ طبعاً لا شيء من هذا. أنتم ستجيبون بعملية تمثل أدوار بسيطة. هل تتحدث نساء اليوم في جلساتهن النسائية عن أزواجهن؟ وينتقدنهم أيضاً؟ بالتأكيد، وعلى أعلى المستويات. حسنٌ، هل يتحدث الرجال في المقاهي والجلسات الرجالية عن نسائهم؟ نهائياً! لماذا؟ هل لأنهم لا يقدرونهن؟ لابد أننا جميعاً ننتبه إلى أن السؤال غير معقول. جميعكم تفهمون





المرأة العثمانية في القصر أثناء تعليمها في الدرس

هذا المثال الذي ضربناه، لأنكم أبناء هذه الأرض. فهمتم عاداتنا وتقاليدنا وآداب معاشرتنا. حسنٌ، هل يمكن للأجنبي أن يفهم هذا؟ عندما يلتقي أمريكي بآخر أو أوربي بآخر يقول له بكل راحة: «سلم لي على زوجتك»، ولكن هل هذا ممكن في بلدنا؟ هنا يجب أن نبحث بالأسباب المؤدية إلى نقل الأجنبي لنا ومفاهيم شخصيتنا المتعلقة بماضينا.

هنا يكمن سبب معرفتهم كل شيء حول السلاطين العثمانيين وصولاً إلى عدد الشامات في أجسادهم تقريباً، ولكن أشياءً قليلة جداً يعرفونها عن زوجاتهم. حسنٌ، ما الذي نعرفه حول نساء القصر العثماني؟ نعرف منجزاتهن ورسائلهن

وشِعرهن، كما أن أوقافهن أيضاً معروفة. هذا كل شيء. أي أن كل ما كُتب حولهن حتى اليوم لا يتعدى كونه خيالاً وفرضياتٍ مع الأسف. تعالوا لنعرف السلطانة حُرّم وفق المعطيات الحقيقية المتوفرة بين أيدينا.

هناك فرضيات كثيرة حول أصل السلطانة حُرّم. يحكى أنها روسية وأوكرانية وبولونية وغيرها. ولكن القصر العثماني لا يدوّن تبعية أي امرأة تُدخل إلى الحرم. وينطبق هذا حتى على المحوّل دينهم وأصبحوا باشوات وآباؤهم ينتمون إلى دين آخر وقومية أخرى، إذ يخفى اسم الأب، ويسدل عليه بستارة اسم عبد الله.

بحسب ليزلي بيرس المؤرخة الأكثر موضوعية بتناول الحرم، فإن حُرّم من غرب أوكرانيا. تسمى ألكسندرا، أو روزا لأن شعرها أحمر، أو روكسالانا. السبب الأهم الذي يثير الاعتقاد بأنها بولونية هو أن الجميع في نواحي روغاتينو شعرهم أحمر. يخطر بالبال بأن جلبها إلى القصر من تلك المنطقة تم على يد الوحدات التترية المرتبطة بالعثمانيين. منذ عهد السلطان محمد الفاتح والتتار يقومون بهجمات متكررة على تلك الأرض باسم العثمانيين. وزوجة السلطان سليم الجبار الخاتون حفصة تترية من القرم. وكان حماه منغلي غيراي هو خان التتار. أي أنه ليس هناك أكثر طبيعية من تحويل فتاة دينياً في ذلك القصر، وتربيتها، وإرسالها إلى القصر العثماني.

مدرسة القصر العثماني للبنات هي التي أسمتها حُرّم. لأنه كان يطلق على كل فتاة اسم بحسب وضعها وأدبها وموقفها. ولأنها ضاحكة الوجه دائماً وقريبة من القلب، أطلق عليها هذا الاسم الذي يحمل هذا المعنى.

زواجها من السلطان سليمان تم بعد جلوسه على العرش بفترة قصيرة. ما لدينا اليوم من رسائل يبين الدرجة الثقافية التي وصلت إليها السلطانة حرم، وما كتبته من شعر الديوان يثبت التعليم العالي الذي تلقته. لا يمكن التفكير بأن الأمر على غير هذا النحو. لأنه لا يمكن للسلطان سليم الجبار وزوجته الخاتون حفصة أن يكونا على درجة من السذاجة تجعلهما يزوجان ابنهما الوحيد وارث العرش من فتاة ظهرت لهم باليانصيب. يحاول الآباء والأمهات ما استطعن اليوم التدخل بزيجات



يؤكل الطعام في القصر وفي المجتمع على الأرض

أولادهن، فلا يمكن أن يكون الأمر على غير هذا النحو في تلك الأيام.

في الحقيقة، إن السلطانة حُرّم زوجة واعية إلى أبعد الحدود وذكية ومتعلمة تعليماً رفيعاً. الخبراء الذين حللوا شِعْرها اليوم يجدونه أعلى سوية من شعر السلطان سليمان القانوني الموقع باسم محبي. كيف لشخص تعلم اللغة فيما بعد أن يكون أعلى شاعرية من السلطان الذي يكتب الشعر بلغته الأم؟ هل يستطيع الذين يتكلمون لغة أجنبية بشكل رائع أن يكتبوا رباعية شعر؟ هذا يعني أن هؤلاء الأشخاص المحولين دينياً يؤخذون بعمر صغير جداً، ويوضعون لدى عائلة مسلمة، ثم يرسلون إلى مدرسة القصر في القرم أو أدرنة، وفي حال إظهارهم مقدرة عالية، يخضعون للتعليم الأعلى في قصر طوبِ قابِ.

كل ما يحكى عن قامتها وجسمها، ويُرسم لها لا يتجاوز كونه خيالاً. في عصر لا يمكن فيه رؤية شعرة من المرأة، وحتى عند استقبال السلاطين للملكات الأجنبيات يفرض عليهن التستر (الملكة المجرية إيزابيل)، فمن الجهل تصويرها بلباس يكشف الصدر والظهر في الخارج.

عندما قبلت في القصر، وتمت الموافقة على اعتبارها زوجة لائقة بالسلطان سليمان، كانت السلطانة الوالدة الخاتون حفصة وزوجة السلطان الأولى الخاتون غولبهار مهدفيران تقيمان في القصر العتيق (القصر القديم في بيازيد). أريد أن أؤكد بأنه ليس ثمة سيدة من عائلة سلطان السلاطين قد عاشت حتى ذلك اليوم في قصر طوبِ قابِ. وبقي الأمر على هذا النحو حتى شب حريق في القصر العتيق عام 1541، ونقلت أجنحة الزوجات من هناك إلى طوب قابِ للضرورة.

ليس ثمة دليل ولو صغير على صحة كلام من يقول اليوم بأن السلطانة حُرّم ضد النظام. لم ترسل سوى رسالة



النساء في برنامجهن الأسبوعي إلى الحمام حاملات الصرر

مباركة لملك بولونيا، ولابنه فيما بعد عندما أصبح ملكاً بعلم زوجها والإدارة. ويقول برنارد بروماج عن السلطانة حُرّم: «حاولت الوصول إلى أقصى ديار المشركين مغلبة الهلال على الصليب».

لا شك أن ما رفع من سوية السلطانة حُرّم وجعلها محظية هو ولادتها كل هذا العدد من الصبيان. لا يحب المجتمع العثماني تعدد الزوجات، ولا يفضل هذا عموماً، وزواج السلاطين أكثر من زوجة كان قاعدة. ينبغي أن يكون لدى السلطان كثير من الذكور يخلفونه، وألا تتعرض الأسرة المالكة للخطر. وارتباطاً بهذا الأمر تبرز الزوجات اللواتي يكون لديهن كثيراً من الأولاد. على سبيل المثال، مازال يُناقش إلى اليوم في المحافل العلمية وجود الخاتون غولفم بين زوجات السلطان سليمان. لأنها ولدت مرة واحدة، وتوفي ابنها مراد وهو طفل رضيع، ولم تلد ولداً آخر. لهذا السبب لم تبرز، وليس بسبب عدم تقديرها. نحاول معرفة هذه المرأة من آثارها. أنشأت هذه السيدة جامعاً في كل من أسكودار ومانيسا، ولديها مدرسة ووقف لإطعام الفقراء وسبيل قرب يني شهير.

كان لدى الخاتون غولبهار مهدفيران ثلاثة أبناء توفي اثنان منهم، بينما قارب عدد أولاد السلطانة حرم الدزينة. في السنة الأولى من زواجها ولدت الأمير محمد، وبعد سنة ولدت السلطانة ميهريماه، وفي السنة الرابعة من زواجها ولد الأمير سليم. وغير هؤلاء هناك بيازيد وجيهان غير من ثمرات هذا الزواج. ونعرف أيضاً بأن السلطانة حرم ولدت طفلين هما عبد الله ومراد، وقد توفيا في سن صغير جداً. أي أن السلطانة حرم أعطت للسلطان سليمان سبعة أولاد. هذا الوضع يقويها من جهة، ويزيد من احتمال أن تكون مستقبلاً سلطانة والدة، ويزيد من ميزانيتها من جهة أخرى.

حب نساء القصر العثماني لعمل الخير دائماً تجاوز



مدرسة كلية خاسكي التي بنتها السلطانة حرم

حب رجاله لعمل الخير. لأنهن لسن أمهات أولادهن فقط، بل أمهات المجتمع أيضاً. وبقدر ما يهتممن بجوع أولادهن وشبعهم ومرضهم يهتممن بأبناء المجتمع، ويحاولن إيجاد حلول لمشاكلهم. افتتحن مطاعم ومشافي ومدارس تقدم خدماتها بالمجان للناس. ولكي ترفد هذه الخدمات المجانية أنشأن في كثير من الأمكنة نزل قوافل وحمامات. حسنٌ، من أين تحصل نساء القصر العثماني على هذا الدخل؟ تقضي التقاليد في القصر العثماني أن يدفع للمرأة تعويضات بحسب عدد الأولاد الذين تنجبهن. وبالطبع لن تكون الخاتون غولبهار مهدفيران في كفة واحدة مع السلطانة حرم. ولكن كما هو معروف فإن حب الخير لا يرتبط بالغنى. ثمة كثير من فاعلي الخير يعيشون ضائقة ولكن قلوبهم الغنية تجعلهم يتمكنون من مشاركة الناس ما لديهم.

ولكن وضع السلطانة حُرّم مختلف. لاشك أنها أكثر سيدة قدمت أعمالَ خير في التاريخ العثماني كله. تركت آثاراً كثيرة من الصعب تحقيق مثيل لها بدءاً من كليات الخاسكي في مكة واسطنبول والقدس وجزيرة رودس إلى حمام الخاسكي في السلطان أحمد، مروراً بحمام قرة بنار وقنوات المياه في أدرنة، وصولاً إلى سبل المدينة المنورة. في هذه الحال يخطر ببالنا قول مأثور شهير: «عمل الشخص هو المهم، دون النظر إلى الحديث والسيناريو والمسلسل والفيلم!» بالطبع أجري تعديل على الجزء الثاني من المثل، ولكن الغاية من المقولة واضحة وبسيطة.

الدليل الأكبر على حب نساء القصر العثماني للخير هو أجنحة الحرم في قصر طوب قاب. بعد مدخل الحرم من ناحية أقسام القصر الخارجية عبر باب العربات يطالعكم القسم المسمى «القبة ذات الخزانة». ومن اسمه يفهم أنه مكان مسقوف بقبة، وفي جدرانه خزائن ضخمة. يوضع في هذه الخزائن دفاتر الأوقاف التي يشرف عليها الأغوات السود خدم جناح الحرم. كل نساء القصر تقريباً قدمن أعمالاً خيرية ولهن أوقافاً بحسب إمكانياتهن.



وقف إطعام الفقراء في كلية الخاسكي

وهناك عقارات ومرافق تؤمّن استمرار تلك الأوقاف. يُدون في تلك الدفاتر كل ما يتعلق بالأوقاف ووضعها وقائمة المتولين عليها وكثير من التفاصيل الأخرى. وبسبب صعوبة متابعة شؤون الأوقاف تلك من قبل نساء القصر، يُكلف من يتابعها. إذا كان مدخل الحرم مكان خير إلى هذه الدرجة، فكروا بالباقي.

خرجت الخاتون غولبهار مهدفيران مع ابنها مصطفى إلى مانيسا، ولكن السلطانة حُرّم لم تخرج إلى سنجق بسبب وجود ولد مريض شبه طريح الفراش لديها. ولد جيهان غير بتشوه خلقي. كان جسمه غير متناسق، وفي ظهره حدبة ضخمة. وثمة تقرحات لم تندمل في أي وقت تغطي جلد الحدبة. ولم يعش جيهان غير سوى إلى الثالثة والعشرين من عمره. مرت ثلاث وعشرون سنة من حياتها ترعى ابنها. على الرغم من هذا كثيراً ما كانت تسافر لتزور أولادها الذين خرجوا إلى السناجق. ويمكننا تعداد رحلات السلطانة حرم لهذا الهدف إلى بورصة ومانيسا وقونية وغيرها.

أنا واثق من أن أحداً منكم لا يريد أن يكون مكان السلطانة حُرّم. اللهم



لا تذق أحداً ألم الولد. ليس سهلاً أبداً. وقد عاشت هذه السيدة المحترمة هذا الألم مرات. أصيب ابنها محمد بجدري الماء أثناء وجوده في مانيسا حاكم سنجق، ومات بنوبة حرارة شديدة. يتلقى الأب الخبر وهو في أدرنة، وبحسب ما رواه كاتب الوقائع، يقفز على حصانه، وينطلق إلى اسطنبول دون توقف على مدى يومين. لم يتوقف الدمع من عينيه على مدى يومين. إذا كان الأب قد بكى كل هذا، من يعلم كم بكت الأم. لأن الأمومة لا تشبه أي شيء.

جيهان غير أمير منحوس قضى حياته إلى الثالثة والعشرين من عمره بالمرض. عندما كان إخوته يخرجون في الحملات مع والدهم، ينظر إليهم من حيث يجلس. إنه شاب، ويشتهي أن يكون مثلهم أيضاً، وقد أصر كثيراً على الخروج في حملة، وأخيراً وعده السلطان سليمان باصطحابه



قبر السلطانة حُرَّم

في حملة إيران عام 1553. ولكن هذا الجسم المريض لم يستطع حمله سوى إلى حلب، وقد توفي هناك.

بيازيد أيضاً ابن السلطانة حرم، وقد قتل بقرار من الدولة. عارض والده، ولم يقبل بسنجق أماصيا، وفوق ذلك لجأ إلى إيران. يصدر قرار بإعدامه، ويُهدد طاهماصب لتسليم بيازيد. ويشنق بيازيد في قزوين. وهو مدفون اليوم في إحدى غرف تربة حضرة عبد الوهاب في سيواس.

لاشك أن أشد ألم في العالم هو ألم الولد. فقدت السلطانة حرم طفلين صغيرين وولدين شابين بشكل متتالٍ، وكان هذا الوضع ثقيلاً جداً عليها. ستضرب الآلام جسمها، وتظهر لديها بعض الأمراض على رأسها آلام الظهر. قضت آخر شتاء من حياتها مع زوجها السلطان سليمان في أدرنة التي أحباها كثيراً. ونتيجة اشتداد المرض عادت إلى اسطنبول، وأقامت في القصر العتيق الذي يوجد فيه مشفى. توفيت في العام نفسه 1558 عن عمر اثنين وخمسين سنة. ويقال إن آلام الظهر هي سبب وفاتها.

أمّ المصلين في جنازة السلطانة حرم أبو السعود أفندي في جامع بيازيد، ودُفنت في الجهة القبلية من الكلية السليمانية التي انتهى بناؤها قبل ذلك بعام. كانت أول من يدفن هناك. أحزنت وفاتها أهل اسطنبول كثيراً. أنشأ السلطان سليمان قبة فوق قبرها، ووظف عشرات الأشخاص ليقرؤوا القرآن بجانب القبر بشكل مستمر. المكان الذي أنشئت فيه القبة يحمل دلالة كبيرة. إنها مدفونة في الجهة القبلية من الكلية السليمانية، وأسفل دار القرّة (مدرسة القرآن). كأنها رغبت بأن تسمع الأولاد الذين يقرؤون القرآن بشكل مستمر.

أنشأت فاعلة الخير هذه أوقافاً في أرجاء الأرض كلها، ومازالت تقدم خدماتها، ويستفيد منها أناس كثيرون، وستجدونها في الجزء الثاني الذي يتحدث عن مرحلة السلطان سليمان.



ماكسيمليان الأول جد كارل والمقربين منه



إيزابيل ملكة إسبانيا

تأسيس إمبراطورية روما الثانية

في تلك الأيام كان يُعد لتحالف صليبي بمكر. كانت الدولة الألمانية الكبرى تمتد من حدود الدولة العثمانية في أوروبا والواقعة عند نهاية المجر إلى هولندا. ويرأسها الملك ماكسيميليان الأول. حروبه التي خاضها وزيجاته التي عقدها طوال فترة جلوسه على العرش بدءاً من عام 1493 أضافت قوة إلى قوة عائلة هابسبورغ المالكة، ووسعت أراضيها إلى أقصى الحدود.

تزوج ماكسيميليان الأول من ماري ابنة دوق بورغونيا تشارلز الوحيدة، وأُعلن دوق بورغونيا إثر مقتل حميه في معركة مع ملك فرنسا لويس الحادي عشر في العام نفسه. كانت ثمرة هذا الزواج ثلاثة أولاد هم فيليب الجميل ومارغريت وفرانز.

بحث ماكسيميليان الأول الجالس على عرش ألمانيا الرومانية عن تحالف


كارل الخامس شارلكان
عندما كان ولداً

ضـد الفرنسـيين لأن ملكهـم نهـج فـي تلك الأيام سياسـة توسـعية، وهاجـم إيطاليـا، واحتـل جـزءاً كبيـراً منهـا. خشـى ماكسـيميليان الأول هذه القوة، فزوج ابنه فيليب (الجميـل) مـن جوانـا (المجنونـة) ابنـة فردينانـد ملك إسـبانيا وزوجتـه إيزابيـل ملكـة كاسـتيليا. أثمـر هـذا الـزواج صبييـن هما كارل وفرديناند. وسـيكون هذان فيمـا بعـد عدوي السـلطان سـليمان القانوني سـلطان العالم في أوروبا. وفي الحقيقة أنهما لم يبديا الجرأة ولو مرة واحدة بالخروج أمامه، ومحاربته. ونهجا دائماً تكتيك 'اضرب واهرب'.

بما أننا وصلنا إلى هنا، فلا يمكن إلا أن نتحدث عن ملكة كاستيليا إيزابيل. معرفـة هـذه المـرأة القويـة والحقودة إلـى أبعد الحدود يسـاعد بمعرفتنا لحفيدها كارل الخامس منافس السلطان سليمان الأزلي.


فرانسوا عند رأس دافينشي في لحظاته الأخيرة


إيزابيل وفرديناند

«بعد جلوس إنريك على العرش أعلن أخته غير الشقيقة إيزابيل ابنة جوان الثاني ملك كاستيليا وارثة للعرش. لهذا السبب كان ثمة فضول لمعرفة من سيتزوج الفتاة الجميلة العزباء تلك. لأن هذا الزواج يمكن أن يحضر لتحالفات كبرى من أجل مستقبل كاستيليا. هل سيؤدي هذا الزواج إلى تحالف مع فرنسا أم البرتغال؟ لا ترد هذه الفتاة الحازمة والعنيدة على أحد، وتقيم علاقة مع أمير أراغون فرديناند، وتتزوجه سراً. لا يلقى هذا الزواج مباركةَ كثيرٍ من القوى وعلى رأسها الملك إنريك. وبموت الملك المفاجئ، تبدأ حرب داخلية. تستمر هذه الحرب أربع سنوات، وتنتصر إيزابيل في نهايتها. في تلك الأيام يموت حموها جوان الثاني ملك أراغوان، فيجلس زوجها فرديناند على عرش المملكة. وهكذا يوحّد هذا الزواج مملكتي أراغون وكاستيليا، ويكون نهاية قرة عين أوروبا دولة الأندلس الأموية.


إيزابيل الكاثوليكية

كانت إيزابيل كاثوليكية متشددة، لهذا السبب أطلق عليها اسم 'إيزابيل الكاثوليكية'، وفي الوقت نفسه معادية بشدة للإسلام. تقسم لزوجها فرديناند ليلة زواجها: 'لن أغتسل قبل أن أقتل آخر مسلم على وجه الأرض'. وتلتزم بقسمها، ولم تغتسل. لهذا السبب تذكر هذه المرأة الفظيعة في المصادر الأوروبية باسم 'إيزابيل القذرة' أيضاً. لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب من هذه المرأة الفظيعة، وقد أحرقت أهم الأعمال الفنية والمخطوطات باسم خدمة المسيحية. إذا ذهبتم إلى غرناطة إحدى أكبر مدن الحضارة التي دمرتها ترون في مركز المدينة امرأة جالسة على العرش وهي ترتدي ثوباً منفوخاً من وسطه، وتتذكرون مرة أخرى 'وحش أوروبا الأنثى الوحيدة'.

ستبدأ بإزالة الحضارة الإسلامية اعتباراً من شبه الجزيرة الإيبرية، وتضع عينها على غرناطة آخر قلاع المسلمين في أوروبا. كانت ترى نفسها قديسة مكلفة بخوض حرب دينية تمتد لسنوات طويلة من أجل إكمال فتح إسبانيا من جديد

(reconquista). شنت حرباً على غرناطة عام 1482، ولم تحقق فيها نصراً حقيقياً على الرغم من استمرار المعركة ثمانية أعوام. وتأتي إلى 'سانتا فيه' القريبة من غرناطة وتؤسس هناك مقر قيادة من أجل إثارة الحماسة في جيشها ومؤيديها. ولم تغادر هذا المكان حتى 2 كانون الثاني/ يناير 1492 تاريخ سقوط غرناطة. وهنا يقدم لنا التاريخ مشهداً آخر يلقننا درساً. امرأة مسيحية تقيم في خيمتها أشهرَ في سبيل قضيتها، وبالمقابل قائد مسلم أهمل دولته في سبيل ملذاته الشخصية. أثناء هرب آخر أمراء غرناطة إثر الهزيمة، يلتفت ناظراً إلى المدينة التي غادرها باكياً، فتقول له والدته التي كانت بجانبه عبارة تكوي القلوب، وتعطينا جميعاً درساً لا يُنسى: 'لا تبك كالنساء على ملك لم تحفظه كالرجال'.

بعد أن تسيطر إيزابيل على شبه الجزيرة الإيبرية، تفرض حكمها على مضيق جبل طارق، وتنهج سياسة توسعية في شمال أفريقيا. تخصص غنائم مستعمرات 'العالم الجديد' غير المحدودة من أجل احتلال تلك الأماكن فقط. ولكن النظام المؤسس على الدم والدمع لا يمكن أن يستمر طويلاً. بعد سنتين من سقوط غرناطة، يأتي إلى العالم شاب كأنه يريد أن ينتقم لما حدث، فيفرغ حنقه بحفيد إيزابيل وصاحب هذا الإرث العظيم كارل. سيسرح هذا الشاب بخيله على هواه في الأراضي التي يحكمها، ويمحو إسبانيا من البحر المتوسط بعد أن كانت لا منافس لها في البحار، ويأخذ من يدها ملكها في شمال أفريقيا كله، وحتى إن القباطنة الباشاوات يعبرون أحياناً من جبل طارق، ويضربون شواطئ إسبانيا على المحيط، ويجعل هذا الملك يصبب العرق خوفاً من الأجل.



«المكان الذي بكى فيه العربي» المكان الذي بكى فيه آخر ملوك الأندلس أثناء هربه

وصلت هذه المرأة القوية عام 1504 إلى درجة لم تعد تستطيع فيها النهوض على قدميها من المرض. فقدانها لأولادها واحداً تلو الآخر أنهكها تماماً. فقدت إيزابيل ابنها ووريثها جوان عام 1497، وبعد عام فقدت ابنتها سميتها، وقبل


رسم تخيلي لتارك المدينة باكياً

أن يهـدأ ألمهمـا عليهمـا، تدفـن حفيدها ميغويل. كأن عدالة القدر تتحقق. فقد أزهقت أرواحاً كثيرة ويتّمـت كثيـراً من الأبرياء وثكلت أمهات كثيرات وأفقدت آباء كثيرين أبناءهم في سبيل طموحاتها. مـن الطبيعي أن يظلـم النـاس، وأن تتحقق عدالة القدر.

عندمـا توفيـت إيزابيـل عـام 1504 لـم تترك وارثاً سوى ابنتها جوانا الملقبة 'المجنونة'.

إذا وقـع طريقكـم علـى غرناطـة القديمـة، وغرينـادا اليـوم، سـتجدون كاتدرائيـة غرينـادا الضخمـة فـي مدخـل شـارع غـران فيـا كولون المزدحـم. وعندمـا تعرجون على مصلى البناء، سـتجدون هناك ثلاثة لحود هامة. إنها قبور إيزابيل مؤسسـة إسـبانيا الموحـدة ومسـقطة آخـر الدول الإسـلامية في أوروبا الغربيـة، وزوجها فرديناند، وابنتهما جوانا المجنونة. لا تنسـوا أن تتذكروا السـلطان سـليمان الذي توفي في خيمته عند خروجه في حملة من أجل قضيته وهو في الثانية والسبعين من عمره عند رؤيتكم قبر إيزابيل التي قضت شهوراً في خيمتها من أجل قضيتها، وبالنتيجة أنهت غرناطة».

أصبحت جوانا (المجنونة) التي تزوجت في زمن ما الأمير الألماني فيليب الجميل وريثة عرش كاستيليا بعد وفاة أمها. ولكن والدها فرديناند مازال يجلس على العرش. يجبر فيليب الجميل ابن ماكسيميليان الأول إمبراطور روما الجرمانية المقدسـة وزوج جوانا حماه على ترك العرش. وحقيقة يتنازل فرديناند بعد فترة عن العرش لصهره. يجلس فيليب الجميل على عرش إسبانيا باسم فيليب الأول. ولكن هذا الشاب المريض لا يعيش طويلاً، ويموت بتاريخ 1506. ويعود حموه فردينانـد إلـى العـرش مـن جديـد. ويعلن حفيـده كارل البالغ السادسـة من عمره وريثاً له.

بوفاة الجد فرديناند عام 1516، يجد هذا الشاب الصغير (كارل) نفسه على عـرش إسـبانيا باسـم كارلـوس الأول. بعـد ثلاث سـنوات يتوفى جـده لأبيه، أي

ماكسيميليان الأول، فيجلس على عرش روما الجرمانية المقدسة، وهكذا يغدو كارل الخامس في ألمانيا.

حدثت أمور لم تكن بالحسبان. اجتمعت كاستيليا وأراغوان والإمارات الألمانية وبوهيميا والنمسا كلها تحت سقف واحد. يبني ملك أوروبا الأوحد قوة كبرى، وبعد فترة يضغط على هولندا، ولم يتمهل بالسيطرة عليها. يهتم بإنكلترا، وبواسطة نظامه القمعي يعرف كيف يربط هذا البلد به وإن لم يكن بشكل كامل. تقع المجر على حدود دولة هذا الملك الجنوبية. عليه أن يقوي روابطه بالمجر التي تشكل منطقة فاصلة بينه وبين الدولة العثمانية القوية. يتزوج لايوش الثاني الجالس على عرش المجر في تلك الأيام ماري أخت فيليب



مراسم زواج جوانا المجنونة وفيليب الجميل على جدار صالة أنويربن للزواج في بلجيكا



لحدا ملكة كاستيليا إيزابيل، وملك أراغون فرديناند في الكاتدرائية الكبرى

الجميل، كما يتزوج فيليب الصغير ابن فرديناند شقيق كارل أنّا شقيقة لايوش الثاني.



التوابيت الحقيقية التي تضم رفاة إيزابيل ملكة كاستيليا، وفرديناند ملك أراغون في مصلى الكاتدرائية الكبرى

وهكذا تجتمع تحت سقف واحد جغرافية ممتدة من إسبانيا إلى البلقان حيث يحكم العثمانيون. بقيت دولة واحدة لم تدخل هذا الحلف هي فرنسا.

بعد نجاح كارل الأكبر بجمع أوروبا كلها تقريباً تحت سقف واحد، سيكون هدفه الأهم هو إدخال فرنسا إلى هذا



اتحاد روما الجرمانية المقدسة وإسبانيا

الحلف. وهكذا سيُشكل قوة كبرى في وجه الدولة العثمانية ممثلة الإسلام الكبرى وعلى رأسها الحاكم المطلق السلطان سليمان، وسيكون قضيباً حديدياً صدئاً في قلب الإسلام بالحملات الصليبية، وحتى إنه سيحاول إزالة الحضارة الإسلامية.

أكبر خدمة يسجلها التاريخ للسلطان سليمان تبدأ بعد هذه المرحلة. ولتطن آذان الذين يعتقدون بأن حملات أوروبا المتعاقبة مجرد حركات من أجل السلب. لأنه وهب حياته كلها من أجل تفتيت هذا الحلف المقدس. على هذا الأساس أعد خططه كلها، وعرف كيف يضيّق الأرض على منافسه الذي يمتلك القارة الأوروبية والبحر المتوسط وشمال أفريقيا المترامية الأطراف. ودعم لوثر مقابل كارل العظيم الكاثوليكي المتشدد الذي وهب نفسه للدين، وحوّل نصف أوروبا من الكاثوليكية إلى اللوثرية (البروتستانتية)، وسيدفن كارل العظيم إمبراطور روما الثانية في الحياة نتيجة هزيمته بشكل متتالٍ، وإفقاده أي طموح في الحياة بعد المآزق التي وضعه فيه القانوني، فقسم دولته بيديه عام 1556، وانزوى في دير (يوستا) بناه على أنقاض الأندلس بعد تخليه عن الملك منتظراً الموت. ويموت هناك بتاريخ 21 أيلول/ سبتمبر 1558، وتحرق جثته.



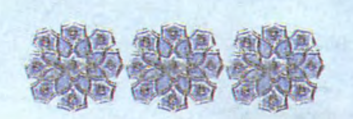
إيزابيل وفرديناند وابنتهما
جوانا المجنونة

يوضع رماده تحت مذبح هذه الكنيسة، ثم ينقله ابنه فيليب إلى دير القديس لورانزو دي الأسكوريال.


كارل الخامس لدى الألمان، وكارلوس الأول لدى الإسبان، وشارلكان لدى العثمانيين

من الطبيعي ألا يكون هذا الوضع سهلاً. سيضحى كثيراً، ويهاجم بتقديم شهداء كثيرين ويعاني كثيراً في سبيل إخماد زمرة جمعت دولاً كثيرة تحت سقف واحد، وأقسمت على إنهاء الحضارة الإسلامية. وفي النهاية ستُزال الإمبراطورية الرومانية الثانية المنبثقة من قلب أوربا على يد السلطان سليمان القانوني.

هذه أكبر نجاحات السلطان سليمان. من لا يفهم عظمته أو دهاءه السياسي اليوم، ليراجع انتصاراته الباهرة في موهاج وبريفيزا. النجاح الحقيقي لم يكن ذلك المحقق في ميدان الحرب. ما ستجدونه في هذا الكتاب أكثر مما سمعتم به حتى اليوم، وستنظرون إلى عهد السلطان سليمان من منظار مختلف تماماً، وتفهمونه بشكل أفضل.



قصر فرانسوا الأول المزين سقفه بنحت بارز

قصر فرانسوا الأول ملك فرنسا في أورليون



الدولة المدعومة
مقابل روما المقدسة: فرنسا

حلّ وقت إنجاز تحالف شارلكان إمبراطور روما الجرمانية المقدسة. كان عليه أن يضم قطعة أرض أخرى بعد هولندا وإنكلترا، وتحمل هذه الأرض أهمية كبرى على صعيد تحقيق هدف وحدة أراضي روما المقدسة كلها، وهذه الأرض هي فرنسا.

تقع فرنسا بين إسبانيا وألمانيا الكبرى، وبالتالي فهي تقسم دولة روما فعلياً من جهة، ولا تخدم مصالح الملك العظيم من جهة أخرى. كان ملك فرنسا في تلك الفترة فرانسوا الأول، ويدير الدولة من أورليون، وقد جلس على العرش بعد والده شارل الثالث وخليفته لويس الثاني عشر.

كانت فرنسا قوية في تلك الأيام. أوقعت خسائر فادحة بالقوى المتحالفة في حروب إيطاليا خلال عهدي لويس الحادي عشر ولويس الثاني عشر. وكادت تضم



معركة بافيا «التي وقع فيها الملك فرانسوا بالأسر»





فرانسوا 'ملك فرنسا'

ميلانـو. قـوة فرنسـا الناميـة هـذه جذبـت العائلات النبيلة الإيطالية مثل عائلة ميديشـي إليها، وحتى إن البابا قد اتخذ موقفاً قريباً منها. ومهما وسّع الملك العظيم تحالفه المقدس، لم يسـتطع كسـر قوة فرنسا أو جذبهـا إلـى جانبـه. أي أن هنـاك تنافسـاً علـى جـذب قوتـي أوروبـا العظميين في تلـك الأيام. لو تمكنت واحدة منهما بالالتحاق بالأخرى في سـبيل القضيـة المسـيحية، لن يكـون صعباً أبداً طبع العالم بطابعهما. يرينا هذا المشـهد عظمة خير الدين باشـا الذي حكم البحر المتوسـط. لم يبدِ تكبراً مماثلاً، وذوب شـخصيته بالشـخصية المعنوية العثمانية، واحتل عرش القلوب.

تلقى فرانسـوا تعليماً جيداً، وكان متعلقاً بالفن. ولاهتمامه بالرسـم والعمارة رعـى الفنانيـن، وفـي الوقت نفسـه كان رجلاً شـديد الطمـوح. عندما جلس على العـرش عـام 1515 كان سـير المعـارك مع إيطاليا جيداً، ولكنه بدأ ينقلب عكسـياً اعتبـاراً مـن عـام 1521. بعـد هزيمتـي بيكوكا وسيسـيا، وحصار مارسـيليا اضطر فرانسـوا لقيادة الجيش بنفسـه. عبر ملك فرنسـا جبال الألب، ووصل إلى ميلان. احتل المدينة، ولاحق قوى الحلفاء المنسحبة حتى أبواب بافيا. في الحقيقة، لم يكن من الصعب عليه سـحق العدو الذي حاصره لأنه يتفوق في العدد والعتاد. ولكنه أقدم على تصرف أخرق، وفرّق قواه. في هذه الأثناء لبي البابا طلب الدعم، وأرسل جزءاً من جيشه إلى هناك. فك جنوده المرتزقة. أما جيش الحلفاء المقابل له فقد كانت تردفه كل يوم قوى جديدة. وبإرسال كارل وحدات من إسبانيا أخيراً انتقل التفوق إلى الطرف الآخر.

تظهر نتيجة الحرب في الليلة التي تربط 23/ 24 شباط/ فبراير. تتعرض قوات فرانسـوا لهزيمة سـاحقة، ويقع ملك فرنسـا فرانسوا الأول في الأسر. زج بالملك الأسـير في قلعة بيزايتون، وكتب لوالدته لويز دي سـافوا رسـالة يبلغها بوضعه، ويطلب منها أن تبحث له عن مخرج. يقول فرانسـوا: «فقدنا اليوم كل شـيء ما عدا شـرفنا»، ويتابع بعبارة تحمل معنى عميقاً: «إذا أردتِ أن تسـأليني عن سـوء



ملك المجر هونيادي لايوش 'يانوش'

حظي، فأريدك أن تعرفي الآتي: كل شيء مظلم ما عدا شرفي وحياتي التي ليست في خطر حالياً..».

كان وضع لويزا دي سافوا والدة ملك فرنسا فرانسوا غاية في السوء لأن القوة التي تواجهها هي قوة ملك إسبانيا قبل عام 1519، ثم أصبح ملك بلجيكا وهولندا، وبموت جده ماكسيميليان عام 1519 جلس على عرش روما الجرمانية المقدسة، ومتحالف مع ملك المجر لايوش الثاني برابط الزواج. الملك الكبير ملك نابولي وسجيليا هزم ابنها فرانسوا الآن، وأسره. لم يعد أحد يستطيع إيقاف هذا الرجل فيما لو توجه نحو باريس، ما عدا شخص واحد...

ترسل والدة فرانسوا رسالة إلى السلطان سليمان القانوني مع سفير يدعى جين فرانغيباني، وترجوه أن يخلص ابنها. ويرد السلطان سليمان على هذه الرسالة برسالة شهيرة قائلاً بأنه سيفعل ما يلزم، ويطلب منها أن تريح نفسها. لننظر إلى نص الرسالة التي أرسلها السلطان سليمان عام 1525.



MEKTUBUN ORİJİNAL METNİ

"Ben ki sultanü's-selatin ve burhanu'l-havakin tac-bahş-i husrevan-ı ruy-i zemin zıllullah fi'l-ardeyn, Akdeniz'in ve Karadeniz'in ve Rumeli'nin ve Anadolu'nun ve Karaman'ın ve Rum'un ve vilayet-i Zulkadriye'nin ve Diyarbekr'in ve Kürdistan'ın ve Azerbaycan'ın ve Şam'ın ve Haleb'in ve Mısır'ın ve Medine'nin ve Kudüs'ün ve külliyen diyar-ı Arab'ın ve Yemen'in ve dahi nice memleketlerin abay-ı kiram ve ecdad-ı izamım enarallahu berahinehum kuvvet-i kahireleri ile feth eyledikleri ve cenab-ı celalet-meabım dahi tiğ-ı ateşbar ve şemşir-i zafer-nigarı ile feth eylediğim nice diyarın sultanı ve padişahı Sultan Bayezid Han oğlu Sultan Selim Han oğlu Sultan Süleyman Hanım. Sen ki Françe vilayetinin Kralı Frančeskosun. Dergah-ı selatin-penahıma yarar adamın Frankipan ile mektup gönderip ve bazı ağız haberi dahi ısmarlayıp memleketinize düşman müstevli olup, el-an habisde idüğünüzi i'lam edüp halasın hususunda bu canibden inayet ve medet istid'a eylemişsiz. Her ne ki demiş iseniz benüm paye-i serir-i âlem-measirime arz olup ala sebili't-tafsil ilm-i şerifim muhit olup tamam malumum oldu. İmdi padişahlar sınmak ve habs olunmak aceb değildir, gönlünüzü hoş tutup azürde-hatır olmayasız. Öyle olsa benim abay-ı kiramım ve ecdad-ı izamımız nevveralahu merakidehum daima def'-i düşman ve feth-i memalik için seferden hâlî olmayup biz dahi anların tarikine salik olup her zamanda memleketler ve sa'b ve hasin kaleler feth eyleyüp gece gündüz atımız eyerlenmiş ve kılıcımız kuşanılmıştır. Hakk subhane ve teala hayırlar müyesser eyleyüp meşiyyet ve iradeti neye müteallik olmuş ise husule gele. Baki ahval ve ahbar ne ise mezkur âdeminizden istintak olunub malumunuz ola, şöyle bilesiz."

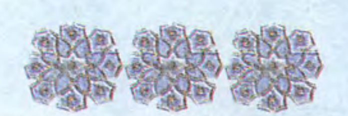
نص الرسالة

«أنا السـلطان سـليمان خان ابن السـلطان بيازيد خان ابن السـلطان سـليم خان سلطان السلاطين وبرهان الخواقين، متوج الملوك، ظل الله في الأراضين، سـلطان البحـر المتوسـط والبحـر الأسـود والبحـر الأحمـر وروملـي والأناضول وقرمان والروم وولاية ذي القدرية وديار بكر وكردستان وأذربيجان والشام وحلب ومصـر ومكـة والمدينـة والقدس وديار العـرب كلها واليمن وممالك كثيرة فتحها آبـاؤه الكـرام وأجـداده العظماء بالقوة الجبرية، ومدهم الله بنصره ليكون سـلطان ديار كثيرة فتحها. وأنت والدة ملك فرنسـا فرانسيسـكو. أرسـلت رسـالة إلى بابي ملجأ الملوك تبلغني بأن بلدك يتعرض للاحتلال، وابنك أُسر وأُلقي في السجن، وتطلبين مساعدتي من أجل التخلص من هذا الوضع. لا تحزني. لن يحدث إلا ما قدره الله. ستعلمين من سفيرك بما سأقوم به. سليمان بن سليم».

وسـيقوم بأول حملة تكوي قلب آل هابسـبورغ إلى المجر، ويسـحق ملك المجر لايوش صهر كارل العظيم وجيشـه في موهاج مظهراً قوة جيشـه. سـتكون هـذه العمليـة كافيـة لإخافة كارل وتحذيره، وبعد معركة موهاج، وبموجب اتفاقية مدريد يطلق سراح فرانسوا.

ستكون سياسة السلطان سليمان الأوروبية بعد هذا هي دعم خصـوم كارل، وتقويتهـم. بالطبـع يمكـن القول إن كل عثرة أمام قدم إمبراطورية روما الجرمانية سـيكون السلطان سليمان قد وضعها. من أجل المحافظة على قوة الفرنسـيين سـيؤمن لهم المال، ويجعل خيـر الديـن باشـا يضيـق البحـر علـى سـفن رومـا المقدسـة في البحر المتوسـط، ويحمي سفن الأسطول الفرنسـي، وحتى إنه سـينزل في شـواطئ جنوب فرنسا، ويرهب روما المقدسة.

تمثال فرانسوا ملك فرنسا



السيوف الضخمة التي استخدمها المجريون
في معركة موهاج



فتح أوروبا الوسطى: موهاج

أظهر السلطان سليمان بوضوح أنه أسد وليس كما ساد الاعتقاد في البداية بأنه حمل. أثار قلقاً خطيراً بفتحه بلغراد مفتاح أوروبا الوسطى، ثم سيطرته على رودس التي كانت تبدو منيعة. ولكن، كان هناك تطورات أخرى تجري في الجغرافية الأوروبية تقلق العثمانيين.

كانت شبه الجزيرة الإيبرية تتألف من ممالك تعادي إحداها الأخرى، وقد اجتمعت تحت سقف واحد بإزالة آخر دولة مسلمة في غرناطة. تزعَّم هذه الوحدة وريث الاتحاد الجرماني لروما المقدسة، وربط به الحلف الألماني النمساوي، وجمع ثلاثة أرباع أوربا تقريباً تحت سقفه. كانت فرنسا أقوى الدول الأوروبية في تلك الأيام، وتنهج سياسة توسعية، وتحاول ابتلاع الأرض الإيطالية. ونتيجة النجاح العسكري الذي تحقق في عهدي لويس الحادي عشر ولويس الثاني عشر بشكل خاص فقد وصلت إلى أطراف ميلانو. أي

كانت فرنسا القوية جداً مقابل روما المقدسة، ولكن إمبراطورية روما المقدسة النامية بشكل مفاجئ تهزم فرنسا هزيمة ساحقة في معركة بافية عام 1525، وحتى تأسر ملكها فرانسوا. إثر هذا تطلب فرنسا العون من العثمانيين، ويعد القانوني بالعون. حسنٌ، كيف سيُنقذ فرانسوا؟ بعد أن يناقش القانوني هذا الأمر بعمق يضع خارطة طريق لتركيع روما المقدسة. الطريق الذي يكوي قلب كارل العظيم يمر من التأثير على من حوله، أي على أرض المجر وليوش الثاني صهر كارل...

للمجريين أهمية كبرى في الوحدة الصليبية الأوروبية، ويشكلون منطقة فاصلة بين العثمانيين وإمبراطورية روما الجرمانية المقدسة أثناء تقدمهم السريع باتجاه أوروبا. ولكي يتدخل السلطان سليمان في إمبراطورية روما الجرمانية المقدسة يجب أن يتخلص من المنطقة العازلة. أي أنه يجب أن يزيل المجر أو يجعلها تابعة للعثمانيين، وهكذا يمكنه أن ينظم حملات على أراضي التحالف المقدس براحة.

الجانب الصعب في الأمر هو أن فرديناند حاكم ألمانيا باسم شقيقه الأكبر كارل (شارلكان) إمبراطور روما الجرمانية متزوج من شقيقة ملك المجر لايوش.

المكان الذي وقعت فيه معركة موهاج





أي أنه صهر المجر. إنه يدعي بحق حكمه المجر نتيجة هذه القرابة. يجب التدخل بشكل عاجل، وتوجيه ضربة قاتلة لهذه القوة الصليبية الكبرى قبل أن تستجمع نفسها. ينبغي زرع بذور الشقاق بين تلك القوى، والإيقاع فيما بينها، وتحييدها قبل تشكيل ذلك الحلف. هذا هو سر الدولة العظمى. معرفة خفايا الخصم ونقاط ضعفه، وتحديد المكان الذي سيضربه منه، وتوقيته.

كان المجريـون دائمـاً ممثلـي العالم الكاثوليكي فـي حملات الصليبين أثناء تقدم العثمانيين في روملي. وقد كان السلطان محمد خان الفاتح يخشى مساعدة الجيوش المجرية أثناء حصار اسـطنبول، ولكن والده مراد الثاني حال دون هذا الأمر بانتصاره في معركتي فارنا وكوسوفا الثانية. وفور جلوس السلطان سليمان علـى العـرش فاجـأ المجرييـن بفتحه بلغراد التي تشـكل مفتاح أوروبا الوسـطى، ولكن قوة دولة المجر العظمى لم تنقص.

طرق السلطان سليمان بداية طريق الاتفاق مع المجريين. أرسل هيئة سفراء إلـى الملـك لايـوش، وطلـب منـه أن يعيد النظر فـي تحالفه مع روما المقدسـة، ويسـحب دعمه لكارل. ولكن لايوش قطع رؤوس أعضاء هيئة السـفراء جميعاً، وأرسلها بسلة إلى اسطنبول. ليس لهذه الحركة معنى سوى إعلان الحرب، وبدأ الطرفان بالاستعداد لها.

نتيجـة قـرار الحـرب الصادر عن الديوان، أرسـل إلى مختلف سـادة السـادة طلبـاً بتجهيـز وحداتهـم لهـا. بلغ عـدد الجنود القادمين مـن المناطق الممتدة من



الساحة التي جرت فيها معركة موهاج، ونصب السلطان سليمان الذي يحاول أن يبديه بربريا

مصر وسورية إلى البوسنة، ومن مختلف مناطق الأناضول إلى القرم ستين ألفاً. وينطلق الجيش من اسطنبول في أواسط شهر نيسان/ أبريل. كان ثمة 300 مدفعاً في الجيش العثماني. دخل الجيش إلى أراضي المجر، وسيطر على القلاع التي أمامه مثل بتروفارادين وأوجلاك وغيرها. في قلعة إزاق أبلغ الجيش بهدف الحملة: إنه بودين.

وصل جيش مجري إلى سهل موهاج أولاً، وكان الملك لايوش الثاني يقوده. وقد أظهرت الجيوش المتحدة أنها كبيرة العدد، ولكن ثمة نقص فيها، إنه جانوس زابوليا حاكم إردال الذي كان من المنتظر أن يأتي بثلاثين ألف جندي. لم يشارك زابوليا بالمعركة، وانتظر نتيجتها. ثمة رأي يقول بأن العلاقة بين لايوش وزابوليا لم تكن جيدة، ورأي آخر يقول بأن تصرف زابوليا هذا جاء نتيجة حوار مسبق بينه وبين السلطان سليمان.

دخل الجيش العثماني سهل موهاج في 28 آب/ أغسطس، وفي اليوم نفسه وضع مجلس الحرب إستراتيجية المعركة. وقد حضر الصدر الأعظم إبراهيم باشا المجلس الاستشاري هذا المنعقد برئاسة السلطان سليمان. يتحدث بالي بيك الذي يعرف الجيش المجري وتكتيكاته عن قرب، ويشرح بأن وحدات الجيش المجري المدرعة مرتبطة فيما بينها كالسلاسل لذلك فإن الهجوم من الجوانب والخلف سيوقع في هذه القوى خسائر كبرى. ويوافق على هذا الرأي.

صباح 29 آب/ أغسطس خرج السلطان سليمان مع الصدر الأعظم إبراهيم باشا وأركان الدولة من خيمته، وجالوا على وحدات الجيش كلها، وخاطبوا الجنود. يورد إبراهيم بجوي في تاريخه هذا الأمر على النحو الآتي:

«كان سلطان السلاطين الغازي يقترب من كل وحدة، ويفتح يديه المباركتين ويدعو بعينين دامعتين مناجياً: 'يا إلهي أنت صاحب القوة والقدرة. يا إلهي أنت صاحب التقدير والنصرة. أنت الراعي وأنت

ملك المجر هونيادي يانوش 'لايوش' الذي قتل في موهاج

الحامي. لا تُضعف هذا الفصيل من أمة محمد، ولا تفرح العدو'».

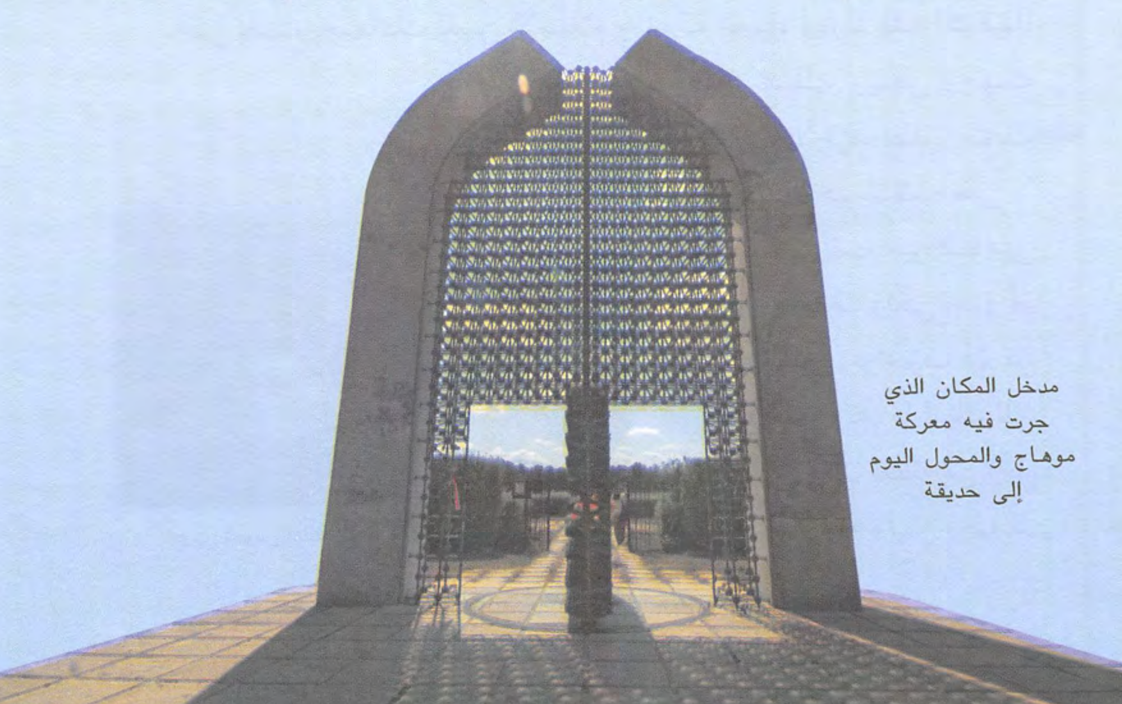
بدأت المعركة بهجوم الجيش المجري. اتخذ الجيش العثماني وضع نظام الحرب ذي الصفوف الثلاثة. تتشكل الوحدات الأمامية من جنود روملي، وهي بقيادة إبراهيم باشا. ويتشكل الصف الثاني من جنود الأناضول بقيادة سيد سادة الأناضول بهرام باشا. أما الصف الأخير فيتألف من جنود ثكنة الإنكشارية بقيادة سلطان السلاطين شخصياً. بموجب الخطة تنتظر الوحدات العثمانية هجوم المجريين، وجذب وحدات القوات المدرعة إلى وسط الجيش. بدأت الوحدات الروملية بعد فترة قصيرة بالانسحاب نحو الجانبين. شجع هذا الانسحاب التكتيكي الوحدات المجرية، وجعلها تندفع أكثر نحو قلب الجيش العثماني. في هذه الأثناء لم يسمح بالي بيك ورجاله مع القوات الطليعية بأي حركة على الطرفين، ويحاول ضبطهما. وقد كان ثمة مرتفع على أحد جهتي سهل موهاج حيث تواجه الجيشين، وعلى الطرف الآخر مستنقع. تمت السيطرة على المرتفعات بمهارة، وحوصر جيش العدو. بدأ الصف الثاني من الجيش المجري والذي يقوده ليوش شخصياً بالضغط على مركز الجيش العثماني. كاد أن يصل إلى مدافع العثمانيين الموضوعة وسط الجيش. وحلت اللحظة المنتظرة. أطلقت المدافع العثمانية الحديثة جداً البالغ عددها 300 مدفعاً نيرانها كلها دفعة واحدة. لم يستطع الجيش المجري التخلص من المحق، وغرق الهاربون مع ملكهم في المستنقع. وبذلك سُحق أكبر جيش بري في أوروبا خلال ساعة ونصف.

رسالة بالي بيك إلى السلطان القانوني

وبحسب رواية ضياء نوري آقصون فإن خمسة وثلاثين فارساً أقسموا أنهم سيقتلون السلطان سليمان، فاندفعوا نحوه في لحظة من لحظات الحرب

الأشـد. وفي لحظة قلّ فيها عدد عناصر حماية السـلطان سـليمان، بدؤوا بالتقدم بشكل خطير. على الرغم من جهود القتال المدهش قتل اثنان وثلاثون منهم قبل اقترابهم من السلطان سليمان، ونجح مرجزالي وجنديان بالاقتراب من السلطان. انتبه السـلطان سـليمان إلى الوضع، واسـتل سـيفه حين رأى عجز جنود حراسـته الخاصين. أطلق الجنود المجريين سـهامهم لتحقيق هدفهم دون إضاعة للوقت، ولكنها لم تستطع اختراق درع القانوني. وبالمواجهة القريبة التي خاضها السلطان سليمان قضى على الجنود المجريين الثلاثة بسيفه.

نعـم، انتصـر فـي الحرب. دخل هذا النصـر تاريخ الحروب العالمية باعتباره إنجاز أقصر معركة ميدان في العالم. ولكن ما هو النصر الحقيقي؟ أي هل ما جعل السلطان سليمان عملاقاً في هذه المعركة هو قضاؤه على جيش أوروبا الوسطى الضخم خلال فترة قصيرة إلى هذه الدرجة؟ أم أمره بحفر خندق يشبه القبر في زاويـة مـن خيمتـه، وقوله مسـاء: «دخل الغرور قلبي اليوم، لذلك افرشـوا لي في الخندق»؟ أي أنه لم يتدلل نتيجة انتصاره، ولم يجنّ بما وصل إليه، ولم يخرب إن جاز التعبير. أجرى محاسبة ذاتية من تلك الحفرة في تلك الليلة، وقال لنفسه: «لا تنس يا سـلطان سـليمان أنك حققت اليوم نصراً كبيراً، ولكنك سـتنزل غداً إلى حفرة كهذه، وتحاسب». لقد فعل ما فعله طارق بن زياد أحد مؤسسي دولة الأندلس بعد فتح إسبانيا، ووضع يده على خزينة الإمبراطورية في طليطلة، وثأر



مدخل المكان الذي
جرت فيه معركة
موهاج والمحول اليوم
إلى حديقة

له في هذه المعركة: «لا تنس يا طارق! كنت عبداً بالأمس، وأصبحت اليوم قائداً مظفراً، وغداً ستدخل تحت التراب، وتحاسب!»

هذا المفهوم الذي كبّر الدول والمجتمع والناس، وسما بهم، ومن حاد أو انحرف عنه سقط على أنفه.

لهذا السبب من الخطأ الفادح ربط قوة العثمانيين باستخدام السيف ومهارة الجيش فقط. تكمن عظمتهم بتركيزهم على الهدف وعدم انجرافهم إلى ملذات الدنيا.

لم يكن هذا معيار السلطان سليمان فقط، بل معيار كل من في بنية الدولة العثمانية. عدم إعطاء القانوني لأقربائه أي امتيازات كما ذكرت في مختلف الأماكن من الكتاب، وإرساله ابن عمته ليكون قائد طلائع الجيش في أواسط أوروبا يحمل معنى كبيراً. بعد معركة موهاج يرسل الطليعي الكبير بالي بيك رسالة إلى القانوني، ويطلب منه منصب وزير. وحملت رسالة القانوني الجوابية معنى عميقاً.

هونيادي يونوش قبيل معركة موهاج

«لن تضيع خدماتك لدين الإسلام والدولة العلية، وبارك الله لك فيها، ورضي عنك، وبيّض وجهك في الدنيا والآخرة. تطلب منحك وزارة مقابل خدماتك. نحن لا نتردد بمنحك لقب أمير المؤمنين وليس وزارة فقط. ولكن احذر أن يصيبك الغرور، واعرف أن كل شيء من الله، وكل ما لديك لله. اعمل ما تريد أن تعمله من أجل كسب رضاء الله وليس رضاءنا.



موت لايوش ملك المجر أثناء هزيمة موهاج

احذر من الوقوع بخطأ طلب شـيء من عبد فانٍ. لا تصغّر نفسك أمامنا، ولا تكن تحت منّة أحد».



زوجة لايوش الثاني وملكة هابسبورغ ماري

مـازال سـهل موهـاج الواقـع على بعـد 150 كم جنـوب بوديـن باقياً باعتباره لوحة تحمل عبرة. حوّل المجريـون اليـوم سـاحة الحـرب إلـى حديقـة وطنية ومتحـف لذكـرى تلـك المعركـة. فـي الحقيقـة، إن متحـف الهـواء الطلـق ذاك يـروي لنـا الكثيـر. فحتى مدخل المتحف يقدم لنا مخطط المعركة. مُلِءَ الباب بشبكة معدنية على شكل رمح ينبثق من الأسفل إلى الأعلـى. هـذا الجـزء المعدني يرمز لجيش المجر. أما الهلال البيتوني الذي يلف رأس الرمح فيرمز للجيش العثماني.

عندمـا نعبـر الباب يواجهنا مكان فسـيح هو سـاحة تـروي قصة المعركة من خلال نصب خشبية. نصب الحرب المحفورة من الخشب بكاملها مؤثرة إلى أبعد الحدود. خيول معفرة بالتراب تسحب نفسها وهي تصهل، ورايات تقاوم السقوط، وشعارات، ورماح وسهام متطايرة هنا وهناك. ثمة نصبين بين تلك النصب تلفت انتباهنا بشكل خاص. أحدهما لملك المجر لايوش الثاني الذي قتل في الحرب. إنه نصب متناسق الأعضاء، كل زائر أوربي يأتي إليه يضع وردة أسفله. ثمة نصب خشـبي آخر على بعد عدة أمتار منه لرجل في أذنيه قرطين تحت رمح بشـع. إنه قبيح دون جسم أو أسلوب. كأن رأسه مثبت على رأس عصا. يشبه هذا التمثال القراصنـة، ومعلـق فـي رقبته شـبكة، وداخلها أربعة رؤوس مقطوعة. إنهم يمثلون به السلطان سليمان القانوني.

لا يُدهشنا هذا المشهد نهائياً. لأن هذا الأمر لِبان يلوكه الأوربيون على مدى قرون. يريدون رؤية العثمانيين زمرة برابرة تقطع وتذبح من أجل جمع الغنائم. مع أنهم دائماً هم الذين ارتكبوا الأعمال البربرية. هل كان السلطان سليمان القانوني بربرياً؟ تعالوا لنبحث في هذا الأمر.

دخل السـلطان سـليمان بودين بعد انتصاره في موهاج. لا أدري ما إن كان بينكـم أعزائـي القـراء مـن رأى بوديـن؟ برأيـي إنهـا ثاني أجمل مـدن العالم بعد

اسطنبول. أحب بودين لأنها تشبه اسطنبول كثيراً. يمر نهر طونا (الدانوب) بين بودين وبست مثل المضيق. لو كان القانوني بربرياً لضم هذه المدينة الجميلة التي وقعت بيده إلى دولته بعد موهاج مباشرة. هل فعل؟ لم يفعل بالطبع. أمر بانتخاب ملك جديد للمجر: زابوليا. وأعاد له أراضي المجر وعاصمتها. لم يطلب منه سوى شيء واحد. عدم إدخاله كارل وفرديناند إلى بلده. تُرى هل هذه بربرية؟

هاجم التحالف الألماني النمساوي المجريين مرات عديدة، وحاول أخذ بودين لضمها إلى أراضيه بعد دخول العثمانيين إليها. نحن نعتقد بأن هدف أولئك تحرير المجريين، وتأسيس دولة جديدة لهم. هيهات! احتلوا هذه الأماكن بعد هزيمة فيينا الثانية عام 1683، ووضعوا أيديهم على هذه الأرض، ولم يكن من السهل إخراجهم منها. هل تذكرون متى خرجوا من المجر؟ لأذكركم أنا. خرجوا عام 1945، أي بعد أن خسروا الحرب العالمية الثانية.

إذا أردتم معرفة البدوي من المدني سيكون كافياً أن تزوروا ثلاثاً من محافظاتنا: إزميت، تكيرضاغ، كوتاهية. سترون في هذه المدن ثلاثة بيوت مجرية. إنها بيوت إمره توكلي وف. راكوتشزي، وكوشات. ثار هؤلاء الأبطال

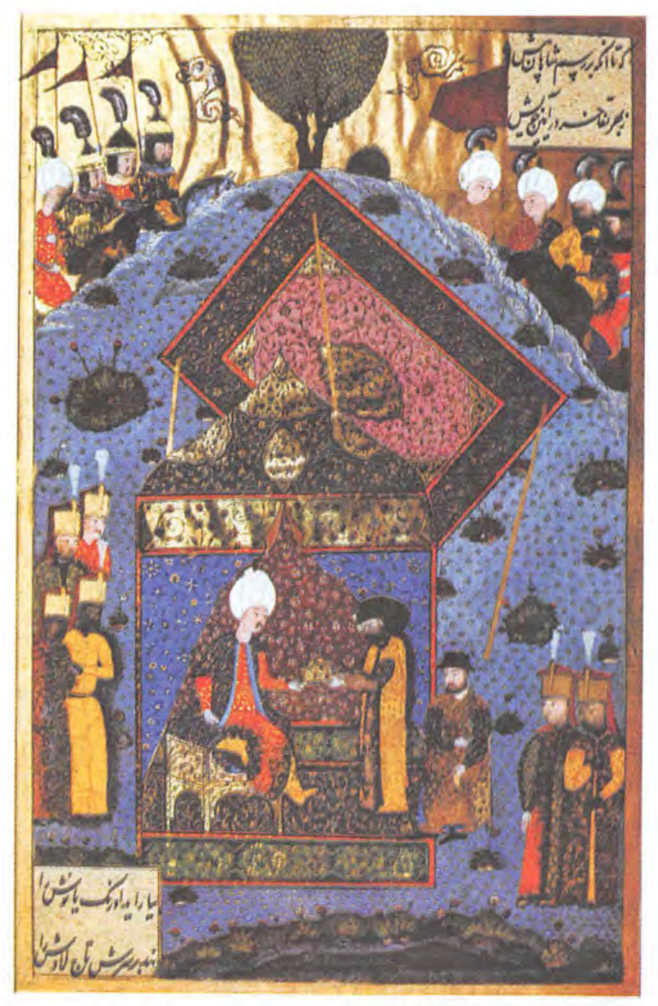


على ظلم النمساويين الذي ساد في بلدهم لقرون، وعندما فشلوا، لجأوا إلى الدولة العثمانية. مازالت تماثيلهم تزين ساحة الأبطال في بودابست. أي أنه يمكن أن تُرى معركة موهاج بين العثمانيين والمجريين، ولكنها في الحقيقة هي معركة تخليص المجريين من ظلم الأوربيين والملوك الدمى، وحصولهم على هويتهم الحقيقية. إذا طرحتم ما أرويه الآن لمجري تقابلونه ذات يوم ستجدون أنني لم أكن مبالغاً.

بعد عدة أيام من الانتصار في المعركة، يسير السلطان سليمان نحو بودين على رأس جيشه. إثر وصول خبر الهزيمة إلى المدينة، هرب النبلاء المجريون وعلى رأسهم ماريا زوجة لايوش. لم يبق في المدينة سوى اليهود، وهم الذين سلموا مفاتيحها للسلطان.

بودابست/قلعة بودين



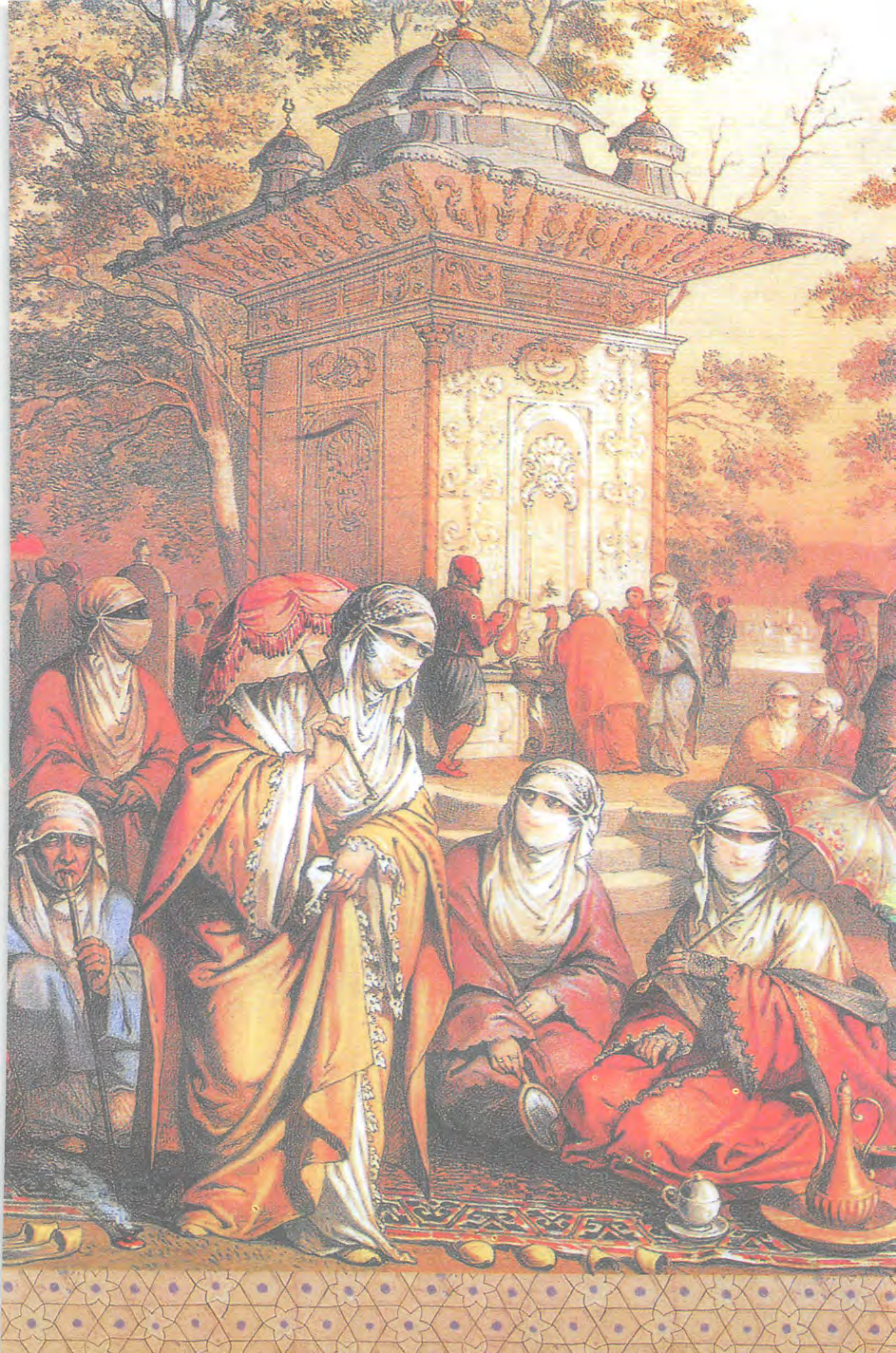


استقبال السلطان سليمان لملك المجر زابوليا

وكما ذكرنا سابقاً فإن هدف العثمانيين بحسب تقاليد دولتهم لم يكن مجرد السيطرة على المدن، وفتح الدول، وتوسيع الأرض، بل نقل مشاعرهم وأفكارهم إلى أهل تلك الأرض. وعطفاً على هذه الحال فإن السلطان سليمان لم يضم بودين إليه بعد أن سيطر عليها. لهذا السبب اختار النبلاء المجريون الذين لم يشاركوا في موهاج جانوس زابوليا ملكاً للمجر في إستولني بلغراد (سيكشفهير فار)، واعترف به السلطان سليمان. وهكذا حل محل لايوش الواقع تحت هيمنة الأسرة الهابسبورغية ملكاً قريباً من العثمانيين ويراعي مصالحهم. بعض النبلاء المجريين لم يعترفوا بزابوليا، وأعلنوا فرديناند شقيق كارل ملكاً. ولكن عدم قبول

السلطان سليمان بهذا، ووقوفه في وجه فرديناند إزاء أي مبادرة منه وتذكيره بأنه هو صاحب الكلمة في تلك الأرض بدد خياله بالمجر.

عدم ضم السلطان سليمان بودين إليه بعد سيطرته عليها وتركها لنبيل مجري وهي مدينة قريبة بجمالها من اسطنبول أهم دليل على أنه لم يكن شخصاً همه فتح الدول. ويعبر عن إجرائه هذا عبر لوحة أمر بوضعها على قلعة بندر: «أنا السلطان سليمان عبد الله وسلطان الأرض، قائد أمة محمد بعناية إلهية، وتقرأ الخطبة في مكة والمدينة باسمي. أنا شاه في بغداد، وقيصر في ديار الروم، وسلطان في مصر، يرسل أساطيله إلى البحر المتوسط والمغرب والهند، والحائز على عرش المجر وتاجها وواهبها لأحد عبيده».





تمثال السلطانة حُرّم في راغاتينا البولونية

ثمة رسالة من السلطانة حُرّم

أثناء حديثنا حول السلطانة حُرّم في الفصول السابقة، ذكرنا مهارتها باستخدام اللغة التركية على الرغم من أنها تعلمتها فيما بعد. حتى إن الشعر الكلاسيكي الذي كتبته يفوق ما كتبه السلطان سليمان بحسب خبراء هذا الشعر. هذا مؤشر على أن الأشخاص المحولين دينياً لم يكونوا طويلي القامة وعريضي المنكبين، بل يدخلون إلى القصر بأعمار صغيرة جداً. لأن كتابة شخص ما بلغة تعلمها فيما بعد نثراً أو نظماً فنياً بشكل يفوق من يكتب بهذه اللغة وهي لغته الأم يشير إلى أن ذلك الشخص قد أُدخل إلى القصر في سن صغيرة جداً. حباً بالله، هل يمكنكم ربط الفنية واللغة والمفردات واختيار أمكنتها والقوالب اللغوية في المقاطع الشعرية المدرجة أدناه بواحدة أجنبية حُولت دينياً بالنظر إلى طولها وجمالها (لو حُوِّلت دينياً اعتماداً على طولها وجمالها يجب أن تكون في السابعة عشرة من عمرها) ولم تستطع تعلم التركية والأدب بشكل سليم بعد؟

«أيها الصبا أنبئ سلطاني بإنهاكي وبكائي
ليس لدي سوى الشدو كالبلبل بغياب وجهك الوردي
لا تعتقد بأن لساني يمكن أن يعبر عن فراقك
ليس ثمة من يسلي ألم فراقك
ثُقب قلبي بسيف الهم
أنبئه أنني أنوح الفراق كالناي».

لنلق الآن نظرة على الرسائل التي أرسلتها السلطانة حرم لزوجها السلطان سليمان.

في الفترة التي خرج فيها السلطان سليمان في حملة عام 1526 ينتصر بداية في معركة موهاج، ثم يدخل بودين. ستصله خلال الحملة رسالتان من الخاسكي السلطانة حُرّم. لندقق ببعض مقاطع هاتين الرسالتين.

«**يا سلطاني وقطعة من روحي**،

يا مهدئ فؤادي المتأجج بالهم، ومرهم جرح قلبي، وسلطان عرش فؤادي. على الرغم من كوني أسعد من في الدنيا، فأنا أَمتك. أنت جنتي يا سلطاني حتى لو احترقت فيها مائة ألف مرة. الدنيا القاسية تظلم واحدة مثلي، وتطعنني بأنواع خناجر الفراق كلها، ولا ترحم دمع عيني المسكينتين. وإذا كانت الدنيا قد أبعدت وردتك السامية والأبدية عني لتحول رحمتك إلى عبء، وسلطنتك إلى همّ، وحياتك إلى تعاسة، فإن نيران الشوق إليك تتأجج في قلوب الأنس والجن. من المحتمل أن تسعف دموعي عناية الله، ومن الممكن والسهولة بمكان أن تجمعنا الحياة ونلتقي من جديد، وأحظى بإنهاء الفرقة والبعد!

يا شبيه يوسف وحلو العينين، أيها اللطيف سلطان دلالي! ليكن وجهي ممسحة على باب الله مقابل أن أحظى برؤية وجهكم المبارك بأقصى سرعة! يا إلهي، لو كانت البحار حبراً، والأشجار أقلاماً فهل تكفي لوصف هذا الفراق؟

إحدى رسائل السلطانة حُرّم بخط يدها

من يريد أن يعرف أحوال من يعاني الفراق فليقرأ سورة يوسف، فلا يمكن لغيرها أن يفسر الفراق.

يا سلطاني نور عيني! ليس ثمة ليل لا يحترق فيه العالم بنار تنهداتي. ليس ثمة سَحَرٌ لا يبكي برغبة رؤية وجهك الوردي، ولا يتمزق فيه العالم بتوسلاتي.

حولت نهارنا ليلاً أيها الشوق   الفراق صعب، آه منه واخ منه

آه يا سلطاني! لا تخفى نار الفراق. وأنتم أيضاً لا تحرمونا من رسائلكم وتتأخروا بالرد عليها. أرح روحي بها على الأقل.

جاريتكم الفقيرة الحقيرة خُرَم».

بعض المقاطع من رسالتها الأخرى إلى زوجها التي أرسلتها في إحدى الحملات:

«**سلطاني وسلطان سلاطيني!**

أرجو من لطفكم رحمة لأنيني الحزين، وعيني الدامعتين وقلبي المغموم، وبكائي وآلامي وحريقي؛ ليطعمني الله عدم فراق وجهكم الأكثر بريقاً من بريق الشمس ولأكن مروحة لديار النور.

يا سلطاني، وسلطان سلاطيني حبيب قلبي، وطريق روحي، وأملي في الدنيا والآخرة! ليبعد حضرة الحي الذي لا يموت عن ذات شرفكم جميع الآلام والأمراض السيئة، وليقربكم من لطفه غير المحدود، وحرمة ماء وجه الحبيب وبهاء الأولياء، ونصركم على الكفار وسحقاً لهم!

يا سلطاني، وصول خطابكم وكتابتكم الفرحة جعل جاريتكم تنهض من تحت التراب. بث كتابتكم النور في هاتين العينين الحزينتين، والسرور في قلبنا الحزين. يا سعادتي التي تداعب روحي كل يوم لا تتوانوا عن ترطيب خاطري. جاء رجل صالح يقول إنه حلم بأول الكائنات في كعبة الله. أمره فخر الكائنات عليه السلام: 'فصل قميصاً، وخط عليه هذه الأسماء لألبسه لمن هو في غزوة.'

نفذ الأمر الوصية. وتفقده الشهرستاني. ثم أخذه لأمره قوجا. وأرسله أمره قوجا إلينا. وأنا أرسلته إليك. حباً بالله تعالى وبحرمة رسوله لا تتوانَ عن لبسه».

وكما يُرى هنا، فإن السلطانة خُرّم في رسالتها هذه تروي بأنها جعلت رجلاً صالحاً مخلصاً لله قادماً من الأرض المقدسة يفصّل قميصاً مُحرَّزاً، وتصر عليه لكي يرتديه. تهتم بالدعاء، وتؤمن بحفظ الله، وتحترم أحباب الله، وهي مرتبطة بهذه القيم ومحترمة لها إلى درجة أنها تفصل قميصاً مُحرَّزاً.

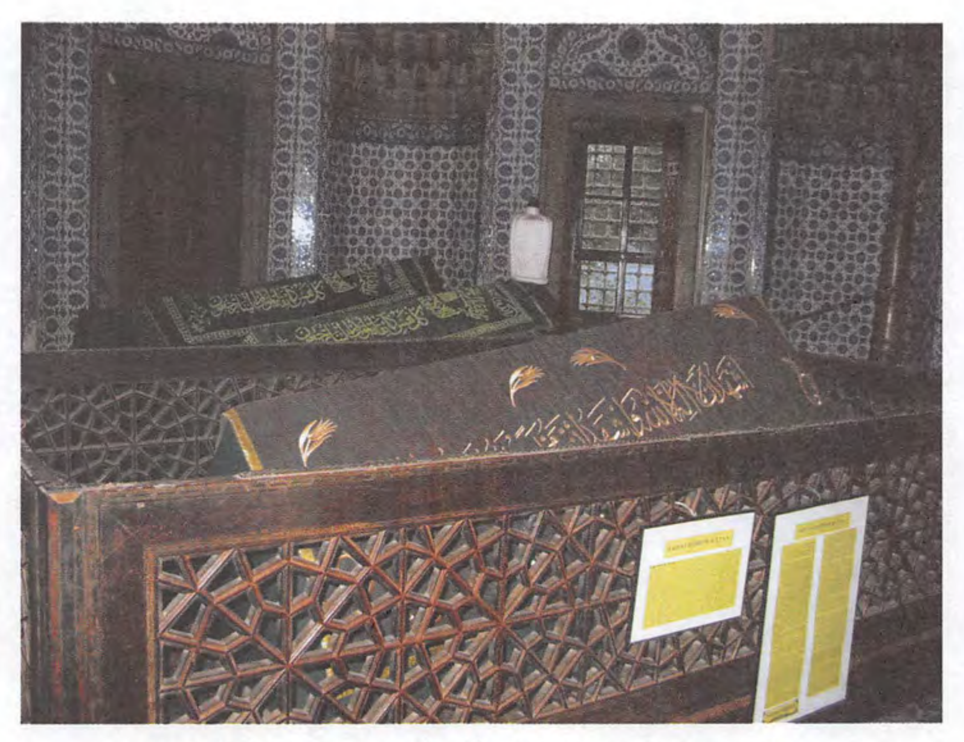
غالبيتنا اليوم نفكر بحياة الماضي كما هي حياتنا اليوم. يحل المساء، وينتهي الدوام، المرأة ترعى الأولاد في البيت. ولكن المراحل والحياة تقدم شروطاً تجعلها لا تتشابه فيما بينها. خاصة إذا كان الشخص سلطان دولة عالمية. والقانوني حقيقة أكثر حكام العالم حركة. إذا تركنا حملاته الكثيرة جانباً، فهو لم يكن من النوع الذي ينزوي في قصره بعد عودته من الحملة. ينزل في أدرنة إذا كانت عودته من أوروبا، وينزل في غبزة إذا كانت عودته من الأناضول، ويقوم بأعمال هناك على مدى أشهر. يُخرج الجيش إلى صيد المطاردة، ويحدد بعض الاستراتيجيات. وحتى إذا جاء إلى قصر اسطنبول، فإن السلطانة خُرّم لم تكن تعيش في قصر طوب قابِ حينئذ، بل في القصر العتيق الواقع في بيازيد. ولم تكن تستطيع القدوم إلى القانوني إذا خطر هذا ببالها دون أن يذهب إلى هناك. وبعد عودة السلطان سليم الجبار من حملة مصر التي دامت أكثر من سنتين، وإقامته في قصر طوب قابِ، رآه حسن جان، فنبهه التنبيه الشهير: «سلطاني، أليس هناك من أهملته؟» بالنتيجة أنهم لم يعيشوا مثلنا. كان السلطان سليمان يقصر بإرسال الرسائل إلى إسطنبول أثناء صراعه مع العالم. لاحظوا أنني لم أقل لقاء وجهاً لوجه، ولا أقول عيشاً مشتركاً، أقول الرسائل فقط. وحتى هذا كان مهماً جداً بالنسبة إلى المرأة! هذا يعني أنه يحبها، ويفكر فيها، ولم ينسها، وهي بباله هناك! أسأل هل هناك امرأة تفكر بزوجها على هذا النحو اليوم؟ بالطبع فإن السلطانة حرم أيضاً تفكر فيه، وتشتاق إليه، وتعاني من الفرقة، وتقلق قلقاً عميقاً حين لا تصلها رسائله. هل تريدون دليلاً؟ أقول ألقوا نظرة على الرسالة الآتية:

«حضرة سلطاني،

بعد السجود على الأرض وتقبيل التراب الذي تطأه قدمكم المقدسة، يا شمس دولتي ورأسمالها، إذا سألتم عن أَمَتِكم فإن كبدها يشوى بنار هذه الفرقة، وصدرها خرب، وعيناها طافحتان بالدمع، ولا تميّز نهارها عن ليلها، بائسة واقعة في بحر الشوق، وجنونها فاق جنون فرحات وقيس لأنها بعيدة عن سلطانها. إنني أنوح كالبلبل، ولا يهدأ تنهدي، وحالي حال لا أذاقها الحق لعباده الكفار. يا دولتي وسلطاني، لم أتلقَ منكم خبراً منذ شهر ونصف. الله الحق أكثر العارفين أنني لم أر الراحة هذه المرة، وأبكي من المساء إلى الصباح، ومن الصباح إلى المساء، وقد يئست من حياتي، وضاقت الدنيا في نظري، لا أدري ماذا أفعل».

ليس ثمة معطيات كثيرة لدينا حول عالم السيدات العثمانيات بسبب حياتهن المحرمة عدا أعمالهن وأوقافهن ورسائلهن وأشعارهن وحتى بعض أغراضهن الخاصة. والتحليل المعتمد على هذه الأشياء يبين بأن السلطانة خُرّم ليست كما تبدو في ملاحظات الأوربيين البعيدة، أو ما طرحه المعارضون في تلك الفترة. إن هذه السيدة صاحبة أكبر أعمال خير وكرم في التاريخ الإسلامي، ومن الغريب جداً استنباط أنها معارضة للأمير مصطفى من رسائلها. بحسب رسائلها التي ترسلها إلى زوجها، فهي تبدأها بسلام رفيع المستوى، ثم تتحدث عن أولادها، وحتى إنها تتحدث عن مرض جيهان غير وجروحه التي لا تندمل. أيّ منا لا يفتح الحديث عن الأولاد عندما نتحدث مع زوجاتنا؟ إذا اتصل أحدنا بزوجته وكان بعيداً عنها، هل يقول لها على مدى ساعات إنه يحبها؟! ألا ينتقل الموضوع فوراً إلى الأولاد؟ مثل: «الولد الفلاني معه غازات؟ أنف البنت يسيل، لا أدري ما لها، وما إلى هناك». وهي أيضاً تتحدث طويلاً عن أولادها، وفيما بعد تنقل تحياتها إلى الأمير مصطفى ابن الخاتون المهدفيران غولبهار.

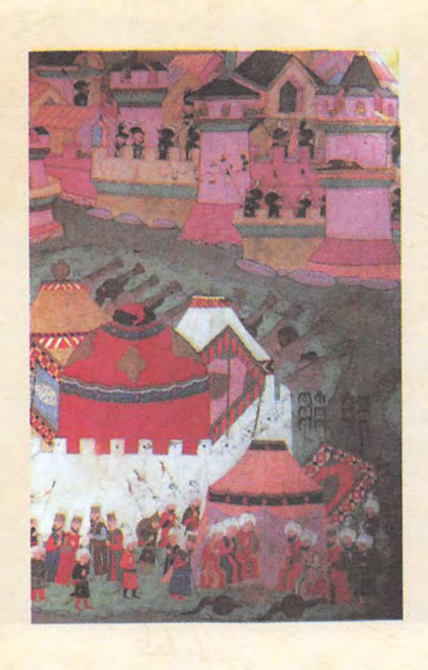
الجانب الغريب بالأمر أن السلطانة خُرّم تطلب من زوجها في رسائلها دعماً مالياً. ولكنها لم تطلب هذا من أجل ثوب حريري أو حلي مرصعة بالجواهر، بل لعدم كفاية بعض مصادر تمويل أعمال الخير التي أمرت بعملها. تطلب دعماً مالياً لأن الدخل المالي لم يغط نفقات بناء حمام الخاسكي الذي أمرت ببنائه



المشهد الداخلي لقبر السلطانة حُرّم في باحة جامع السليمانية

أمام جامع أيا صوفيا. وهذا يرينا بأنها لم تستخدم أموال الدولة من أجل أعمال الخير ابتغاء وجه الله. لأن الخير لا يجوز بأموال الآخرين. ستخرج هذه النقود من جيب الشخص، ويؤلمه إنفاقها. وهكذا تكون التضحية. وكانت السلطانة حرم تموّل أعمال الخير التي تقوم بها من دخلها. وعندما تتضايق كثيراً، تطلب من زوجها عبر رسالة كما ذكرنا.





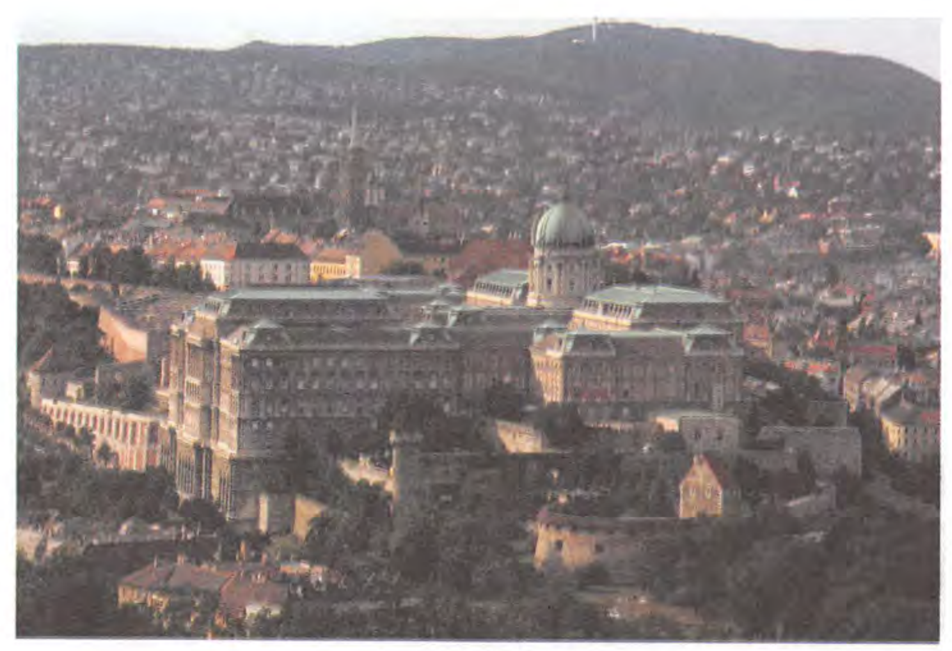
حصار فيينا عاصمة أوروبا

أعلن السلطان سليمان جانوس زابوليا الذي لم يشارك في الحرب ملكاً على المجر مكان لايوش الذي قتل في معركة موهاج. قبل به بعض نبلاء المجر، ولم يقبل به البعض الآخر. كانت شقيقة الملك لايوش المقتول متزوجة من فرديناند حاكم ألمانيا باسم أخيه الأكبر كارل. بسبب هذه القرابة رأى فرديناند نفسه وريثاً شرعياً للمجر. ولم يعترف بزابوليا، واختاره نبلاء المجر ملكاً على المجر، ثم سيعد لهجوم عليها من أجل أخذها.

تنتصر قوات فرديناند في الحرب مع جانوس زابوليا، ويهرب الأخير إلى بولونيا. تسقط بودين وما حولها بيد فرديناند. يرسل سفراء إلى السلطان سليمان، ويعرض عليه السلام مقابل التخلي عن المجر له، ولكن السلطان سليمان يرفض هذا العرض، ويخرج في حملة.

قوس فرانسوا المشدود

غادر السلطان سليمان اسطنبول في 10 أيار/ مايو 1529،



قلعة بودين

ودخل الأرض المجرية في شهر آب/ أغسطس، وتنضم وحدات زابوليا إلى الجيش، ويبدأ حصار قلعة بودين في مطلع أيلول/ سبتمبر. ويستسلم من في داخلها خلال فترة قصيرة. وخلال الأيام نفسها يزور كبير سادة بوغدان السلطان سليمان في مقر القيادة، ويبلغه بانضوائه ضمن تابعيته.

استعيدت بودين، ولكن الهدف هو إيذاء بعض شرايين حياة روما المقدسة. الهدف هو فرديناند. كان فرديناند يتهرب من المواجهة مع العثمانيين، والطريقة الوحيدة لإخراجه هي حصار عاصمته. يتخذ القانوني قراراً بحصار فيينا، ويعيّن حسن بيك قائد سنجق ألبصان قائداً لحرس بودين، ويغادرها لحصار فيينا.

كان للمجرين تاج خاص بهم. يتألف هذا التاج من تاجين أحدهما فوق الآخر، ويحمل قداسة، وهو مهم إلى أبعد الحدود من أجل المملكة. كان التاج يحفظ في إسترغون، وتم تهريبه بأمر من فرديناند. وقوع هذا التاج بيد فرديناند الذي أعلن نفسه ملكاً على المجر يقويه إلى أبعد الحدود. يجب ألا يسمح العثمانيون بهذا. يرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا أمراً إلى بالي بيك يطلب منه التاج مهما كلف الأمر. وبواسطة شبكة مخابرات قوية يتمكن من ملاحقة الذين هربوا التاج،

ويقبض عليهم لحظة محاولتهم الدخول إلى فيينا. يستعاد تاج الملك المجري، ويتوج زابوليا بيد قائد الموقع الإنكشاري. لم يتوج السلطان سليمان ملك المجر الذي يختاره بيده أو بيد صدره الأعظم، بل بيد من يعادل وفق قواعد البروتوكول قائد سنجق، يعطي معنى عميقاً لنظرة البروتوكول العثماني لملك أوربي.

أثناء تقدم الجيش نحو فيينا، كانت وحدات الطليعة قد اقتربت كثيراً من المدينة. يهزم حاكم سنجق سمندرة محمد بيك الوحدات الألمانية المتمركزة بجوار فيينا. نَقَلَ القادة العسكريين الواقعين بالأسر إلى الوحدات العسكرية الأساسية من أجل التحقيق معهم.

مجيء السلطان سليمان بجيش ضخم إلى أمام أبواب فيينا أجج انفعالاً وخوفاً كبيراً في أوروبا. لأن فيينا كانت مهمة جداً بالنسبة إلى أوروبا في تلك الأيام. فقد كانت عاصمة أوروبا الواقعة شرق فرنسا كلها. تقدم العثمانيين هذا أجبر الدول والمجتمعات التي تخوض حرباً داخلية دموية مع الحركة اللوثرية (البروتستانتية) على السلام والوحدة. وتصل الوحدات التي استعدت لمواجهة العثمانيين إلى المدينة قبلهم، وتخلي المدينة، وينزل فيها الجيش. يهرب فرديناند نتيجة جبنه المعروف، ويوكل مكانه الكونت نيكولاس فون سالْم. اتخذ هذا العسكري المهم جداً بعض الإجراءات ليجعل المدينة منيعة تماماً.


ملك ألمانيا فرديناند شقيق كارل

يبدأ حصار الأسوار العتيدة المتعرجة المحيطة بفيينا. ويستمر الحصار 17 يوماً بالضبط. تخربت الأسوار كثيراً. ولكن المدفعية المستخدمة لم تكن مدفعية حصار ثقيلة، بل مدفعية صغيرة مناسبة لحرب الميدان. لأنهم لم يأتوا إلى هنا لأخذ المدينة، بل لمواجهة فرديناند. ولم يخرج لمواجهتهم كما يحدث دائماً، ويحاصر السلطان سليمان المدينة من أجل جذبهم إلى معركة ساحة. يفقد الكونت سليم حياته أثناء الحصار.

كان من الممكن أخذ القلعة في الأيام القادمة، ولكن الشتاء حل بثقله. بعد فترة تأكد خبر عدم



كان هذا خاناً تعرض لخسائر كبيرة أثناء الحصار العثماني. فقد تخرب نتيجة إمطاره بالقذائف. وقد وجدت هذه المقذوفات الثلاث بين أنقاض الجدران أثناء ترميمه عام 1963، ووضعت هنا ذكرى لتلك الأيام



قبور عثمانية على سفوح قلعة بودين



مجسم مدينة فيينا

وجـود فردينانـد فـي المدينـة. بالنتيجة يقرر فك الحصار. ولكن في سـبيل تلقين روما المقدسة درساً تشن الطليعة هجماتها على المساحة الممتدة من بافييرا إلى بوهيميا، ومن سلوفاكيا إلى سلوفينيا، وتدخل إلى رينغسبرغ وغراتس في النمسا ومن هناك حتى بيرن داخل سويسـرة. الهدف تلقين شـارلكان (شـارل الخامس- كارل) درسـاً، وتمريغ مكانة هذا القائد على طريق تأسـيس الوحدة الصليبية في الأرض.

بعـد الحملـة، يلتقط سـفراء شـارلكان أنفاسـهم في اسـطنبول فعـلاً. ولكن شروط السلام المطروحة لا تطمئن العثمانيين. طلب شارلكان اعتراف العثمانيين به إمبراطوراً، وموافقتهم على ملكية شقيقه فرديناند الذي يحكم ألمانيا باسمه على المجر ضمن الشروط التي تضعها الدولة العثمانية. كان رد الصدر الأعظم إبراهيم باشا حاداً إلى أقصى الحدود. عندما لم يستطيعوا إقناع العثمانيين بهذه الطريقة، عادوا لتجربة الضرب والهرب من جديد. يحاصر فرديناند في ذلك الشتاء بجيوشه بودين. ولكن محمد بيك ابن عمة السلطان سليمان يهرع للمساعدة، وتهرب هذه الجيوش، حتى إنهم يلاحقونها إلى داخل الأراضي النمساوية.



الراهب فوق كاتدرائية القديس ستيفان في فينا «القديس جون لكابيسترانو يعظ الناس محرضاً ضد الحصار العثماني أثناء حصار بلغراد عام 1456 وهو في السبعين من عمره» ويدوس جندي عثماني مقتول ومعرى تحت قدميه

عداوة العثمانيين والإعجاب بهم

لقن السلطان سليمان إمبراطورية روما الجرمانية المقدسة درساً مؤثراً آخر في حملة عام 1529. هو عاد عن أبواب المدينة، ولكن تعالوا لندخلها نحن. ومثلما ذكرت سابقاً، فقد كان مركز ألمانيا فيينا وليس برلين. وفي الحقيقة، إن فيينا كانت في تلك الأيام مركز الإدارة الأهم للعقلية الصليبية. وتشكل كاتدرائية القديس ستيفان أهم بناء ديني لهذا المفهوم. يخطر ببال أغلبنا أن الكنيسة الأهم للعالم الكاثوليكي هي كنيسة القديس بيير في روما. لقد أنشئت كنيسة القديس بيير بعد كاتدرائية فيينا بوقت طويل. لقد تماهت هذه الكنيسة بالعداء للعثمانيين والإسلام إلى درجة أنه تم إنشاء غرفة مزار خاصة للأمير يوجين الذي ألحق أول هزيمة بالعثمانيين بعد حصار فيينا الثاني. إذا وقع طريقكم على فيينا ذات يوم، زوروا تلك الكاتدرائية الواقعة في قلب المدينة. ألقوا نظرة على لحد أوجين





نحت بارز يستخدم حجر عقد قناطر الأبواب، ويسمى «توركنكابف» رأس تركي

المدفون هناك في الغرفة الواقعة عند بداية يسار رواق المذبح. حاولوا تخيل عظمة هزيمة العثمانيين وكم يحمل هذا الأمر من أهمية بالنسبة إلى الأوربيين.

أريدكم أن تدققوا أيضاً بالنحت البارز والتماثيل على واجهة كاتدرائية القديس ستيفان في فيينا، وخاصة تلك التماثيل على الجدار الشمالي الشرقي من البناء. إذا نظرتم بدقة سترون راهباً لاتينياً يدوس بقدميه جندياً عثمانياً مقتولاً ومعرى وقد نثرت أسلحته في كل الجهات، وسقطت عصبته ذات الأهلة الثلاثة خلفه، ويُصور على أنه ذليل. يجب ألا يفاجئكم هذا المشهد، لأنه يمكنكم أن تروا شبيهاً له في أربع أرجاء أوروبا. اذهبوا إلى مدينة ريغنسبورغ الألمانية إن شئتم. سترون تمثال دون جوان المحفور وسط ساحة ليبانت في قلب المدينة. يدوس على رأس مقطوع لصدر أعظم عثماني بلفة ولحية. أو عرجوا على غنت في بلجيكا. إنها مسقط رأس كارل إمبراطور روما الجرمانية. دققوا بالتمثال المنصوب في الساحة التي يقع البيت الذي ولد فيه. سترون رأساً يدوس عليه بقدمه على الرغم من أنه دخل القبر حياً نتيجة تضييق القانوني عليه. لم ينته، ادخلوا إلى مدينة ليون الفرنسية. تملأ رسوم الجدار الأيسر لكاتدرائية ليون المطلة على المدينة وهي تعود لهزيمة ليبانت.

لا تنسوا أبداً أنكم ترون لوحة إعلانية أمام الجدار أثناء نظركم إلى الرسوم المهينة إلى أقصى الحدود. التقطت اسم «Lepanto» بين الجمل الفرنسية. أي ليبانت. تجمد دمنا عندما سمعنا ترجمة صديقنا المرافق لنا ويجيد الفرنسية. كان إعلاناً عن قداس احتفالي لمناسبة ذكرى معركة ليبانت بعد أسبوع يقام في هذه الكنيسة. وكما نعلم فإن ليبانت هي معركة بحرية أحرق فيها الأسطول العثماني في عهد سليم الثاني. كان العثمانيون في تلك الفترة يراعون الفرنسيين كما يراعي الإنسان طفلاً في المهد. إذا أطعم المرء حيواناً على بابه، فإن ذلك الحيوان يعرف



جامع أمر ببنائه كارل تيودور فيلب أمير بفالتس وبافييرا
في حديقة القصر الواقع في مدينة منهايم شفتزنغن

الصحن الذي أكل منه وصاحبه، لذلك فإن عدم وفاء هؤلاء مثير للدهشة.

هذا يعني أن دينهم ينظر بمهانة إلى العدو، ويعرضه ذليلاً حتى لو كان إنساناً، وزينوا أبنيتهم الدينية من كل أطرافها بهذه الأمور. من جهة أخرى لا يمكننا أن نرى رسماً واحداً من بين عشرات آلاف المنمنمات العثمانية الموجودة لدينا يوضع فيها رأس عدو تحت الأقدام. لأنه وفق معتقداتنا وأعرافنا يبقى الإنسان إنساناً، ويستحق الاحترام حتى وإن كان عدواً.

يمكننا ضرب المزيد من الأمثلة على احتقار الأوربيين للعثمانيين. ولكن دعونا نرى المشاهد التي يبدون فيها إعجابهم أيضاً. أي هل كان المجتمع المعادي بشكل دائم، في الوقت نفسه يبدي إعجابه أيضاً؟ نعم، هذه هي الحالة النفسية لأوروبا في تلك الأيام. كان جلوس العثمانيين ونهوضهم ولباسهم وعاداتهم وآداب قصورهم وحماماتهم وكل ما لديهم يجذبهم. يتسابقون من أجل التشبه بالعثمانيين، ويفصلون ألبسة تشبه ألبستهم، وينشئون قصوراً تشبه قصورهم. حتى إن هناك من أنشأ جامعاً في حديقة القصر على الرغم من كونه مسيحياً من أجل



لوحة لملك فرنسي على أحد جدران قصر فيرساي بلباس عثماني ويحمل بيده منديلاً

التشبه بالعثمانيين. ويمكن تقديم جامع بوست دام في عاصمة بروسيا القديمة، والجامع ذو المئذنتين في قصر شفتزنغن مثالين على هذه الحالة.

كان كارل (شارلكان) ملك أوروبا كلها تقريباً وقسم من شمال أفريقيا ومستعمرات أمريكا، ويصف سفيره بوسبيك القادم إلى اسطنبول الألبسة العثمانية بإعجاب. ويشرح أن الألبسة العثمانية تمنح الشخص مهابة، وهي بسيطة إلى أبعد الحدود، وتخفي بعض عيوب الجسم. في جولة على قسم الألبسة في قصر طوب قابِ، لا ينتبه الأحفاد إلى فتحة الأكمام، ويقولون «ما أطول أذرعهم!» لا يمكننا ألا نحزن لعدم استطاعة هؤلاء الأحفاد تفسير ألبسة أجدادهم. مع أن المرء عندما يقف واضعاً يديه على خصره أو صدره، ينزل الكم بفضل الفتحة حتى مستوى الركبة مانحاً مشهداً مهيباً أصيلاً.

لنتابع كلمات بوسبيك. بعد أن يصف الألبسة العثمانية بإسهاب، يقارنها بألبستهم، ويعتبرها مضحكة بسبب إظهارها الإنسان قصيراً ومنفوخاً. ولم يتوقف إعجابه بالعثمانيين عند حدود الألبسة، بل ينتقل إلى اعتباره أجسادهم صحية جداً بسبب صعوبة إيجاد الخمر لديهم، وشربهم الماء، كما أنه لا يُلاحظ وجود الميسر والدعارة. لا يمكن أن يحصل الكسالى وغير الموهوبين على الترقيات، ولا يوجد في المجتمع واسطة أو التماس، ويمكن للناس الحصول على المواقع المهمة بعملهم، وهذه الخصوصيات هي التي حققت السمو للمجتمع العثماني. على من يشوه رجال الدولة العثمانيين عبر تاريخهم والقول عنهم سكيرين ومرتشين أن يتعظ من هذه الجمل. لقد اعتمدوا إلى اليوم على ما يكتبه الكتاب الأوربيين.

وهـذه كلمـات لا يريدون سـماعها على لسان أوربي من الذين يثقون بهم كثيراً.

يُعجب سفير كارل العظيم بالتعاون في الحياة الاجتماعية العثمانية، فيشـرح عـن نـزل القوافـل والخانـات التي تقـدم الخدمـة لأصحـاب الحاجـة على الطرقـات، ويسـتضاف فيهـا الناس دون اعتبـار لموقعهـم أو دينهـم، ولا يقبـض من أحد أجرة لمدة ثلاثة أيام.



لوحة لملكة فرنسية على أحد جدران قصر فيرساي بلباس عثماني

لقـد كان لـدى المجتمـع الأوربـي فضـول شـديد للألبسـة العثمانيـة إلـى درجـة تنظيـم ليالي الشـرق مثل ما ينظم الحفـلات التنكريـة. عندمـا يقال شـرق اليوم فيخطر ببالنا فوراً شرق تركيا. كان شـرق أوروبـا فـي تلـك الأيـام هو نحن بكل مـا لدينـا، وكان الأوربيون معجبين بثقافتنا الشـرقية. كان الرجال يرتدون في ليالي الشـرق ألبسـة العثمانيين الرجالية، والنسـاء يرتدين الألبسـة العثمانية النسـائية. وكانوا يدوخون إعجاباً بارتداء تلك الملابـس ويقفـون أمام الرسـامين لكي يرسـموهم. ويمكنكم اليـوم رؤية لوحات لكثير من الملوك والملكات في قصور أوروبا باللفات والألبسة العثمانية. وأردت هنا تقديم نموذجين فقط مأخوذين من قصر فرساي في باريس. إن اللذين يبدوان في اللوحتين سـلطاناً عثمانياً وزوجته هما في الحقيقة ملك فرنسـا وزوجته، وما عليهمـا مـن ألبسـة هـي الألبسـة التي كانت تسـتخدم فـي تلك الأيـام في القصر العثماني. ولكن تفصيلاً مدهشـاً تضمنه إحدى هاتين اللوحتين. ما الذي يمسـكه الملك الفرنسـي بيده، ويدليه بعناية؟ إذا نظرتـم بانتباه سـتجدون أنه منديل. نعم، المنديل المعروف، المنديل الذي نمسح فيه أنوفنا. والسبب واضح...

لم يكن المجتمع الأوربي في تلك الأيام يعرف النظافة أو الاغتسال بشكل جيـد. ولا يقتـرب مجـرد الاقتراب مما يُسـمى تعقيم. ولـم يكـن ثمة تواليتات أو

آداب تواليتات. نقول اليوم لمن يخبص بفعل سلبي كبير: «لقد خبصت (Halt)!» أليس كذلك؟ هل تعرفون معنى هذه الكلمة المستخدمة على نطاق واسع؟ إنها تعني بالألمانية «قف». من أين أتت هذه الكلمة؟ كان الناس في أوروبا حينئذ لا يعرفون المرحاض، ويقضون حاجتهم في بيوتهم بوعاء خاص، ويقفون على النافذة، ويصرخون «قف» ويفرغونه. من يسمع هذا التحذير، يحاول أن يحمي رأسه مما سيلقى من الأعلى.

لم يكن الأوربيون يستخدمون المنديل في تلك الأيام أو يعرفونه. في الحقيقة أنهم لم يتعلموا استخدامه بعد. وأنا أكتب هذه السطور في الطائرة بين ألمانيا وتركيا، يتناهى إلى سمعي صوت نشق أنف باستمرار «أنا أسف جداً!»، وبالطبع يطلقه المسافرون الأوربيون الحضاريون جداً. لأن صدورَ بعض الأصوات المثيرة للاشمئزاز عن الجسم أمر طبيعي بالنسبة إليهم، ويمكنهم أن يصدروها وسط المجتمع.

حسنٌ، لماذا أتحدث عن هذا الآن؟ ليس لدي نية الاستهانة بمجتمع. هدفي هو عرض الفروق بين المجتمعات، وضرورة بذل الجهد الكافي من أجل أن يفهم الناس بعضهم بعضاً، أي من أجل أن يفهمنا أجنبي أوربي، ويفهم عاداتنا وتقاليدنا وماضينا وحساسيتنا نحو حياتنا بسهولة. ولأعرض هذا لكم عبر أمثلة مادية إن أردتم.



تمثال السلطان سليمان على قصر العدل في نورنبرغ الألمانية




زخرفة حامية حديدية ترمز للجنود العثمانيين من كنيسة أسرة هابسبورغ المالكة في فيينا

قبل سنوات نشر كتاب في تركيا. يُدّعى أن الكتاب يحكي عن الحياة الاجتماعية في قصر طوب قابِ. بالطبع بما أن الموضوع قصر طوب قابِ، فقد اشتريته فوراً. وفور مراجعتي الكتاب أُصبت بخيبة أمل. لأن الكتاب لم يكن سوى ملاحظات رحالة أوربي عاش قبل 300 سنة. من المؤكد أن قراءة ملاحظات رحالة أوربي مهمة. ولكننا بماذا سنفكر إذا عُنون الكتاب: «الحياة الاجتماعية في قصر طوب قابِ»؟ عندما نقرأ كتاباً كهذا نعتقد بأننا سنتعلم آداب القصر وقواعده. وإذا كان كاتب هذا الموضوع أوربياً غريباً تماماً عن عالمكم، فهل نحصل على نتيجة سليمة؟

أقرأ الكتاب، فأجد كل سطر من سطوره مزركشاً بالعداء للعثمانية. يقول الرحالة إنه عرّج على قصر طوب قابِ، وبالطبع لم يستطع الدخول سوى إلى حديقته الأمامية. ويذم طلاب القصر الذين رآهم هنا. يقول: «هؤلاء جميعاً كانوا مسيحيين، وأجبروا على اعتناق الإسلام». ويتابع مقدماً رؤيته: «ستنهار الدولة العثمانية قريباً، ويعود هؤلاء الشباب إلى المسيحية». ليس لدي ما أقوله إلى هنا. ولكن التفاهة الحقيقية تبدأ بعد هذا. قبل قليل كان يتحدث عن طلاب القصر الذين يقول إنهم منهم، ثم يقع بزلة لسان لا يمكننا إصلاحها على الرغم من مرور ثلاثة قرون: «طلاب القصر هؤلاء شحيحون إلى درجة أنهم لا يقدمون على



الخوارنة الذين يحرضون الناس ضد العثمانيين

إلقاء ما في أنوفهم على الأرض، بل يخبئونها في مناديل يحملونها في جيوبهم».

ها هو المنظر. طلاب القصر لدينا يمسحون أنوفهم بمنديل قبل ثلاثة قرون، ويخاطبون بعضهم بعضها بخطاب التفخيم وليس خطاب المفرد. من أين سيعرف ابن أوروبا المنديل؟ لماذا يخبئ ما في أنفه في منديل يحمله بجيبه بينما يمكنه

مسح أنفه بكمه أو إلقائه ما فيه على الأرض؟ هذا ما لا يدخل في عقله.

هل يمكنكم أن تتوقعوا من أوربي كهذا لا يستطيع تفسير استخدام المنديل أن يشرح حياة قصر طوب قابِ، والحرم بشكل معقول؟ لا يمكنكم أن تتوقعوا. سيفسر الأمور بحسب فهمه، وبصراحة سيشوه الأمور بشكل ظالم. ألم يفعلوا هذا على مدى سنوات طويلة؟ وقد ظهرت قضية شرب السلاطين للخمر، وكذبة أن الحرم مكان لمتعهم الخاصة، وجنون إبراهيم الأول كلها نتيجة هذا الموقف المسبق. السيئ في الأمر ليس ما يكتبونه، بل إعطاؤنا ما يكتبونه أهمية، وقولنا: «واخ، هذا يعني أن أجدادنا أناس سيئون لا يساوون شيئاً!». منعنا أرشيفنا، وضربنا القفل عليه، وحتى بعناه، ثم اعتبرنا سفسطة الأوربيين وهذيانهم حقيقة. تُحل هذه المعضلة عندما نبدأ برؤية تاريخنا عبر نظاراتنا. نحن أكثر من يعرف أنفسنا. عدسة الآخرين لا تؤدي سوى إلى تشويش رؤيتنا.





العثمانيون على أبواب ميونخ
(حملة ألمانيا)

لـم تكـن الإمبراطوريـة الرومانيـة الجرمانية المقدسـة تسـتطيع التحرك ضد العثمانيين على الرغم من امتلاكها إمكانيات غير محدودة وعدد هائل من الجنود. لنـدع التحـرك جانبـاً، فقد كانـت لا تجرؤ على الخروج لمواجهة العثمانيين. كان السـلطان سـليمان يقطع أحد شـرايين تلك الحياة الكسـولة المراوحة مكانها بكل ضربـة مـن ضرباتـه بعـد عودته من حصـار فيينا. باسـتعراضه القـوة يعطـي انطباعاً بأن كارل العظيم لا يشـكل قوة يمكن أن تخيف، وأن روما المقدسـة اسـم دون أي فعل، وهي إدارة مفرغة من الداخل.

كان الذيـن لـم يجرؤوا علـى مواجهة السـلطان سـليمان أثنـاء وجـوده وسـط أوروبا ينزلون إلى الساحات بعد انسحابه، ويداهمـون آلاف القـرى، ويكـوون قلوب



قلعة سيكلوس

عشـرات ألـوف النـاس، وفـي الوقت نفسـه يغذون سياسة العداء للعثمانيين.

كان فـوق رأس العثمانييـن فـي تلـك الأيام بلية إيران أيضاً. كان الشاه طاهماصب يفعـل مـا يفعلـه كارل فـي أوروبـا كأنهمـا توأميـن مـن بيضة واحـدة. كان هذا الحاكم المسـكين يخشى السلطان سليمان إلى أبعد الحدود، وكثيراً ما يخاطبه في رسائله بكلمة بابا، ولكنه لا يتردد في المشاركة بأي خطة لإسـقاط العثمانييـن. هـو أيضـاً بـدأ بحبك الحبائـل مثـل والده الشـاه إسـماعيل. عمل علـى عـدم الإفسـاح فـي المجال للسـلطان سليمان بالتنفس من خلال جمع أنصار له في الأناضول وتأجيج التمردات. كان الديـوان مؤمنـاً بضـرورة للتوجـه نحو إيران، ولكن يجـب ألا يخاض صراعٌ ضد عدوين في آن واحد. لابد من كبح كارل في أوروبا أولاً، ثم التوجه نحو إيران. نتيجة هذه الفكرة اتخذ قرار حملة ألمانيا عام 1532.

بدأ الجيش العثماني البالغ 120 ألف جندي بالتقدم. مع دخوله أرض المجر، انضم إليهم جنود خان القرم ليبلغ العدد 150 ألفاً. كان ثمة 600 مدفع تقريباً. بعد معركـة موهـاج أصبـح جـزء من أرض المجر تحت حكـم زابوليا، والجزء الآخر تحت حكم فرديناند الذي يحكم ألمانيا. دخل السلطان سليمان وجيوشه الأرض التي يحكمها فرديناند، ولكن لم يظهر أمامه أحد، ولم يرسل له أحد تحذيراً بأنه دخل أراضيه.

كان هـدف السـلطان سـليمان إلحاق هزيمـة ماحقة بالإمبراطوريـة الرومانية الجرمانية المقدسـة. ولكن لم يكن لدى الملك العظيم كارل أو شـقيقه فرديناند الجرأة. كانت أوروبا تتخبط يائسة إزاء هذا التقدم وعدم خروج أحد للمواجهة.

سيطر الجيش العثماني على الأرض المجرية التي كانت بيد فرديناند بداية، ثـم دخـل الأرض النمسـاوية، وفتـح كل القـلاع التـي كانت تعترضه. سـيكلوس

وغونس وكانيجة بابوجة وشبرون وغرادجاش وجيغا وزاجيسنة وبودغارد ونمتشة ليست سوى بعض تلك القلاع. تعتبر قلعة قانجة على سبيل المثال واحدة من أصعب القلاع في أوروبا. ولهذه القلعة الحصينة في تاريخ الحملات العثمانية مكانة خاصة.

أود أن تكونوا قد رأيتم هذه القلاع الحصينة، لأن فتحها حقيقة صعب، ولو رأيتموها ستقولون لا يمكن لجيش أن يفتحها إلا بعد حصار يدوم سنوات طويلة، ولكن السلطان سليمان فتحها براحة شربه فنجان قهوة. بالطبع فإن هذا النصر يعود إلى انضباط الجيش العثماني وعدم معرفته الملل بقدر ما يعود لقوته. من يتقدم نحو تلك الأسوار تحت مطر السهام ورشق الزيت المغلي لولا مفهوم عدم الخوف من الموت واعتبار هذا العمل خدمة كبرى للدين؟

بعد أن تقرؤوا هذه الأسطر أريدكم أن تقوموا بجولة في النمسا والمجر إن كانت لديكم الإمكانيات والوقت. عليكم أن تروا بشكل خاص بعض هذه القلاع التي عددتها والواقعة في نواحي بودابست اليوم. حينئذ ستفهمون بشكل أفضل التضحيات التي بذلها العثمانيون وعلى رأسهم السلطان سليمان في ذلك



باب قلعة ويشة غراد



قلعة ويشة غراد

الوقت. كلما ذهبت إلى تلك المناطق، أصطحب المجموعة التي معي إلى قلعة ويشة غراد الواقعة جنوب بودابست. إنها قلعة وسط جبال شديدة الوعورة وعلى رأس قمة حادة، ويكاد يكون فتحها شبه مستحيل. ذهبنا من تركيا إلى بودابست بالطائرة، ومن بودابست بسيارة فخمة مكيفة، ثم صعدنا درجاً طوله أربعين خطوة فأنهك الناس. أنظر فأراهم مرتمين كل في طرف، ويقولون: «أرجوك يا أستاذ، دعنا نرتاح قليلاً». ولكن السلطان سليمان أتى من اسطنبول مع جيشه الضخم إلى هذا المكان على صهوة الجواد. ونزلوا بين هذه الجبال في الخيام. وهذا يرينا بوضوح أن هؤلاء الناس ليسوا طلاب متعة كما يقال بهدف تشويه سمعتهم. وإلا ما عملهم في رؤوس هذه الجبال الحادة؟

كانت الجيوش العثمانية تتقدم في الأراضي النمساوية الألمانية. فجأة تحاصر المدينة النمساوية الثانية بعد فيينا وهي غراتس، وبعد فترة تسقط. على الرغم من كل هذه الفتوحات لم تجتمع المجتمعات الأوروبية. لأن المخابرات العثمانية القوية تؤجج الخلافات بينها، وتغذي الفرق والأحزاب، وتحول دون اتفاقها. سأتناول هذه القضية لاحقاً في الفصل الذي سأتحدث فيه عن مارتن لوثر.



أثناء تقدم الجيش العثماني بشكل ممنهج، كانت القوى الطليعية التي تتقدم الجيش داخل الأراضي الألمانية. كانت هجمات بالي بيك وقواته على ميونخ تقطع مرارة العالم المسيحي رعباً. بداية بدأ فرديناند يقدم ولاحقاً كايزر كارل عروض السلام. كانت العروض بداية مشروطة، وفيما بعد أخذ الوضع الجديد بعين الاعتبار فأصبحت العروض دون شروط.


شاه إيران طاهماصب

في الحقيقة إن السلطان سليمان لم يكن راغباً بالسلام بسرعة بعد وصوله إلى تلك المناطق. كان يخطط لإيلام روما المقدسة أكثر قليلاً. ولكن دولة شكلت خنجراً في ظهر الدولة العثمانية عادت إلى فعالياتها. كانت هذه الدولة التي تبدو مسلمة تتخذ موقفاً من المستحيل فهمه. إذا نظرنا إلى تاريخها، فنرى أنها على الرغم من كونها مسلمة فقد حاربت المسلمين دائماً. مثلاً لم تدخل في أي حرب ضد المغول. آوت الحشاشين ولم تعترض عليهم قط. ولم تبذل نسبة واحد بالألف مما بذله السلاجقة عندما كانت الحملات الصليبية تأتي الواحدة تلو الأخرى، ولكنها حاربت المسلمين في كل مرة، وكانت عنصر فتنة بينهم، وحرّضت الحركات الانفصالية. هاجمت بغداد مركز الخلافة العباسية مرات عديدة، وكادت تبتلعها لولا طُغرُل بيك. ولكنها ستغص بحرصها. دخلت بتحالف مع الصليبين ضد الدول الإسلامية. بدأ طاهماصب يعمل ما كان والده الشاه إسماعيل يعمله في عهد السلطان سليم الجبار. أجج التمردات في الأناضول، ويحرش بالولايات العثمانية الشرقية، واجتاح عشرات القرى وسفك فيها الدماء.

سيصدر السلطان سليمان قرارَ إنهاء حملة ألمانيا بموجب قرار الديوان السلطاني. وتبدأ مباحثات السلام التي كان كارل العظيم يطلبها على مدى أشهر، وتوقع اتفاقية اسطنبول الشهيرة عام 1533. بموجب هذه الاتفاقية يتنازل ملك ألمانيا فرديناند عن حقوقه في المجر، وتعتبر الأراضي التي وقعت بيد الجيش العثماني أراض عثمانية، وتدفع إمبراطورية روما الجرمانية المقدسة 30000 دوكا ذهبية ضريبة سنوية. أما المادة الأهم في هذه الاتفاقية فهي أن الملك فرديناند لن يعتبر بموقع موازٍ لسلطان السلاطين العثماني. أي أن فرديناند الذي يحكم



كارل العظيم يدفن نفسه بالحياة
بعد الذل الذي عاناه

المملكة الألمانية ويترأس التحالف النمساوي الألماني باسم أخيه الأكبر يعتبر نظيراً للصدر الأعظم العثماني.

الذهنية التي أسقطت الدولة الأموية في الأندلس يُجبرها سلطان مؤمن أتى بعد هذا السقوط بعدة سنوات على دفع الثمن، ويثأر للأندلس بشكل رسمي. المادة الأخيرة من اتفاقية اسطنبول هذه قهرت كارل العظيم (شارلكان) الجالس على عرش إسبانيا. نتيجة الذل الذي ذاقه، يدفن نفسه في الحياة وريث والدته إيزابيل التي أقسمت إنها لن تهدأ قبل أن يموت آخر مسلم على الأرض، وصاحب عرش روما الجرمانية المقدسة الوحيد، ويتنازل عن عرشه، ويعيش سنوات حياته الأخيرة منزوياً، ويموت قهراً ليس بعد زمن طويل، إنها أربع وعشرين سنة فقط...



اللقاء الكبير:
لجوء خير الدين بربروس باشا إلى العثمانية

انتهـت حملـة ألمانيـا بإخماد كارل لفترة على الأقل، وبعد أن أمّن السـلطان سـليمان ظهـره، التفـت إلـى الشـرق. لم تتوقف هـذه الدولة التي شـكلت عنصر فتنـة فـي العالـم الإسـلامي على مدى قرون عن لعب هـذا الدور. تعطلت خطط العثمانيين نحو العالم الأوربي كلها بسـبب طعن هذا الدولة من الخلف بشـكل دائم، لذلك يجب أن تُلقن درسـاً كدرس السـلطان سـليم خان بالضبط. لهذا قبل السـلطان سـليمان القانوني بالاتفاقية مع إمبراطور روما الجرمانية المقدسة كارل، وعـاد إلـى اسـطنبول مـن أجـل حملة الشـرق. بقي فتـرة في بيت العـرش، وبعد



استقبال السلطان سليمان خير الدين باشا



استعدادات جدية انطلق بحملة إيران. ولكنه قبل أن يخرج على رأس الجيش في حملة إيران أرسل جيشَ طليعة بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا.

في هذه الفترة يحدث اللقاء العظيم في اسطنبول. بحار ذئب تمكن من وضع البحر المتوسط في راحة كفه تدريجياً، تخلص من الطموح والتكبر ومتع الدنيا، وفتح أشرعته مستعداً لتقديم التضحية من أجل عقيدته بصفته قبطاناً بلقب باشا. أدار هذا الرجل ظهره للريح وكل ما كان يعتمد عليه، وانطلق إلى اسطنبول. بعد فترة قصيرة شهد قصر طوب قابِ حواراً غريباً يصغي إليه التاريخ بكل جوارحه. اجتمع سلطان البر بريس البحر، وحقق ذلك الحوار الخالي من الغرور وعقدة الموقع فوائد عظيمة للعثمانيين والعالم الإسلامي.

كان هذا الرجل متواضعاً كالتراب مع صديقه، ورمزاً للكبرياء أمام عدوه. عندما ذهب ليلتقي بالقانوني في شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 1533 بث الرعب ثانية في البحر المتوسط. انتقل من الجزائر إلى خليج جنوة، وسيطر على الأسطول الإسباني الراسي قرب سجيليا بالكامل، وعرف أثناء الطريق بأن أندريه دوريا في برفيزة فتوجه نحوه، واضطر دوريا للانسحاب. وفجأة يلتقي بالأسطول العثماني الذي سيُؤمن عليه بعد فترة قصيرة في نافارين. التقى بقبطان البحر أحمد باشا كمانكيش في ظل قذائف المدفعية، وفتح الأسطولان المتحدان أشرعتهما نحو اسطنبول. تدفق الناس إلى الساحل لرؤية خير الدين وأسطوله عند دخوله أول مرة


أندريه دوريا



إيزابيل تقدم مجوهراتها لكريستوفر كولومبوس تشجيعاً له لإيجاد مستعمرات

إلى اسطنبول، وكان لقاؤه مع قباطنته السلطان سليمان في اليوم الثاني يستحق المشاهدة.

إذا وقع طريقكم على قلعة بوضروم ذات يوم، وتجولتم في زنازين القلعة ستلفت نظركم لوحة على الجدار في مدخل تلك الدهاليز المخيفة والباردة. إنها قصة عائلة بحارة أبطال، فقد كان الريس أوروج (أوروتش) أسيراً في هذه الزنازين، وخاض الريس خضر (خير الدين باشا) مع فرسانه معركة من أجل تحريره.

كان يعقوب بيك والد هؤلاء البحارة الشجعان ذئاب البحر أحد فرسان محمد خان الفاتح. في عهده تم ضم جزر إيجة إلى الدولة العثمانية. شارك يعقوب شخصياً بفتح جزيرة ميدللي، وأقام في هذه

وداع ملكة كاستيليا إيزابيل لكريستوفر كولومبوس

الجزيرة من أجل تطويرها، وفيما بعد تزوج مسلمة من سكانها، ورُزق من هذا الزواج ببحارة عظماء هم الأخوة خضر.

بدأ أخواه أوروتش وإلياس بالتجارة البحرية. بعد فترة وقعا بالأسر لدى فرسان رودس. كانا في تلك الأيام بيد فرسان بوضروم. واعتباراً من ذلك التاريخ سيبدآن حياتهما في زنازين قلعة بوضروم. ويبذل الأخ الأصغر الريس خضر جهداً حثيثاً، وينقذ أخويه. بعد هذه الحادثة يترك الأخوة التجارة، ويبدؤون حرباً لا هوادة فيها ضد القراصنة المسيحيين. بعد وفاة الريس إلياس يتخذ الأخوان أوروتش وخضر من جزيرة جربة قاعدة، ويزيدان ضغطهما على شواطئ البحر المتوسط كل يوم. ستكبر أعمالهما بعد فترة، ويصبح من الضروري وجودهما تحت سقف أمير، فيتعاونان مع سلطان تونس محمد، فيمنحهما القلعة الواقعة في ميناء حلق الواد (La Gaulette).



في تلك الفترة كانت الدولة العثمانية تحت حكم السلطان سليم الجبار. كان لدى سلطان السلاطين رؤية مستقبلية حول ضرورة حصوله على قوة بحرية تعادل قوة الجيش العثماني البرية التي لا جدال حول تفوقها، فبدأ يولي اهتماماً لهذين الأخوين الخبيرين. ولن يدع الريسين أوروتش وخضر هذه الرعاية دون مقابل، فردا على السلطان بإرسال الهدايا.

في تلك الأثناء تأسس الحلف المقدس في أوروبا، وجلس على عرش إمبراطورية روما الجرمانية الممتدة من إسبانيا إلى المجر كارل (شارلكان). كانت حملات الاستعمار إلى العالم الجديد (القارة الأمريكية) قد بدأت في عصر جدته إيزابيل، وحققت دخلاً كبيراً بدأ يتدفق إلى خزينة العدو. كانت هذه الإمبراطورية المسيحية التي تحكم قوة بشرية كبيرة العدد وأرضاً مترامية الأطراف قد بدأت بالنزول إلى شمال أفريقيا، وتغدو خطراً متزايداً على العالم الإسلامي. وقد بدأ الأخوان الجريئان بالوقوف في وجه هذه القوة البرية والبحرية التي لا يمكن أن يُقارنا بها، خاصة أنها أصبحت أقوى قوة في الجزائر بعد أن احتلت مدناً منها مثل تلمسان وتنس ووهران وغيرها. كان عملهما هذا جهاداً كبيراً ضد المسيحيين، ولكن مع الأسف أن القادة المسلمين في البلدات المجاورة اتفقوا مع كارل، وبدؤوا بالهجوم على هذه القوة الجديدة في الجزائر. ستنشب معركة كبيرة، ويستشهد الريسان أوروتش وإسحاق. أُنقذ الريس خضر في اللحظة الأخيرة. كان السلطان سليم يراقب هذه التطورات كلها، ولذلك لم يتأخر بتقديم الدعم للريس خضر. وغير الدعم المالي والعسكري فقد منحه لقباً، واعتبره سيد الجزائر.

تؤسس دولة بحرية قريبة جداً من العثمانيين في شمال أفريقيا، وهذا لا يناسب كارل، مما جعله يحاول ربط شيوخ القبائل والسادة المجاورين بتقديم كل وسائل الدعم، وتحريضهم ضد الريس خضر. تثمر فعاليات التحريض هذه، ويتحالف سيدا تونس وتلمسان، ويهاجمان الريس خضر. قاوم الريس خضر هذه الهجمات فترة طويلة، وقهقرها، وهزم البحرية الإسبانية القادمة إلى شواطئ الجزائر لتقديم الدعم. سيضطر للخروج من الجزائر إثر هجوم تحالف الأعداء كلهم معاً،

محارب بحرية عثماني

وتستعاد الجزائر من جديد في السنوات الأولى من عهد السلطان سليم. ومع هزيمة إمبراطورية روما الجرمانية المقدسة لفرنسا القوية بحرياً في معركة بافيا عام 1526 بقي لديها عدوان كبيران. السلطان سليمان في البر، والريس خضر في البحر. وكان أندريه دوريا القوي الذي كان يخدم روما المقدسة في تلك الأيام يهاجم الشواطئ التي بيد الريس خضر ويضرب شواطئ مورا من أجل إفشال حملة السلطان سليمان على ألمانيا.

استقبل السلطان سليمان العائد تواً من حملة ألمانيا إلى اسطنبول الريس خضر. أطرى السلطان سليمان هذا البحار البطل، وأجلسه في مقامه، وأغدق عليه بالعطايا. في اليوم التالي حضر الريس خضر اجتماع الديوان، وأعلن قبطان البحر. ونتيجة ما قدمه حتى ذلك اليوم من جهد، وكفاحه ضد أعداء الإسلام، أطلق عليه السلطان سليمان اسم خير الدين. أصبح له اسم آخر غير بربروسا (ذو اللحية الحمراء) الذي كان يطلقه الأوربيون على أخيه الكبير وورثوه له، وسيذكره التاريخ باسم خير الدين بربروس.



جامع حلب الكبير

بُحث في ذلك الاجتماع وضع العثمانيين في البحار، وسياسة غرب المتوسط. ولكن ثمة شخص لم يحضر الاجتماع. كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد انطلق في المقدمة من أجل حملة إيران المقررة مسبقاً، ووصل إلى حلب. ثمة حاجة لموافقة الصدر الأعظم لربط الاستشارات بقرار. وبموجب رجاء السلطان سليمان ينطلق خير الدين باشا في اليوم الثاني على ظهر الحصان إلى حلب.

هذا المشهد فقط يكفي لإعطائنا فكرة عن أهمية الاستشارات في الدولة العثمانية. لو كان السلاطين العثمانيون يصدرون القرارات على هواهم، ويعدمون ويذبحون لماذا يُرسل خير الدين باشا على ظهر الجواد إلى حلب؟

كان خير الدين باشا قد بلغ الرابعة والستين من عمره عندما قابل السلطان سليمان. وتُرى لحية بربروس في المنمنمة التي تجسد هذا اللقاء بيضاء تماماً. المدهش في الأمر أن رجلاً بهذا العمر استطاع قطع المسافة بين اسطنبول وحلب على ظهر الحصان في عشرة أيام فقط. ويروي المؤرخ الرسمي عند نقله هذه الواقعة أنه لم يرتح سوى في قونية، ويصف هذه الاستراحة على النحو الآتي: «لم يجد سوى وقت تقبيل لحد مولانا!»

ويمكننا متابعة حياة هذا الرجل الورع، ورسوخ القيم المعنوية في كل تفاصيل هذه الحياة في كل سطر من سطور مذكراته. وقد كتب تلك المذكرات بطلب خاص من السلطان سليمان. يقول خير الدين باشا في مقدمة مذكراته: «طلب مني سلطاننا أنا الحقير لله أن أكتب ما عشته نثراً ونظماً، ونحن طلبنا من الريس مراد أن يكتبه». وبهذا يظهر تواضعه بتساؤله عن ضرورة الكتابة عن حياته. وأنا أقترح عليكم بشدة قراءة هذه المذكرات. اقرؤوها، وأقرئوها. وهكذا ستجدون الفرق بين القرصان الأوربي المقمل والملتحي وكريه الرائحة إلى درجة عدم التمكن من الاقتراب منه وعديم الأخلاق والبذيء اللسان، والقرصان المتوكل على الله الذي يتوضأ ويصلي الأوقات الخمسة، ويمضي ليله بالتهجد، ويتكئ إلى الله.

يروي في مذكراته أن رجاله جاؤوا أثناء إبحاره في سفينة، وقالوا: «يوجد في الأفق ست سفن معادية. هل ننسحب؟» فرد عليهم: «ماذا تقولون، هل تخاف الحدأة من ست إوزات؟ اتجهوا نحوها!» وإثر هذا يقول قرصاننا: «وبإذن الله هزمناها، وعندما عدنا إلى مكاننا مساء، توضأنا، وأمضينا الليل بالسجود



معركة بريفيزة البحرية

شـاكرين». مبيناً لنا حالته النفسـية بشـكل ملفت. ونحن طوال هذه السـنين نتبنى ما لفقه الآخرون عنا. ونأخذ نماذجهم عند التعريف بأناسنا. ولكننا ندرك خطأنا عندمـا نـرى هـذا الفرق العميق بيننا وبينهم. والآن صرنا نطرق مصادرنا من أجل معرفة أجدادنا.

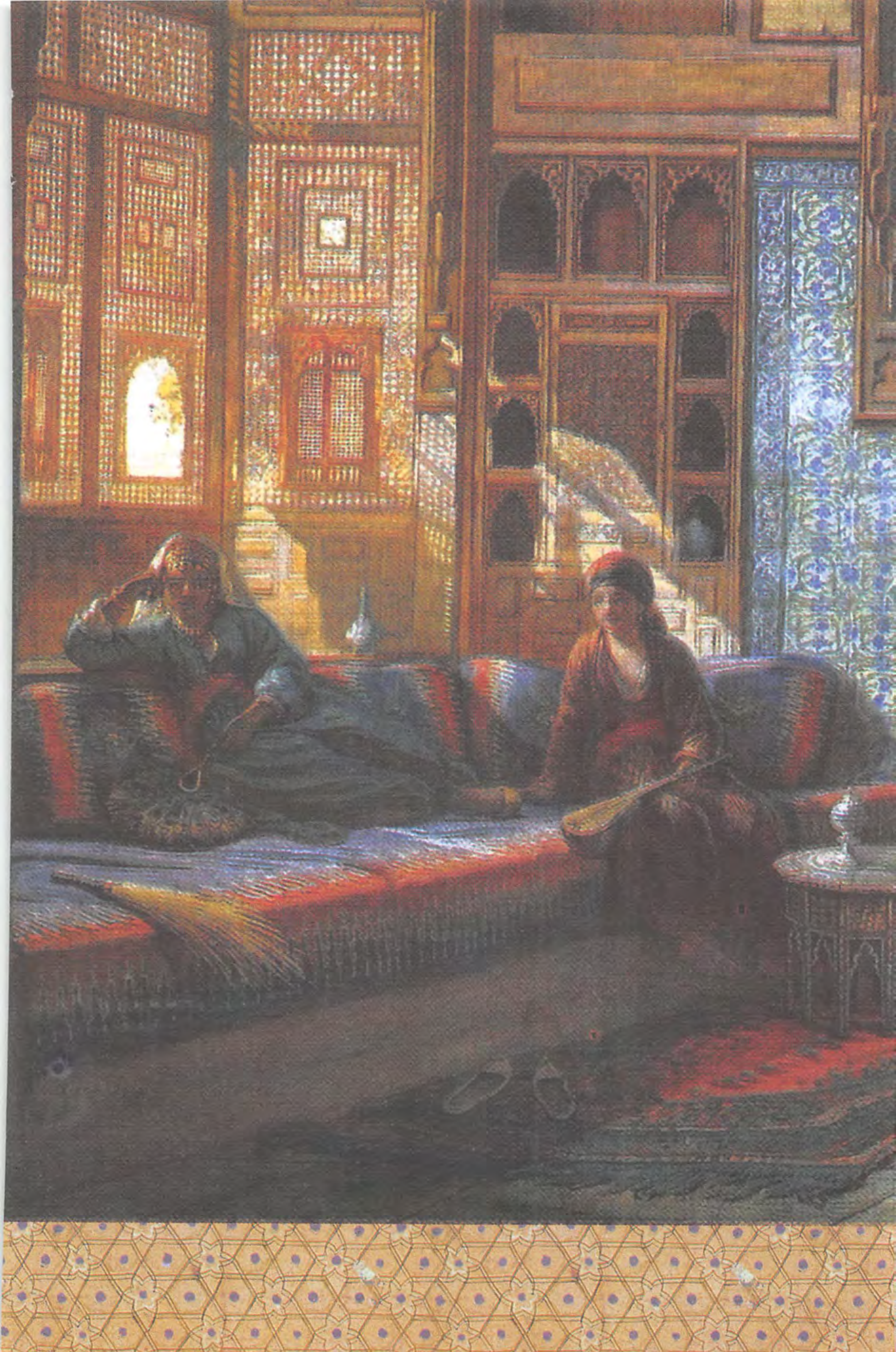
أخيراً، وبعد سـفر عشـرة أيام على ظهر الحصان من اسـطنبول إلى حلب، يقابل الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي انطلق في المقدمة من أجل حملة إيران. يبقى في حلب يومين فقط، ويقيّم المناقشات التي جرت في الديوان مع إبراهيم باشا، ويعطيها شكلها النهائي. أثناء هذا اللقاء تُناقش حملات ملكة إسبانيا إيزابيل المستمرة لاستعمار العالم الجديد. يقول خير الدين باشا للصدر الأعظم إبراهيم باشـا: «لو نرسـل نحن أيضاً عدة سـفن إلى العالم الجديد». يخبره إبراهيم باشـا بأن السياسـة الحالية ترتكز على البحر المتوسـط، ويضيف: «لننه مشـكلة غرب المتوسـط، ثم نهتم بتلك المناطق». لم يكن بالنسـبة إلى العثمانيين إرسـال عدة سـفن إلـى هنـاك أمـراً كبيراً. ولكن عدة السـفن تلك يمكن أن تتـرك آثاراً عميقة فـي تلـك الجغرافيـة وأناسـها. وهكذا تنتهي مغامرة العثمانييـن في العالم الجديد قبل أن تبدأ.

نحن بحاجة إلى تحليل سـليم جداً لرؤية خير الدين باشـا هذه. لو أمسـكنا ميكروفونـاً وأجرينـا لقـاءات فـي الشـارع مـع الناس، وسـألناهم: «هـل بربروس

عظيـم أم صغيـر؟» لمـا أجاب أحد أنه صغير، ولكن لو سـألناهم: «حسـنٌ، لماذا هو عظيم؟» أكثرنا سيقول: «لأنه انتصر في معركة بريفيزة البحرية، أو لأنه جعل البحر المتوسط بحيرة عثمانية» في الحقيقة أن الأمر ليس على هذا النحو نهائياً.

الأمـر الأساسـي الـذي جعل من بربـروس عظيماً هو أنه جاء عام 1533 إلى حضرة سـلطان في أواسـط عمره، وقال: «سـلطاني، أنا ورجالي وسـفني وذهبي وأرضـي لكـم». حبـاً بالله، انظروا فيما حولكم. بينما يعرقل الناس بعضهم بعضاً من أجل موقع وظيفي صغير اليوم، يأتي رجل بموقع ملك الجزائر، ويتخذ قراراً بـأن يتبـع العثمانييـن بـكل ما لديه. أي أنه يذيب شـخصه في الشـخصية العثمانية المعنوية. هذه هي العظمة الحقيقية!

لـو لـم يفعـل هـذا، ولو قال ما علاقتي بالعثمانيين، ليأت السـلطان سـليمان ويتبعنـي، لمـا ذكـر اليوم. من كان ليهتم بأمر بحّار سـيطر على الجزائر، وحكمها عشـرين أو ثلاثين عاماً؟ ولكن إذا شـعرنا بحرقة عند ذكر خير الدين باشـا اليوم، فهـذا ناجـم عـن الموهبـة التي منحه إياها الله، وتضحيته بغناه وما لديه براحة في سبيل الله.





وفاة السلطانة الوالدة حفصة

كان السلطان سليمان في حالة حركة لا تهدأ. عاد لتوه من حملة ألمانيا، وحيّد كارل العظيم فترة بموجب اتفاقية اسطنبول. والآن وجه نظره إلى الشرق، وبدأ يبحث عن طرق إزالة الفتنة الإيرانية. أرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى إيران في خريف عام 1533، وفور انتهائه من التحضيرات سينطلق هو أيضاً في طريق بغداد.

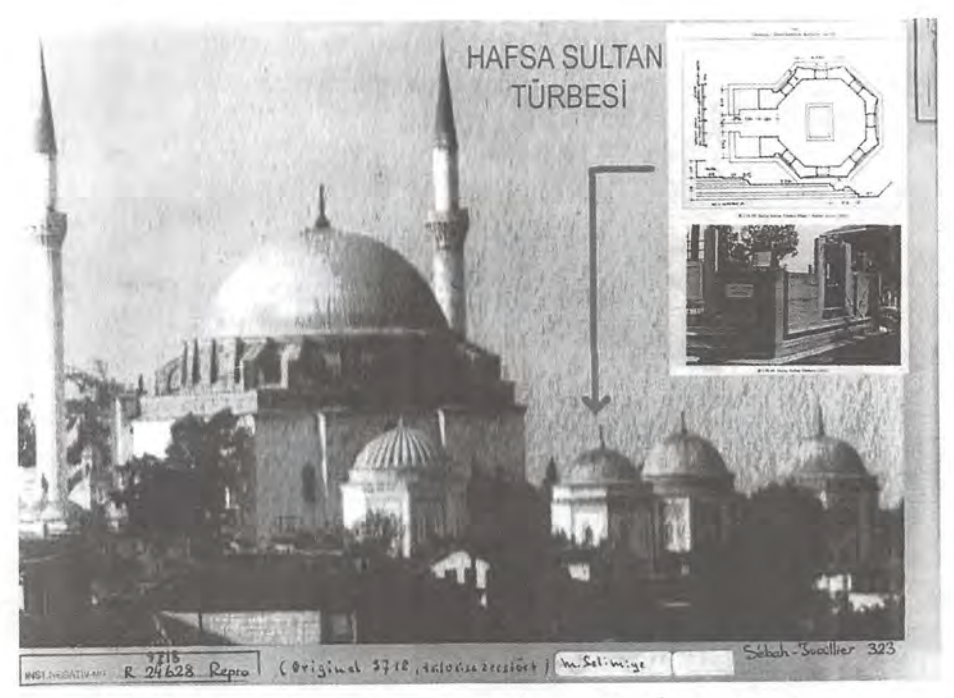
في تلك الأيام ينضم البحار الكبير خير الدين بربروس إلى العثمانيين، ويُرسل إلى حلب خلف إبراهيم باشا، ويُراجِع معه إستراتيجية البحر المتوسط. أكثر موضوع كان يبحث في القصر أثناء التحضير لحملة إيران هو مرض السلطانة الوالدة الذي لم تشف منه بأي شكل. يُعتقد بأن السلطان سليمان من المفروض أن ينطلق في الحملة بعد إبراهيم باشا مباشرة، ولكن مرض والدته هو الذي أخّر انطلاقه. وبعد وفاة والدته في شهر آذار من ذلك العام بفترة قصيرة ينطلق في حملة إيران.

كانت قد أصيبت بمرض أيضاً عندما كانت مرافقة لابنها الأمير سليمان، ولكنها نهضت من المرض بفضل معجون الشفاء الذي حضّره مركز أفندي، وها هي تسقط طريحة الفراش ثانية. يعتقد بأن السلطانة حفصة من مواليد عام 1479، ومعروف أنها من أتراك القرم، وهي سيدة قصر عثماني نموذجية. وكانت شخصية نموذجية بأدبها وتربيتها وحبها للخير وتضحيتها.

زُوجت للأمير سليم عام 1493، ولم تستطع البقاء مع زوجها الذي أحبته سوى ستة عشر عاماً. في العام التالي لزواجها ولدت الأمير سليمان، وذهبت عام 1509 إلى سنجق كفة مع ابنها. بعد ثلاث سنوات بالضبط جلس زوجها على العرش العثماني، ولكنها هذه المرة سترافق ابنها بمهمته إلى سنجق صاروخان (مانيسا).

وككل الأمهات اللواتي يصل أولادهن إلى سن الزواج أرسلت أخباراً لمن حولها من أجل البحث عن المرأة الأنسب له. ولأنها من القرم، فقد طلبت هذا الأمر من قصر القرم أيضاً. وتستخدم في قصر القرم أساليب تربية وعناية بالأولاد شبيهة بأساليب طوب قابِ. وكان بين الفتيات المحول دينهن واحدة تتميز عن الأخريات بوقفتها وذكائها وبشاشة وجهها. وتلقت هذه الفتاة تعليماً في قصر القرم فترة، ثم أرسلت إلى قصر اسطنبول. خضعت هنا أيضاً لتعليم قوي، وعرفت كيف تبرز في مدرسة القصر للبنات. وتُزوج هذه الفتاة التي أعجبت فيها كثيراً كما أعجبن فيها معلماتها لسليمان. هذه الفتاة هي السلطانة خُرّم. عندما نرى الآباء والأمهات يقولون «زيوان البلد ولا حنطة جلب» ساعين لتزويج أبناءهم من بنات قراهم تخطر ببالي دائماً السيدة حفصة.

بعد بقاء السيدة حفصة في مقام السلطانة الوالدة 14 عاماً، رحلت إلى رحمة الله الحق في 4 رمضان 940 (19/ 3/ 1534). أغمضت والدة سلطان الكائنات سليمان خان وزوجة السلطان سليم المحترمة عينيها على الحياة في الخامسة والخمسين من عمرها، ودفنت في التربة الواقعة أمام جدار جامعها في سفح تشارشمبة القبلي. وأمر ابنها السلطان سليمان خان ببناء قبة جميلة جداً فوق القبر. ولكن هذه التربة تنهار في زلزال عام 1894 الذي يعتبر أحد أكبر الزلازل التي تعرضت لها اسطنبول. وقد أمر السلطان عبد الحميد الثاني بترميم كثير



صورة لمنظر الخليج أمنتها جميعة أهالي قولالي وتبدو فيها تربة السيدة حفصة

من الآثار المنهارة (مثل مآذن جامع أورطا كوي وقسم كبير من جامع جيهان غير وغيرها) وقد خصص ميزانية لترميم تربة السلطانة حفصة، ولكن بعد إعلان المشروطية الثانية بقى الترميم عند حدود الأساسات بسبب مصادرة المخصصات. وبعد ذلك لم يهتم أحد بترميم تلك التربة.

بقيت التربة وسط خربة مكشوفة السقف، وفيها شجرتي سرو. وشكلت هاتان الشجرتان المزروعتان فيما بعد، ووصلتا إلى طول شاهق أكبر عائق أمام الجمعيات المانيسية التي تحاول ترميم هذه التربة. وبجهود جمعية أهالي قولالي تم تأمين صورة للخليج من باحث أثري ألماني، وتظهر فيها تربة السلطانة حفصة بكل وضوح. بفضل هذه الصورة تمت الموافقة على مشروع ترميم التربة.

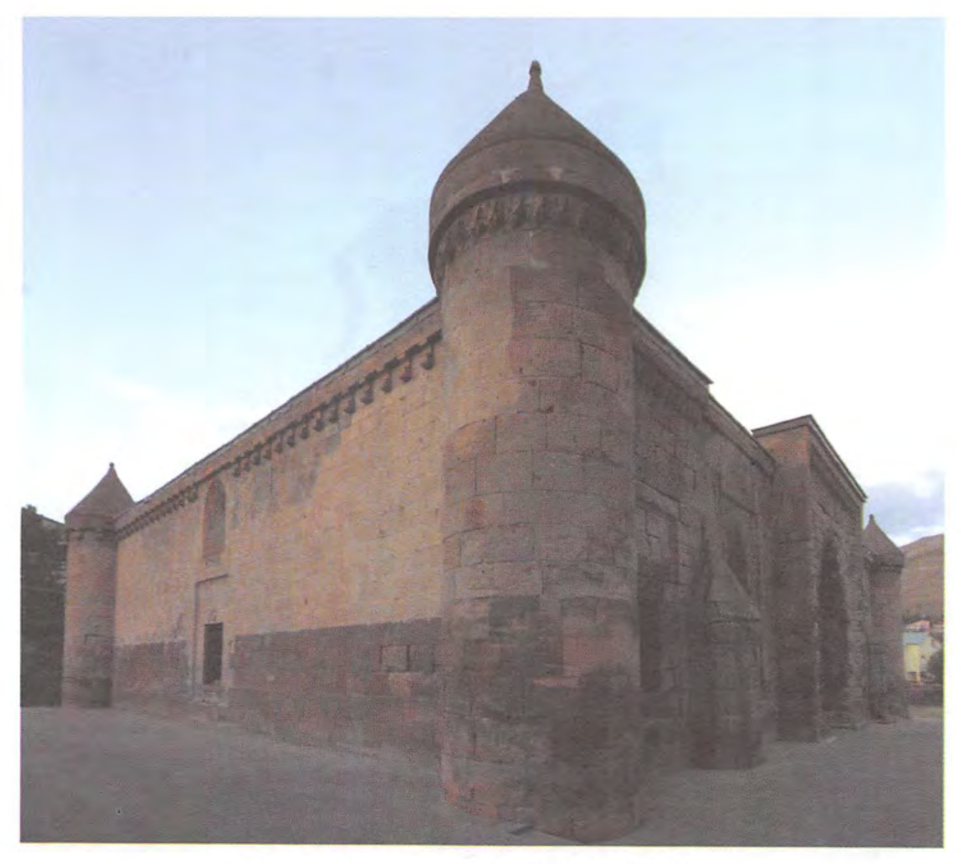




حملة الشرق الأولى

بتوقيع اتفاقية اسطنبول تمكن السلطان سليمان من تكبيل أيدي أوروبا وأرجلها لفترة على الأقل، وأنهى استعداداته في اسطنبول، وأرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا في المقدمة من أجل حملة إيران. برزت ضرورة حملة الشرق اعتباراً من سنة 1525. يقتل التركماني الأصل ذو الفقار بيك عمه إبراهيم خان سيد سادة بغداد، ويسيطر عليها بعد حصار قصير. ويتفق مع أهالي المدينة السنة، ويرسل مفاتيحها إلى السلطان سليمان، ويعلن هذه الأرض ملكاً عثمانياً. لم يقبل شاه إيران طاهماصب بهذا، وأتى بجيوشه، وحاصر بغداد. وبعد فترة يقتل ذو الفقار بيك، وتنتقل بغداد من جديد إلى أيدي الشيعة. لم يستطع السلطان سليمان الاهتمام بهذا الأمر كفاية لأنه كان في حصار فيينا (1529)، ولكنه يضع في جانب من عقله قضية تحرير بغداد.

كان الداعم الحقيقي لتمرد شاه قولو المندلع قبل عام من جلوس السلطان سليم على العرش عُلَمَا خان من تكة (أنطاليا)، ولاقى استحساناً من سيد سادة أذربيجان القريب من الشاه. ولكن بعض التطورات اللاحقة جعلت عُلما خان يدرك خطأه، ويتقدم بطلب لكي يتبع العثمانيين من جديد. يقبل السلطان سليمان الطلب،



مدرسة الإخلاصية العائدة لعائلة شرف خان في بيتليس

ويمنحه بيتليس التي جعلها منطقة سيد سادة إدارياً. لفت شرف خان الأنظار بتصرفاته المعادية للعثمانيين، ثم أعلن الولاء للشاه طاهماصب. ويأتي الشاه إلى بيتليس، ويباركه، ويعلنه أميراً على الولايات الصفوية هناك. يعتبر هذا الأمر حدثاً خطيراً جداً. قطعة أرض عثمانية تُعلن أنها ملك دولة أخرى.

يقدم نفسه السلطان سليمان جاهداً لإقامة السنة في قصائد بحر الغزل من ديوانه الموسوم 'محبي' والذي طبعته السلطانة عادلة ابنة السلطان محمود الثاني.

لنصرخ الله الله، ونرفع الراية
هيا إلى الشرق من كل حدب وصوب، ولنسحب الفرسان
لنتسلح بسلاحين أحدهما الإقدام
لننغمس بالغبار والتراب ونسحب الدواب.

فرض علينا أن نكون مسلمين
ونتحمل مشقة وتعباً كثيرا
دليلانا أبو بكر وعمر
يا محبي سر إلى الشرق واسحب الفرسان.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1533 يخرج الصدر الأعظم إبراهيم في حملة إيران، ويلحق به السلطان سليمان. وما إن وصل إبراهيم باشا إلى جوار قونية يصله خبر مجيء سيد سادة ديار بكر يعقوب باشا وعُلما باشا إلى بيتليس، ومقتل المتمرد شرف خان الرابع. في هذه الأثناء يصل شمس الدين بن شرف خان المقتول إلى إبراهيم باشا، ويشتكي له من الوضع. وهنا أيضاً يظهر دهاء إبراهيم باشا السياسي مرة أخرى. هل يتعاطف مع عُلما باشا الذي تمرد على العثمانيين وهو الآن يقف إلى جانبهم، أم مع ابن شرف خان الذي بقي مرتبطاً بالعثمانيين؟ يعطي إبراهيم باشا بيتليس وما حولها لشمس الدين الثالث. لأسرة شرف خان تأثير كبير على أهالي المنطقة لأنهم أداروها لفترة طويلة. لو ذهبتم اليوم إلى بيتليس ستجدون أن أهم مدرسة وجامع من آثار هذه العائلة. وسيبقى شمس الدين الثالث مخلصاً حقيقة للعثمانيين، ويحكم بيتليس بالعدل 41 عاماً بصفته والياً.

يصل إبراهيم باشا إلى حلب في شهر كانون الأول/ ديسمبر ويمضي فيها الشتاء، ويجتمع فيها مع بربروس باشا القادم من اسطنبول لهذه الغاية؟ ونتيجة المشاورات، تقرر التخطيط لفتح تبريز بعد أن كان يفكر بالتوجه نحو بغداد. في 14 أيار/ مايو 1534 يصل إبراهيم باشا إلى ديار بكر، ومنها إلى وان، وينتقل إلى



مقبرة آل شرف خان

تبريز عبر بنغول. يسلم أهالي تبريز المدينة دون حرب، ويعين إبراهيم باشا عُلما باشا سيد سادة تبريز في 13 تموز/ يوليو 1534.

يعامل إبراهيم باشا كل مدينة يفتحها باللين، ويتعلق الناس بالعثمانيين قلباً وقالباً بعد رؤيتهم ظلم طاهماصب.

يغادر السلطان سليمان اسطنبول في 23 حزيران/ يونيو 1534، ويوكل مكانه للأمير مصطفى.

وأثناء الرحلة لا يمر دون زيارة حضرة مولانا في قونية كما فعل خير الدين باشا، حتى إنه يحضر فيها عرضاً لدوران السما المولوي، ويهدي التكية منديلاً عليه زخرفة زنبق كبيرة.

بتاريخ 27 أيلول/ سبتمبر كان السلطان سليمان على أبواب تبريز، ودخل المدينة وسط اهتمام الناس واستقبالهم المهيب. يلتقي السلطان بإبراهيم باشا، ثم يتقدم إلى داخل إيران. وبالطبع فإن الشاه طاهماصب سينسحب إلى الأعماق أكثر مقابل هذا التقدم دون أن يبدي جرأة مواجهة السلطان سليمان. تقدم العثمانيين هذا جعل بعض رجال الدولة القريبين من الشاه يعلنون الولاء للعثمانيين.

أسس السلطان سليمان في تلك الأيام ولاية أرضروم، وعَين على رأسها محمد خان دوالقادر أوغلو. وفي الأيام التالية يفتح بغداد، ويعين سليمان باشا أوزون رمضان أوغلو سيد سادة عليها. وكما يُرى، فقد احتضن العثمانيون أصحاب المقاطعات الذين بدوا منافسين لهم في مرحلة ما ثم خدموهم بإخلاص، ولم يبعدوهم أو ينفوهم، بل عينوهم في أعلى المواقع. هذه هي الأسباب الكامنة وراء تطور العثمانيين.

تقرر عدم ملاحقة الشاه في تلك الجغرافية الوعرة بسبب حلول الشتاء، وقضاء الفصل في بغداد. ولكن هذا المسير كان محفوفاً بمصاعب جمة. خرب طاهماصب كل شيء تقريباً على الطريق. نفقت كثير من الحيوانات أثناء العودة إضافة إلى معاناة شديدة بنقل المدافع حتى إن بعضها دفن لصعوبة حملها لكي لا تقع بأيدي العدو.

بالطبع فإن هذا الوضع أزعج السلطان سليمان كثيراً. لا يبقى المذنب دون عقاب في الدولة العثمانية، ويطلب تحديد المسؤول فوراً. حُمل الدفتردار اسكندر جلبي مسؤولية هذا الأمر يومئذ. ولكن العلاقة بينه وبين إبراهيم باشا لم تكن جيدة. يعتقد إبراهيم باشا أن المسؤول عن هذه العوائق هو اسكندر جلبي، ويبلغ سلطان السلاطين بهذا الأمر. ولكن السلطان سليمان اعتبر إبراهيم باشا مسؤولاً عن هذه المعوقات وإن لم يظهر هذا بوضوح.

في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1534 تستسلم بغداد للعثمانيين، ويمضي السلطان سليمان الشتاء ويقيم فيها أربعة أشهر. كانت بغداد مدينة مباركة لكثرة آثارها القيمة وشخصياتها العظيمة، وبسبب هذه الخصوصية سميت برج الأولياء.

بغداد عاصمة العلم والفن التي أسسها العباسيون، وإحدى مدن العالم ذات الحظوة حتى هدمها المغول. بعد ذلك بقيت في ظل العقيدة الشيعية، وخربت كثير من الآثار العائدة لأهل السنة. جال السلطان سليمان على تلك القبور دون استثناء أثناء إقامته في بغداد. يزور قبر الإمام الأعظم أبي حنيفة ويجده في وضع مزرٍ، فيأمر بإعادة بنائه، وبناء جامع بجانبه. والتربة القائمة فوق قبر عبد القادر الجيلاني اليوم أمر السلطان سليمان ببنائها. يزور أيضاً قبور كبار أصحاب العقيدة الشيعية (مثل قبر الإمام موسى الكاظم)، ويري الجميع كيف يجب أن يكون القائد.



باب قلعة أخلاط، ولوحة تعود لعهد السلطان سليمان

تجـول السـلطان سـليمان فتـرة فـي المنطقة، ولكنه مع الأسـف لم يسـتطع القبض على الشـاه طاهماصب. يقلد قادة الشـرق هذه المرة تكتيك قادة الغرب. ينتقـل السـلطان إلـى أخـلاط عبـر تبريز، ومنها يذهب إلى ديـار بكر. وعادوا إلى اسطنبول في 8 كانون الثاني/ يناير 1536.

لأن الحملـة هـذه المـرة كانت لشـمال العراق وجنوبه (عراق العرب وعراق العجـم) فقـد سـميت حملـة العراقين. ضم مدينة إسـلامية مثل بغـداد إلى الدولة العثمانية أكسب الدولة العلية مكانة كبرى، وبهذا تحررت آخر قطعة أرض عربية من سيطرة إيران الشيعية.

بعد انسحاب السلطان سليمان بجيشه، عاد الصفويون، واحتلوا وان. ولكن لم يعد من السـهل عليهم التمسـك بقطعة أرض من شـرق الأناضول. لأن أهل المنطقـة، وخاصـة الكـرد حـددوا خيارهم مـع العثمانيين. وهنـا أريد أن أعرض مـا أثبتـه المرحـوم يلماظ أوزطونا: «انتقل التركمان بسـهولة إلى الشـيعية، ولكن الأكراد ثبتوا على تبعية أهل السنة، لهذا كانوا متمسكين أكثر من غيرهم بالدولة العثمانية».



السلطان سليمان في حصار تبريز

وهكـذا كان لعقيـدة المجتمع الكـردي مـن مواطنينا وأبنـاء دولتنا دور كبيـر بخدمة العثمانيين بشـرف علـى مـدى قـرون دون تمييـز باعتبارهم عنصراً أساسياً في الدولة غيـر منبوذيـن. ينتمي هـؤلاء الناس إلـى المذهب الشـافعي من مذاهب أهل السـنة، ولم يطعنـوا العثمانيين مـن الخلـف فـي أي وقـت، وعلى الرغـم مـن الألاعيـب الخارجيـة كلهـا فقـد اختاروا البقاء إلى جانب العثمانيين.





إبراهيم باشا المقبول والمقتول

ستبقى قضية إبراهيم باشا واحدة من القضايا المستعصية إذا لم يُفهم التاريخ العثماني بشكل جيد. مضى على العودة من حملة إيران شهران، قتل إبراهيم باشا الذي حظي بثناء السلطان نتيجة فتح بغداد، ووضعه في أهم مكان من حياته، وزوجه أخته السلطانة خديجة، وحتى إنه كلفه بثلاث وظائف معاً في حملة فيينا، ولهذا سمي «المقبول». مساء 6 آذار/ مارس 1536 دُعي إلى القصر دعوة اعتيادية. كان يُدعى إلى القصر في أغلب الأمسيات، ويبقى أحياناً في الحديث مع السلطان حتى منتصف الليل. وفي تلك الأمسية المصادفة 22 رمضان يبقى في القصر حتى ساعة متأخرة، ويستضاف هناك لأن الوقت قد تأخر كثيراً. ولكن سيقضى عليه في الغرفة التي بات فيها.

وقد أدهشت هذه الحادثة غير المتوقعة الناس كثيراً إلى درجة أن رسالة بوسبوك سفير كارل (شارلكان) الموجود حينئذ في اسطنبول إلى ملكه بعد 15 يوماً من عملية القضاء على إبراهيم باشا تبين الدهشة بكل وضوح.

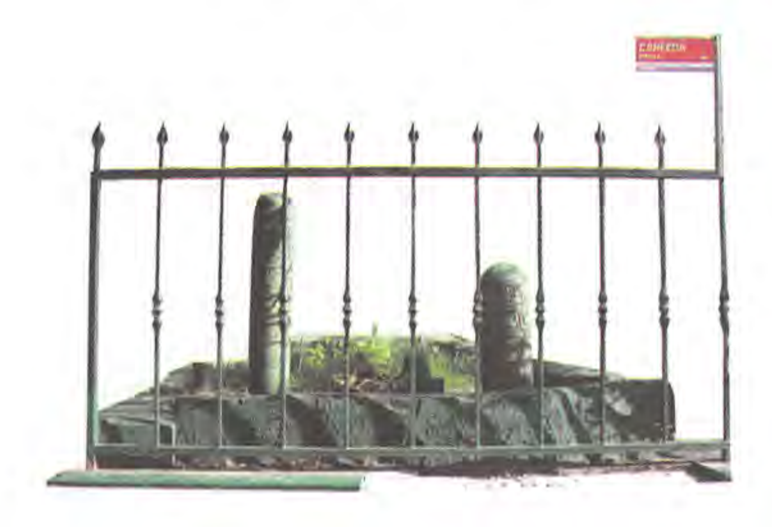
ما الذي حدث ليجعل الداهية السياسية الذي شغل منصب الصدر الأعظم 13 عاماً، وقد انتُقد

السلطان سليمان لترقيته إلى هذا المنصب من رئاسة الغرفة الخاصة، ومؤسس نظام الدولة المصرية واقتصادها، وقامع تمرد قلندر جلبي بمهارة، وقائد الجند على رأس الجيوش، والذي حل أزمة آل شرف خان في بيتليس بسهولة، والمتقن لعشر لغات تقريباً كلغته الأم يعاقب هذه العقوبة؟

لنوضح هذا بشكل خاص: في بنية الدولة العثمانية تأتي الدولة في أولوية المقدسات ثم المجتمع ثم الإنسان. من يمس هذه المقدسات بسوء يعاقب دون اعتبار لأي شيء. وإذا كان الذنب المرتكب يتعلق بالمجتمع ككل، وخاصة إذا كان سيؤدي إلى فتنة كبرى فالعقوبة تنفذ فوراً. بحسب تقاليد الدولة العثمانية، يُحب الناس، ويمنحون الوفاء، ويذكرون بالخير بعد وفاتهم، ولكن تلك المقدسات توضع في المقدمة دائماً. عندما يتعلق الموضوع بالدولة، فيغدو حتى السلطان سليم تالياً في الأهمية. وكما سترون في آخر الكتاب، فإن السلطان سليم عندما توفي في زيغتفوار، خبئت جثته لأيام، ووضعت جانباً حتى تم فتح القلعة. لأن المهم هو فتح القلعة وليس وفاة السلطان. أي أن القضايا المتعلقة بالدولة والمجتمع أهم من القضايا المتعلقة بالأشخاص دائماً.

وكما شرحنا في بحث: «أمير مانيسا مدينة الأمراء» فإن صداقة السلطان سليمان وإبراهيم باشا تعود إلى أيام مانيسا. وعندما أدخل هذا الشاب الموهوب إلى القصر ترقى بسرعة، ووصل إلى الصدارة العظمى. ماذا قال أو فعل هذا الرجل الذي وقّع على نجاحات كثيرة، ونال حظوة كبرى، وعاش في قصر يطل على ساحة الخيل يعادل قصر طوب قاب، فآذى بقاء الدولة؟

الجانب الغريب في الأمر أن مؤرخي تلك الأيام لم يسجلوا تفاصيل هذا الموضوع. المؤرخ إبراهيم باشا المتزوج من أخت السلطان سليمان مثله مثل إبراهيم باشا، وأصبح فيما بعد صدراً أعظم أيضاً لم يذكر هذه القضية سوى في جملة واحدة. وبحسب ما شرحه أوزون تشارشلي فإن كبيري علماء المسلمين في الأناضول وروملي قدري أفندي ومحي الدين أفندي سألا السلطان سليمان



قبر إبراهيم باشا الواقع في أول زقاق جان فدا المسدود في فندقلي

عن وضع إبراهيم باشا أثناء الاستشارات إثر العودة من حملة كورفو، ويخسران موقعهما نتيجة هذا السؤال.

لنأت إلى السبب الذي مهد لنهاية إبراهيم باشا، وفتنته. بداية لا بد من القول إن بقاء الشخص فترة طويلة في مكان مهم جداً يولد له أعداء بقدر ما يولد أصدقاء. ونرى هذا في حالة بقاء صوقولو في الصدارة العظمى فترة طويلة، وإصدار القانوني قراراً بإعطاء ابنته الوحيدة لرستم باشا. قضية سرعة ترقي إبراهيم باشا حقيقية. فقد أعطي ما لم يعطَ لغيره حتى ذلك اليوم. وبالطبع فإن هذا جعله يطير في الهواء. يمكن أن يكون قد قال كلاماً أسيئ فهمه أو أقدم على تصرفات ومواقف يمكن أن تتسبب بفتنة.

القضية بالنسبة إلى أوزون تشارشلي، أن عُلما باشا الذي رافقه في حملة العراقين حرضه قائلاً: «هل كثير منح لقب سلطان لوزير أعظم سلطان السلاطين العثماني إذا كان شاهنشاه العجم يمنح ملاك المقاطعات لقب شاه؟» فاستخدم بعد ذلك لقب: «السلطان قائد الجيش» في قراراته التي كان يُصدرها. بالطبع استغل أعداءه هذا الوضع بشكل خطير، وأوصلوه إلى القانوني.

بالغ أعداء إبراهيم باشا ببعض مواقفه وتصرفاته. على سبيل المثال، قضية غنائم حملة المجر عام 1526. تُجلب بعض التماثيل، ومنها ما يعود إلى العصور



IBRAIM PASCIA VISIR AGHA DI GIANNIZZARI

القديمة من نواحي بودين بين الغنائم المجلوبة، وتوضع في ساحة الخيل (ساحة السلطان أحمد) لتعرض باعتبارها رمزَ الانتصار كما جرت العادة. ولكن هذا الأمر جعل إبراهيم باشا يُتهم بعبادة الأوثان. وقد ورد هذا في شعر فيغاني:

«جاء الخليل الأول فحطم الأصنام

جئت يا خليل فعبدّت الناس الأصنام»

ويقارن هنا بين كسر النبي إبراهيم الخليل التماثيل بالبلطة، ونصب إبراهيم باشا التماثيل على أنها أصنام أمام القصر.

وهناك قضية الدفتردار اسكندر جلبي، ويمكن أن تذكر هذه الحادثة باعتبارها أهم الأسباب التي أدت إلى نهاية إبراهيم باشا. في خريف عام 1533 خرج إبراهيم باشا على رأس طليعة الجيش في حملة إيران برتبة قائد الجيوش، وعُين السلطان سليمان شخصياً الدفتردار اسكندر جلبي معاوناً له. وقد حذر السلطان إبراهيم باشا في هذا الموضوع، ونبهه لأن يثق به وألا يخالف رأيه. ولكنهما يختلفان بالرأي أثناء حملة إيران، وفي قضية ما إذا كانا سيدخلان بغداد أولاً أم تبريز لم يوافق إسكندر جلبي على قرار إبراهيم باشا بالدخول إلى تبريز أولاً. دخلوا إلى تبريز، ولكن الجيش تأذى أذى بليغاً بسبب ظروف الشتاء. وفي النهاية عوقب إسكندر جلبي، وأعدم. ولكن هذا الإعدام أحزن السلطان سليمان، وسبب شكوكاً خطيرة نحو إبراهيم باشا. في الحقيقة أن اسكندر جلبي شخص غريب درّس كثيراً من الطلاب. كثير من المحولين دينياً وعلى رأسهم محمد باشا صوقولو مدانون بما وصلوا إليه لاسكندر جلبي. وتبني هذه الكوادر المتعلمة العاملة في القصر لاسكندر جلبي حضّر لنهاية إبراهيم باشا.

ولكن في تقاليد العثمانيين كما ذكرنا سابقاً، إذا حكم الشخص بالإعدام، وكانت له أعمال خيرة في الماضي فلا يعامل معاملة المذنب. يحترم الاحترام

الـلازم، ويدفـن فـي مـكان جيد. وبهـذا المعنى كان لإبراهيم باشـا خدمات هامة جـداً للدولـة فأخـذت جثتـه بعد إعدامه إلى زاوية جان فـدا التي دعمها كثيراً في حياته، ودفن في حديقتها. مع الأسـف أن زاوية جان فدا ليسـت موجودة اليوم، وتقـول المصـادر القديمـة أنهـا تقع خلف حوض بناء السـفن. يوجد اليوم مقابل جامع الملا جلبي من الناحية اليسـرى زقاق مسـدود باسـم جان فدا. ويرى على جانب هذا الزقاق بعض القبور وسـط جدران مطلية بالأخضر. من المحتمل أن تكـون الزاويـة هنـاك. ولكن مع الأسـف أنهـا نالت نصيبها مـن الإهمال، وبقيت اليـوم تحـت الأبنيـة البيتونيـة. حافظ مـن بقي من أصحاب الوجـدان على بعض القبور التابعة للزاوية، وبقيت في تلك الزاوية. يعتقد البعض أن قبر إبراهيم باشا أحد تلك القبور. وإن لم يكن هناك شيء واضح في هذا الموضوع فإن خدمات الصدر الأعظم السياسـي الأكبر في الدولة العثمانية تشـخص أمامنا كلوحة شـرف لركضه بين بارغا وزاوية جان فدا.





سلطان السلاطين والديوان السلطاني

مع الأسـف، كثير من الناس اليوم يعتقدون بأن قرارات سـلاطين السـلاطين العثمانيين مزاجية، ويقطعون الرؤوس ويشـنقون على هواهم، وإدارة الدولة كلها مرتبطة بقرارات فردية. نعم، كان ثمة إدارات كهذه في أوروبا، وتسمى إدارة حكم مطلق. وهي اسـم على مسـمى، ترتبط بسـيادة شخص واحد بشكل مطلق. ولكن الحكم المطلق في الدولة العثمانية لم يكن كما هو عليه في أوروبا في أي وقت.

منذ سـنوات تشـكيل بنية قصر طوب قابِ في عهد السـلطان محمد الفاتح بنيت قاعة تحت قبة من أجل اجتماع الديوان السلطاني، وشارك سلطان السلاطين بمناقشـات أركان الدولـة فتـرة. ولكنـه رأى أن مسـؤولي الديـوان لا يتكلمـون براحتهم في حضرته، فاتخذ قراراً بألا يحضر اجتماعات الديوان إلا في حالات الضـرورة. تُتخـذ القـرارات باجتمـاع يديـره الصـدر الأعظم، ثم يعرض على سلطان السلاطين. وعندما نذهب اليوم إلـى قصـر طـوب قـابِ فإننا نـرى هذه المؤسسات التي نتحدث عنها بوضوح.





تحت القبة والنافذة التي يتابع منها سلطان السلاطين اجتماع الديوان

يشمخ أمامنا برج العدالة في ساحة البيرون (خارج الحرم والمدرسة السلطانية)، وقصر الديوان السلطاني ذو القبب الثلاث تحت البرج باعتبارها الأبنية الأبرز. إنها المكان الأكثر بهرجة لأن السفراء الأجانب يدخلون إلى هناك كثيراً، ويقدمون طلباتهم هناك. يجب أن تكون هذه ذات أبهة لأنها تمثل الدولة. يجب أن يُسحق الأجانب تحت هذه الأبهة، أي كما في رواية عمر سيف الدين «القفطان ذو اللؤلؤ الزهري».*

* رواية ملخصها أن الديوان العثماني يقرر إرسال سفير إلى الشاه إسماعيل، وضرورة أن يكون هذا السفير جريئاً وذكياً لا يخشى الموت بحيث يمثل عظمة الدولة، فيطرح اسم محسن جلبي، ويرفض هذا الرجل الحصول على الألبسة اللائقة والخيول لإيمانه بأن التضحية يجب أن تكون دون مقابل، فيرهن كل ما يملك من أجل الإعداد لهذا السفر. يشتري قفطاناً غالياً جداً لا يحلم الشاه إسماعيل به، وعندما يمثل أمام الشاه يقبل رسالة سلطان السلاطين ويقدمها له. يلتفت فيما حوله باحثاً عما يجلس عليه فلا يجد، وهذا كان معد خصيصاً من أجل أن يبقى الناس في حضرته واقفين، فيخلع قفطانه، ويمده على الأرض أمام العرش، ويجلس عليه. ويقول للشاه إسماعيل بأنه ليس أصيلاً كسلطان السلاطين التركي، ويخرج. أثناء خروجه يلحقه الجنود بالقفطان، فيلتفت إليهم ويقول: «التركي لا يمكن أن يضع على ظهره ما مدّه على الأرض ليجلس عليه» ويخرج.



وكما يُرى اليوم فإن هناك ثلاثة أقسام في الديوان: تحت القبة، وقاعة الكتاب، والأرشيف. إذا أدرنا ظهرنا إلى مطبخ القصر فإن الجزء الواقع في أقصى اليسار هو «تحت القبة». وهذا أهم قسم. المكان الأوسط للصدر الأعظم. جلس كثيرون طوال التاريخ في هذا المكان، وصدرت أحكام كثيرة. يجلس على المقعد المطاول نفسه أعضاء الديوان وهم الدفتردار وحامل الخاتم وكبير علماء الدين وقبطان البحر ورئيس الكتاب وغيرهم. ومكان سلطان السلاطين خلف النافذة التي تعلو مكان الصدر الأعظم. لا يحضر الاجتماع لكي لا يؤثر في القرارات، بل يتابع المناقشات أحياناً من خلف النافذة. لأن سلطان السلاطين هو الذي

يختار هذه الهيئة أو يعزلها عليه أن يتابع من يختارهم، ويرى إمكانياتهم. أي مثلما نحن نتابع من ننتخبهم في المجلس عبر التلفاز. إذا لم يعجبونا فلا ننتخبهم في الدورة التالية.

الجزء الثاني من الديوان السلطاني هو قاعة الكتاب. يجلس الكتاب هنا على المقعد المطاول كما يجلس الوزراء «تحت القبة» متربعين، ويمسكون بأيديهم رزم الورق، استعداداً لكتابة القرارات التي سيتخذها الديوان الذي سينعقد بعد قليل. لا يفصل بين «تحت القبة» وقاعة الكتاب سوى ستارة. ومازال كورنيش هذه الستارة موجود حتى اليوم بين القاعتين.

عندما انتهاء الاجتماع ينهض رئيس الكتاب أحد أعضاء هيئة «تحت القبة»، ويجمع الأوراق من الكتاب، ويقدمها للصدر الأعظم. وهذا يحمل القرارات التي اتخذها وزراء تحت القبة، ويذهب إلى غرفة العرض عند مدخل ساحة مدرسة القصر ليعرضها على سلطان السلاطين.

ثمة عرش واسع يجلس عليه سلطان السلاطين في قاعة العرض. عندما يُذكر العرش يخطر للبعض شكل السرير العريض نكاية بالأوربيين الذين يجلسون على مقعد يسندون أيديهم فيه إلى مسندين جانبيين، وظهورهم إلى مسند خلفي. إنه عرش عثماني حقيقي يجلس عليه السلطان متربعاً. يستمع السلطان إلى القرارات المتخذة هنا، ويوافق أو يرفض كل واحد منها على حدة. وبالطبع يأخذ هنا بعين الاعتبار الكتابة على الجدار الظاهر من النافذة المقابلة. يفصل الجدار المقابل بين الساحة الخارجية وساحة مدرسة القصر، وفيه «باب السعادة» الذي يعبر منه بين الساحتين. كتب على قوس هذا الباب الفاصل بين الساحتين حديث شريف: «رأس الحكمة مخافة الله» أي أنك عندما تموت في يوم ما ستحاسب على ما وافقت عليه وما رفضته! وخذ قراراتك على هذا الأساس.

صدر أعظم عثماني

في الحقيقة، إن الشخص الذي يستطيع متابعة الرموز والكتابات في القصر العثماني يمكنه أن يفهم هدف هؤلاء الناس وطريقة تفكيرهم براحة. مع الأسف، إن كثيرين منا لا يستطيعون قراءة تلك الكتابات، لذلك لا يمكن أن يفهموا ما يعنيه القصر بالنسبة إلينا. فوق هذا، هناك من يسيء استخدام هذا الأمر عن جهل أو عداوة، ويتحدث عن شعر غزل على جدران القصر لم تكتب في أي وقت.

لبرج العدالة المشاد فوق «تحت القبة» حيث يجتمع الديوان السلطاني العثماني معنى آخر. إذا قمتم بجولة في سفينة عبر البوسفور ذات يوم، انظروا بدقة إلى القصر. سترون أن أعلى بناء في قصر طوب قابِ هو البرج ذي القمة المخروطية المدببة. أنشئ هذا البرج فوق أهم أقسام القصر ليلفت النظر، ومعناه مخبوء في اسمه. برج العدالة أو قصر العدل. بإبراز هذا البناء تشد الأنظار لتقديم الرسالة الآتية: «العدالة أهم ما في دولتنا وأسمى ما في إدارتنا».

لم أنته بعد. لدي لكم مفاجأة أخرى. قلنا إن سلاطين السلاطين العثمانيين كانوا يتابعون اجتماعات الديوان من نافذة. تقع الغرفة الموجودة فيها تلك النافذة داخل برج العدالة. المدخل إلى هذا البرج من ساحة الأغوات الزنوج. فوق هذا الباب الذي يدخل منه سلاطين السلاطين كتب حديث شريف آخر: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة»





النتيجة

رأينا في هذا العمل الذي بدأنا فيه من الجد السلطان بيازيد وصولاً إلى الربع الأول من حكم السلطان سليمان أن غوص الإنسان في أمهات كتبه، ونظره إلى التاريخ من منظار قيمه الأساسية يمكن أن يحل كثيراً من المشاكل، ويكشف كثيراً من المواضيع المعقدة التي لا يمكن الخروج منها.

بقاء زوجات السلطان بيازيد الثلاث خارج اسطنبول لسنوات مع أبنائهن في سناجق بعيدة يرينا أن الحرم ليس مكاناً للمتعة كما يُعتقد. لا يعتمد نظام الدولة العثمانية على رغبات الأشخاص، بل على تضحياتهم.

في الحقيقة، إن هذا العمل لم يعرض حياة السلطان سليمان فقط، بل يعرض كثيراً من التفاصيل التي يجب أن نراها في عصره والأشخاص الذين رافقوه. حسنٌ، ما الذي رأيناه وانتبهنا إليه وشعرنا به وبحثناه في هذا العمل:

رأينا في حياة السلطان سليمان والدة جعلت من توزيع العلاج الذي شفاها على الإنسانية إلى يوم القيامة هدفاً، ووالداً طلب أن يدفن مع قفطان نثر عليه حصان عالم دين طيناً.

قابلنا أساتذة لا يشق لهم غبار في العلم والتقوى في المدارس الدينية والديوان.

رأينا في التكايا والزوايا ومراكز الطرائق الدينية متصوفين يزهدون الدنيا على الرغم من وضعها عند أقدامهم.

رأينا في كتابات العمل وتعريفاته فنانين متواضعين كالتراب ويصفون أنفسهم بقول: «الحقير والفقير» حتى وإن وصلوا إلى ذروة الفن.

بحثنا في رجال دولة كانوا في الذروة، ونُقلوا إلى وظائف بسيطة فلم يغيروا مواقفهم ولو مقدار ذرة خلال تلك الفترة الزمنية.

رأينا في ساحات الوغى وحصار القلاع جنوداً يدخلون تحت مطر السهام والزيت الحامي دون أن يرف لهم جفن من أجل السيطرة على قلاع الكفار، وأسسوا في كل زاوية مقبرة شهداء.

قابلنا نظام عدل تعاقب فيه المحكمةُ المرء حتى لو خدم الدولة خدمات جليلة ولسنوات طويلة عندما يتسبب بفتنة تصيب الناس عموماً.

شهدنا نظاماً حقوقياً يعاقب مرتكب الخطأ حتى لو كان الولد من الزوجة الأولى أو من الثانية دون أي تمييز.

حتى إننا شهدنا في هذه المرحلة سلطان السلاطين لا يمنح التماساً لأحد. عند موت سلطان حكم 46 سنة عند أسفل أسوار زيغتوار لم تهتز شعرة للصدر الأعظم، فأدركنا أن فتح قلعة أهم من موت سلطان العالم.

لأن الدولة والمجتمع والإنسان هي المقدسة في بنية هذه الدولة والمجتمع،

رأينا قلوباً مليئة بالخوف من الله تعاقب الإداري إن كان ابن حُرّم أو إبراهيم باشا إذا تسبب بأذى للمقدس، وإذا كان موت السلطان يؤخر المقدس، يؤجل دفنه.

رأينا شـجعاناً لا يعرفون التعب منطلقين في أرياف أوروبا لبثِّ الرعب في قلوب الكفار دون أن يستمتعوا في اسطنبول على أنهم أبناء عمة السلطان سليمان أولاد أخت السلطان سليم الجبار.

أصغينـا لقلـب يخفـق بالخـوف مـن يوم الحسـاب، ولم يصدر قـراراً يتعلق بالنمـل دون مراجعـة العلمـاء، وكتب على الجـدار المقابل لغرفة العرض: «رأس الحكمـة مخافـة اللـه»، وطلـب أن يُدفن مـع فتاوى القرارات التـي أصدرها كلها باعتباره النقطة الأخيرة في ذلك القرار.

تحدثنـا عـن قرصـان يبـث الرعـب في قلـوب العـدو والطمأنينـة في قلوب الصديـق أثنـاء إبحـاره، ويحارب في النهار، ويتعبد في الليل، ويتخلى عن الملك والمال والسلطنة بعد أن كان ملكاً على الجزائر، ويذوّب شخصيته في الشخصية المعنوية العثمانية.

تعرفنا على كثير من الأمهات العثمانيات المضحيات والمعانيات في سـبيل تنشئة الأمراء ليكنّ بجانبهم في السناجق مبتعدات لسنوات عن أزواجهن، وحتى إنهن متن ودفنّ هناك.

وصلتنـا بعـض الأمـور مـن زاوية البعـض العمياء. أولئك أعـداء وجهلة في آن واحـد. كانـوا بعيديـن إلى أقصى الحدود عن شـرح إنسـاننا ومدينتنا وعقيدتنا وثقافتنا وآدابنا. هاجمونا وكتبوا عنا، ورسموا بجهل وسوء نية على مدى سنوات. صوروا لنا لوحات خيالية عن المسـاوئ التي في عقولهم وليس عن العثمانيين. ومنعوا عنا أرشـيفنا الذي يلعب دور الجسـر بين ماضينا وحاضرنا، وغطوا على الكتابات والرموز التي تذكرنا فيه، وغربونا عن العثمانيين إلى درجة عدم قراءة أي سـطر عنهم، وصرنا نسـتعين بالمصادر الأجنبية المليئة بالجهل. بدأنا نرى محارم بيتنا من خلال غرف نوم الآخرين. بالنتيجة وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم. ثمة أجيـال اليـوم تريـد أن تتعـرف علـى ماضيها مـن جديد ومن مصـادره الصحيحة.

لدينا شعب فيه شباب يتابعون ندوة عن التاريخ تمتد ساعات على نَفَسٍ واحد، وربات بيوت يتابعن المسلسلات التاريخية على أمل معرفة أجدادنا، وأفلام تحطم أرقاماً قياسية بعدد المشاهدين عندما يقال: «هذا الفيلم تاريخي». إذا كان ثمة رغبة، ستكون هناك نتيجة. إذا توفر العزم سيتأتي النجاح. أنا مؤمن بأن الأجيال الجديدة ستفهمهم أكثر منا، وستفسر تفاصيل حياتها بشكل أنجح منا. سأعتبر نفسي محظوظاً إذا ساهم هذا العمل بالصعود درجة على سلم تطوير هذا المفهوم.

طلحة أُوغورلو إِلْ

المصادر

ا. برابر، قسطنطينوبول، اسطنبول 1959.
عبد الحق عدنان أضِوار، العلم للأتراك العثمانيين، اسطنبول 1991.
أحمد آق غوندوز، المجهول في العثمانية، 1999.
أحمد آصرار، السياسة الدينية والعالم الإسلامي في الدولة العثمانية في عهد القانوني، اسطنبول 1972.
أحمد بان أوغلو، السلطان سليمان القانوني، اسطنبول 1944.
أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، اسطنبول 1983.
أحمد دة دة منجّم باشِ، تاريخ منجم باشِ.
أحمد منتش، قصر طوب قابِ، اسطنبول 1992.
أحمد رفيق، تاريخ تركيا، اسطنبول 1923.
علي حيدر بيات، «السلطانة حفصة» DİA، اسطنبول 1977.
آمي سينغر، عمل الخير لدى العثمانيين، اسطنبول 2004.
عاشق باشا زادة، تواريخ آل عثمان، اسطنبول 1915.
عوني صاواش قونضو، حصار فيينا الأول، المنشورات العسكرية، اسطنبول 1946.
برنارد لويس، اسطنبول والحضارة العثمانية، اسطنبول 1975.
بوستان جلبي، غزوات السلطان سليمان، أياصوفيا رقم: 3317.
جاهد بلطجي، المدارس العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، اسطنبول 1976.
........، «السلطانة خُرّم»، DİA، اسطنبول 1998.
جاويد بايصون، «السلطانة مهروماه» الموسوعة الإسلامية، اسطنبول 1960.
تشاغاطاي ألوتشاي، «بعض الملاحظات والوثائق حول السلطان سليمان القانوني وعائلته»، هدايا القانوني، أنقرة 1970.
........، رسائل من الحرم، اسطنبول 1956.
........، رسائل حب للسلاطين العثمانيين، اسطنبول 2001.

........، نساء سلطان السلاطين وبناتهم، أنقرة 1980.
تشاغاطاي أولوصوي، الموسوعة التاريخية، اسطنبول 1967.
دنيز أوزر، الصدر الأعظم الذي تعرض لغضب السلطانة خُرّم، مجلة تاريخ العالم التركي، اسطنبول 1988.
ضوغان قوبان، كلية الخاسكي، موسوعة اسطنبول من الأمس إلى اليوم، اسطنبول 2003.
إكهاردت، تاريخ المجر، ترجمة إبراهيم قفص أوغلو، أنقرة 1949.
إدموندو أميكيس، اسطنبول، اسطنبول 1987.
أكمل الدين إحسان أوغلو، تاريخ الدولة العثمانية، 1، 2، اسطنبول 1999.
أنور بهنان شابوليو، تاريخ السلاطين العثمانيين، اسطنبول 1961.
أنور ضيا قارال، التاريخ العثماني، أنقرة 1947.
إرطغرول دوز ضاغ، مذكرات خير الدين باشا بربروس، مكتبة قاينق، 2008.
أنيس أنِل، سليمان نامة، نيويورك 1986.
أشرف بيه، معركة موهاج، المنشورات العسكرية، اسطنبول 1930.
أوليا جلبي، سياحة نامة، اسطنبول 1986.
فايرفاكس دوني، السلطان سليمان القانوني، اسطنبول 1975.
........، السلطان سليمان القانوني، مطبعة التربية الوطنية، وزارة الثقافة، 1975.
فاروق سومر، «خير الدين باشا بربروس» مجلة تاريخ العالم التركي، العدد 21، 1988.
فريدون أحمد باشا، منشآت السلاطين (فتح نامة موهاج)، اسطنبول 1985.
فرانز بابينغر، «Mehemt the Conqueror and His Time»، 1978.
فؤاد كريم، اسطنبول في عهد القانوني، اسطنبول 1964.
فؤاد كوبرولو، اسطنبول في عهد القانوني، اسطنبول 1964.
حقي ضرصون يلضظ، تاريخ الإسلام الكبير، اسطنبول 1990.
خليل خالد، تدبير السلطان سليمان في فتح رودس، اسطنبول 1326.
خليل إنالجيق وجمال قفادار، «Suleyman the Second and His Time»، اسطنبول 1993.
خير الدين أفندي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، اسطنبول 1886.
سعد الدين خوجا، تاج التواريخ، مطبعة التربية الوطنية اسطنبول، 1974.
خلوصي ياووظ، الدولة العثمانية والإسلام، اسطنبول 1991.
ابن كمال، تواريخ آل عثمان، شرف الدين طوران، أنقرة، 1970.
........، ظفر نامة خسرف في تاريخ السلطان سليمان، مكتبة الفاتح، رقم 4221.
إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، البنية العلمية للدولة العثمانية، أنقرة 1984.
........، تاريخ العثمانيين، أنقرة 1983.

إسماعيل حلمي دانشمندت، التاريخ العثماني المتسلسل مع الشرح، منشورات دار تركيا، اسطنبول 1971.

موسوعة اسطنبول، منشورات وزارة الثقافة، اسطنبول 1994.

جوزيف فون هامر، تاريخ الدولة العثمانية، 5، اسطنبول 1330 ه.

........، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: محمد أطا، اسطنبول 1911.

كاتب جلبي، فذلكة، اسطنبول 1986.

كمال الدين شكرو، الأخوة بربروس، اسطنبول 1832.

لطفي باشا، تواريخ آل عثمان، اسطنبول 1341.

م. ا. يكتا صراتش، شيخ الإسلام كمال باشا زادة، اسطنبول 1995.

م. إرطغرول دوزضاغ، فتاوى شيخ الإسلام أبو السعود أفندي، اسطنبول 1993.

م. فؤاد كوبرولو، «The Origins Of the Ottoman Empire»، 1935.

م. حلمي، حملة السلطان سليمان القانوني إلى بغداد 1533-35، اسطنبول 1932.

م. طيب غوكبلغن، «السلطانة خُرّم» الموسوعة الإسلامية، اسطنبول 1964.

........، سليمان الأول، الموسوعة الإسلامية 3، اسطنبول 1993.

........، تدابير إبراهيم باشا لحملة العراقين وفتحها بحسب الوثائق والمعروضات، أنقرة 1957.

........، سياسة السلطان سليمان القانوني الأوروبية والمجرية، هدية القانوني، منشورات TTK، أنقرة 1870.

محمد همدمي جلبي، تاريخ صولاق زادة، أنقرة 1989.

محمد نرمي خاصقان، تاريخ أيوب 1، اسطنبول 1993.

مراد آقغوندوز، مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية، اسطنبول 2002.

مراد بلغة، دليل نزهة في اسطنبول، منشورات الوطن لأوقاف التاريخ، 2002.

مصطفى جزار، التاريخ العثماني المفصل، اسطنبول 1958.

مصطفى غولر، أوقاف الدولة العثمانية للحرمين، اسطنبول 2002.

مصطفى مفتي أوغلو، ليخجل التاريخ الكاذب، اسطنبول 1981.

نامق كمال، التاريخ العثماني، منشورات حريت، اسطنبول 1971.

ناظم بوروي، الباشوات المدفونون في اسطنبول، مطبعة بلدية اسطنبول، اسطنبول 1947.

نجدت صقا أوغلو، «السلطانة ميهريماه» موسوعة اسطنبول من الأمس إلى اليوم، اسطنبول 1994.

نجاة أوتشتوم، «الرسائل التي كتبتها السلطانة خُرّم والسلطانة ميهريماه إلى ملك بولونيا» بللتان، 1980.

نعمت طاشقران، كتاب الخاسكي، اسطنبول 1972.

أوجير غيسلين دي بوسبك، «The Turkish Letters of Ogier Ghiselin de Busbecq»، 1968.

أوقطاي أصلانابا، عمارة العصر العثماني، اسطنبول 2004.
عثمان كسكين أوغلو، خدمات المسلمين للعلم والحضارة، أنقرة 1971.
عثمان طوران، تاريخ أمثولة حاكمية الترك للعالم، منشورات نقشلر، 1978.
باول كولس، التأثير العثماني في أوروبا، ترجمة وجدي بُرُن، اسطنبول 1975.
سميحة آيفيردي، العصور العثمانية في التاريخ التركي، منشورات ضملة، اسطنبول 1975.
........، العصور العثمانية في التاريخ التركي، اسطنبول 1975.
سما ضوغان، «كلية الخاسكي» DİA، اسطنبول 1977.
سماوي إيبجة، «حمام الخاسكي»، DİA، اسطنبول 1991.
سنا أقشين، تاريخ تركيا 2، اسطنبول 1993.
........، تاريخ تركيا 2، اسطنبول 1087.
شرف الدين طوران، «تأريخ ابن كمال»، شيخ الإسلام ابن كمال، أنقرة 1989.
........، «من السيطرة على رودس إلى معركة مالطة» هدية القانوني، TTK، أنقرة 1975.
شكرو قرة تبة، المؤسسات السياسية العثمانية، اسطنبول 1999.
طلعت حاصرجي أوغلو، «السلطانة حرم من النساء صاحبات السلطة في القصر العثماني»، مجلة التاريخ المصورة، اسطنبول 1956.
وزارة الثقافة والسياحة التركية، «The Ottoman Empire in the Reigne of Suleyman the Magnificent»، أنقرة 1988.
يشار يوجل، 46 عاماً مع القانوني، أنقرة 1991.
ياووظ بهادر أوغلو، موسوعة السلاطين العثمانيين، منشورات نسل، اسطنبول 1986.
يلضظ دمير إز، «جامع السلطانة مهريماه ي أسكودار»، عالم الفن، اسطنبول 1980.
يلماظ أوزطورون، تاريخ تركيا الكبير، اسطنبول 1983.
.......، تاريخ تركيا الكبير، منشورات أوتوكان، اسطنبول 1979.
يوسف كوتشوك ضاغ، محمد باشا بيري، قونية 1994.
ضيا قاظجي، الحياة العلمية في الدولة العثمانية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، منشورات أنصار İSAV، اسطنبول 1999.
.......، تاريخ الحضارة الإسلامية، اسطنبول 1982.
ضيا نور أقصون، التاريخ العثماني، اسطنبول 1944.
.......، التاريخ العثماني، منشورات أوتوكان 1، اسطنبول 1994.

سُلطانُ حَكَمَ العَالم

«القانوني»

رحلة شيِّقة في تاريخ الدولة العثمانيَّة

ستجدون في هذا الكتاب أجوبة عن كثير من الأسئلة التي شوشت العقول مثل: كيف جلس السلطان سليم الجبار على العرش؟ وكيف كانت الخاتون حفصة؟ وكيف تم اختيار السلطانة حُرّم؟ وكيف حظيت بالحب؟ وكيف رُفِّع إبراهيم باشا من عبد إلى الموقع الرفيع الذي وصل إليه، ولماذا أعدم؟ وما الذي يكمن وراء حقد الأوروبيين على العثمانيين؟ ولماذا هم معجبون بهذا الشعب الذي يكنون له كل هذا العداء؟ وكيف كان خير الدين بربروس قرصاناً وبحاراً ورجل دولة؟ وما هو تأثير موقع شيخ الإسلام في إدارة السلطنة العثمانية؟ وما هو الديوان السلطاني؟ وممن يتألف؟ وما الفرق بين الحكم المطلق العثماني والحكم المطلق الأوروبي؟








ISBN 978-9948-446-52-1
9 789948 446521